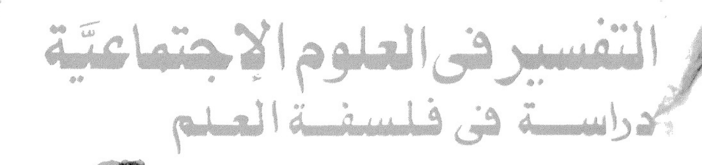


دكتورة علا مصطفى أنور

Bibliotheca Alexandrina
0138202



التفسير فى العلوم الاجتماعية

دراسة فى فلسفة العلم

تاليف

د. علا مصطفى أنور

١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م

دار الثقافة والنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهرانى - الفجالة
القاهرة ت/ ٩٠٤٦٩٦٠



« شـكر وتقدير »

بدات هـذه الدراسة على يد استاذى الدكتور زكريا ابراهيم رحمه الله . ومهما نسيت فلن انسى فضله على وتشجيعه لى ، فقد ساعدنى فى اختيار هـذا الموضوع ووجهنى فى فترة كنت فيها لم ازل بعد فى بداية الطريق ، فكان الأستاذ والمعلم والأخ الأكبر .

ولمـا تولتنى الأستاذة الدكتورة امـيرة مطر بالاشراف والرعاية اعطتنى من الثقة بالنفس ما دفعنى الى مزيد من العمل ومزيد من الجهد . ويكفى ما قدمته لى من وقت وما اتاحته لى من مناقشات وما افاضته على من علم وفكر . فكانت لى خير مرشد وخير أستاذ .

واذكر للأستاذ الدكتور سيد عويس رعايته وتشجيعه المسـتمر ، فهو الذى فتح امامى مجال البحث الاجتماعى وارشدنى الى الأسلوب العـلمى فى التفـكير والعمـل . ومنـه تعلمت حب العـلم والفـكر واحترام العمـل .

اما الأستاذة الدكتورة نازلى اسـماعيل فاقدم لها خالص شكرى وتقديرى لتفضلها بالسـماع لى أن اتردد عليهـا فأستزيد من حديثها علما ومن فكرها معرفة .

ويرجع الى المركز القومى للبحـوث الاجتماعية والجنائية وعلى راسه الأستاذ الدكتور احمد خليفه الفضل فى اتجاهى الى هذا التخصص . وانى لأشكر للمركز ولجميع العاملين فيه ما اتاحوه لى من فرص للمشاركة فى العمل العلمى وما قدموه لى من امكانيات وتسهيلات .

فلهم جميعـا احترامى وتقديرى .

« المقـــدمة »

اهتمت الفلسـفة على مر العصور بكافة اشكال الفكر ، ابتداء من الفكر الأسطورى وانتهاء بالفكر العلمى · وكان لابد للفلسـفة فى تاريخنا المعاصر ان تمتد الى داخل كافة مجالات العلم آخذة فى الاعتبار العلوم الاجتماعية · فجاءت دراسة فلسـفة العلوم الاجتماعية وليدة هذا الاهتمام من جانب الفلاسفة للاجابة على الأسـئلة التى يثيرها الواقع الاجتماعى والبحث العلمى ، والتى لم تجد اجابات شافية لها من جانب العلمـاء المتخصصين فى تلك العلوم · ان موضوع هذا الفرع الوليد للفلسـفة هو العـلوم الاجتماعية ذاتها ، ومهمته هو التحليل النقدى لمناهجها وافتراضاتها ومصادراتها ومعطياتها ، وذلك بهدف بناء نظرية تجيب على كافة الأســئلة التى يستدعيها الواقع الاجتمـاعى · فاذا كانت « فلسـفة العلم » هى القاعـدة التى يقوم عليهـا العلم الطبيعى ، فلا اقل ان تكون « فلسـفة العلوم الاجتماعية » هى القاعـدة التى تقوم عليهـا العلوم الاجتماعية ·

وقد شغل موضوع التفسير الفلاسفة منذ القدم فحاولوا دائمـا الاجابة على اسـئلة تدور حول هذا الموضوع · ومهمتنا فى هذه الدراسة تناول موضوع التفسير داخل سياق العلوم الاجتماعية ·

ويميز البعض احيانا بين « علوم اجتماعية » و « علوم انسانية » فيفضل بعضهم التعبير الأول على اساس أولوية المجتمع على الفرد ، ويفضل البعض التعبير الثانى على اساس ان الانسان هو موضوع الدراسة فى المرتبة الأولى · الا اننا نريد أن نبين ان تفضيلنا للتسمية الأولى

لا يعنى اطلاقا أولوية المجتمع على الفرد وانما هى تعبير يفترض الفرد داخل المجتمع . فاننا لا نستطيع ، حقيقة ، الحديث عن الانسان خارج اطاره الطبيعى وهو المجتمع ، ونتفق هنا مع رأى كلود ليفى ستورس فى عدم تفرقته بين علوم اجتماعية وعلوم انسانية . وتتضمن العلوم الاجتماعية كل من علم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم الاقتصاد والعلوم السياسية واللغويات وعلم النفس والتاريخ .

ان مجرد حديثنا عن العلوم الاجتماعية باعتبارها علوما يعنى فى الدرجة الأولى أنها تحاول تطوير نظريات لتفسير الظواهر التى تدرسها ، فالعلم يهدف فى المقام الأول الى كشف ما هو خفى وتوضيح ما هو غامض . وتحديدنا لهذه العلوم بأنها اجتماعية يشير الى ان الظواهر موضوع الدراسة لها اطار معين تحدث فيه ، هو المجتمع بما يشمله من افراد وانظمة وعلاقات . ولم تكن العلوم الاجتماعية لتستطيع ان توجد بدون وجود الوقائع الانسانية القابلة للملاحظة والتحليل والتفسير . واننا لا ننكر صعوبة هذه الوقائع وصعوبة ادراكها ، فان هذا الادراك ذاته هو واقعة اجتماعية جديدة تدخل كعامل مؤثر على الدراسة . ان العالم الاجتماعى الذى يتناول الوقائع بالدراسة ما هو الا نتاج ظروفه وعصره ، فقد يعانى عالم النفس الذى يدرس البشر من مشكلات نفسية ، وقد تؤثر الحقبة التاريخية التى يعيشها المؤرخ على تحليلاته ، وقد يتأثر عالم الاجتماع بالأسرة التى يعيش فيها وبالطبقة التى ينتمى اليها تماما مثل تأثر عالم الاقتصاد بالنظام الاقتصادى الذى يوجد فيه ... وهكذا ، ومن هنا تأتى كثير من المشكلات فى العلوم الاجتماعية .

ويساعد التفسير الى حد كبير على حسم مشكلات العلوم الاجتماعية فهو يثير أسئلة تحتاج أجاباتها الى توضيح الموقف المنهجى سواء فى علاقة العلوم الاجتماعية بالعلوم الطبيعية أو فى داخل المجال الخاص بالعلوم الاجتماعية ذاتها .

وقد حاولنا أن نضع مشكلة التفسير فى اطارها الواسع حتى لا تكون الدراسة مجرد سرد لأنواع التفسيرات فى العلوم الاجتماعية ، ومن هنا حرصنا على الالمـــام بكافة جوانب الموضوع . فكانت البداية متمثلة فى الحديث عن العلم بشـكل عام من حيث موضوعاته ومناهجه وعلاقته بالانسان والمجتمع ، ثم استطردنا لبيان الوضع داخل العلوم الاجتماعية ذاتها من حيث منهج البحث الملائم ومن حيث موضوع الدراسة محاولين ان نبين الخلافات التى لا زالت قائمة . وقد ارتبط بهذا الحديث عرض لبعض المشكلات المنهجية الهامة فى العلوم الاجتماعية .

وقد خصصنا الفصل الثانى للحديث عن التفسير ذاته ، من حيث الآراء المختلفة التى تدور حوله سـواء خارج العلم أو داخله وبصـفة خاصـة فى مجال العلوم الاجتماعية . وقد حاولنا تفصيل شروط التفسير وحددناها فى شرطين أساسين هما المطلب المنطقى والمطلب المعرفى ، مما دعانا الى عرض اشـكال التفسير وهى الشـكل الاستنباطى والشـكل الاحتمالى والشـكل الاحصائى ، وذلك مع ربط التفسـير ببعض العمليات المنهجية الأخرى وهى الوصف والتنبوء والتعميم .

أما الفصـول الثلاثة التالية فقد خصصناها لعرض المواقف والاتجاهات الرئيسية المختلفة . ولابد لنا أن نلاحظ منـذ البداية ان هذه الاتجاهات لا تمثل الموقف الكامل فى العلوم الاجتماعية وهو ما لا تتسع له هـذه الدراسة ، وانما حاولنا بقدر الامكان الالمـام بأهم الاتجاهات السائدة .

ويرجع تعدد الاتجاهات الى الخلاف الذى ذكرناه من قبل حول منهج البحث الملائم كنتيجة لاختلاف النظرة حول موضوع الدراسة . وأبرزنا خلال العرض بعض الشخصيات الرئيسية التى رأينا أنها تلعب دورا بارزا فى مسار كل اتجاه . فمضينا نستكشف الطريق الذى سار فيه التفسير عند الوضعيين من خلال أطوار قانون كونت ، ثم عرضنا للدور الذى يلعبه المجتمع فى تفسير دوركايم مؤكدين على اهميـة كل من

السبب والوظيفة فى هـذا التفسير • وختمنا الاتجاه الوضعى بعرض للوضعيات المحدثة والسـلوكية فبينا موقف كل من النزعة الفيزيائيـة والنزعة الذرائعية والنزعة الطبيعية وانتهينا بوجهة نظر السلوكية •

وانتقلنا مع الاتجاه الفنومنولوجى ومنهج الفهم الى موقف مختلف تماما ، موقف يؤكد على الحدس والتحليل والوصف كادوات رئيسـية فى المنهج • وقد أسلمنا الفهم الذاتى عند دلتاى ، وحرصه على اعتناق القيم والمعانى الكامنة فى عقل الفاعل الى النمط المثالى الذى قدمه ماكس فيبر حيث يلتقى الفهم الذاتى بالمعنى داخل التفسير وقد استطردنا مع هوسرل لكشف الخبرة المعاشة من خلال دراسته للوعى والمـاهيات وتاكيده على مبدأ الذاتية بما تتضمنه من رد فنومنولوجى وتعليق للحكم • وانتهينا بالنظر فى فكر شوتز الذى أقام العالم الاجتماعى على اساس المنهـج الفنومنولوجى واضـعا الفنومنولوجيا فى صميم الواقع بهدف كشف عالم الحياة اليومية •

وقد حاولنا فى الفصل الخاص بالوظيفية والبنيوية ان نبين الأسس التى قام عليها التفسـير لدى الاتجاهين ، ممـا دعانا الى عرض دور الوظيفة كما تبدت لدى مالينوفسكى وكيف تطورت مع راد كليف براون وبارسونز لكى تلتقى مع البنية • وقد قصدنا فى عرضنا للاتجاه البنيوى اجلاء الغموض الذى أحاط بهذا المنهج فركزنا اهتمامنا على البنيوية اللغوية وبنيوية ليفى شتراوس •

ولم نترك أى اتجاه أو موقف بدون محاولة تفحصه من خلال نظرة نقدية تظهر ايجابياته وسلبياته • وقد حاولنا فى الخاتمة ان نستفيد من النواحى البناءة فى كل اتجاه لتقديم تصور سليم للتفسير •

الفصـل الأول

فلسـفة العلوم الاجتماعيـة

تمهيـد : العـلم ٠

اولا ـ الآراء المتعارضة حول منهج البحث الملائم للعلوم الاجتماعية :

(أ) الاتجاه الأول : وحـدة المنهج فى العـلوم الاجتماعيـة والعـلوم الطبيعية ٠

(ب) الاتجاه الثانى : هناك مناهج للعلوم الاجتماعية متميزة عن مناهج العلوم الطبيعية ٠

ثانيا ـ الظاهرة الاجتماعية أو موضوع الدراسة :

(أ) الموقف الطبيعى ٠

(ب) الموقف اللا طبيعى ٠

ثالثا ـ مشـكلات منهجية :

(أ) شكل البحث الاجتماعى ٠

(ب) التعميم والتنبـوء ٠

(جـ) القـــيم ٠

تمهيـــد. العلم :

كان للتقدم المذهل الذى حققته العلوم الطبيعية Natural sciences أثره على التصور العـام للعلم . فقد اصبحت صورة العلم هى الصورة الموجودة فى مجموعة العلوم التى قطعت فى آن واحد شوطا بعيدا من التقدم النظرى والتطبيقى والمنهجى وهى المسماة بالعلوم الفيزيائية . وعلى هذا الأساس اصبحنا نشعر ونحن نقرا عن العلم ومناهجه أن فلاسفة العلم قد اقاموا هـذا النموذج على غرار الصورة التى تطالعنا بها العلوم الطبيعية . واصبح هـذا النموذج عند الكثيرين هو المثال الذى لابد للعـلوم الاجتماعية من اصطناعه للوصـول الى التقدم فى مجالاتها المختلفـة .

ويتفق فلاسفة العلوم بشكل عام على أن موضوع العلم يجب أن يكون ظواهر توصل جميع الدراسين الى اتفاق بشأنها مما يجعلها تستحق أن تنتمى الى قضايا العلم . فالعلم ــ ليس الا ــ دراسة الأحكام التى يحدث اتفاق عام بشأنها(١) وكل حدث جزئى Particular event مستبعد من دراســة العلم لأن العلم يدرس علاقات معينة بين أحداث معينة(٢) . ويؤكد لندبرج نفس المعنى : فيقول أن محتوى العلم فى شكله الناضج ليس الا مجموعة من القضايا التى تأكدت صحتها ، وهى مرتبطة بحيث يبدو النسق فى ضوء قواعد معينة (منطقية) متسقا مع ذاته ومتفقا مع الملاحظة التجريبية . وكلما اتسع نطاق تطبيق تلك القضايا أى كلما اتسعت مجموعة الظواهر التى تغطيها تلك القضايا زاد تأكدنا

---

(1) N. Campbell : What is Science ? New York, Dover Publications 1952 , p. 27.

(2) Ibid, p. 37.

من المعرفة الخاصة بالمجال الذى تغطيه(٣) . فالعلم هو الاكتشاف التدريجى للعلاقات الموضوعية الموجودة فى العالم الواقعى أو هو محاولة للمعرفة من اجل تفسير ما هو موجود . وهو فى محاولته هذه يقدم العالم المبنى Construit فكلما تقدم العلم ابتعدت الوقائع العلمية عن الوقائع الواقعية اى عن المعطيات المباشرة للادراك العادى . ويقول جينز : « ان الفيزياء تحاول اكتشاف انماط الاحداث Patterns of events التى تتحكم فى الظواهر الملاحظة ولكننا لا نعرف ابدا ما تعنيه هذه الانماط او كيف بدأت وحتى اذا اخبرنا ذكاء خارق عن الموضوع فاننا نجد التفسير غير معقول . ان دراستنا لا تستطيع ان تضعنا فى اتصال مع الواقع ومعناه الحقيقى ، والطبيعة لابد ان تبقى الى الأبد خافية عنا(٤) .

وعندما يكشف العلم عن قوانين الطبيعة والعلاقة بين الظواهر فهو يستجيب لرغبة الانسان فى المعرفة والفهم ، وفى هذا يكون متميزا عن التقنية la technique التى هى مجموعة الاجراءات التى تهدف الى احداث نتائج مرغوبة مستخدمة فى ذلك قوانين العلم Lalande والخلط الموجود لدى الناس بين مفهومى العلم والتقنية يرجع الى ان العلم يصل اليهم فى صورة تطبيقاته العلمية .

ومهما حاولنا تعريف كلمة علم فى النسق الفلسفى أو المعرفى فانه

---

(3) G. A . Lundberg The Postulates of Science and their Implications for Sociology. In M. Natanson (ed) Philosophy of social Sciences : areader New York : Random House. 1963 p. 34 .

(4) Sir James Jeans . Physics and philosophy. Camioridge : The University Press, 1948 p. 16.

من الواضح أنه يبدأ من استخدام الملاحظات السابقة بهدف التوصل الى التنبوء بالمستقبل ، فالعلم يبدأ بالفعل عندما نستعين بالمبادىء العـامة لاختبار الواقعة ، وعندما نستخدم الموضوعات العملية والعلاقات النظرية المرتبطة بها من اجل التحكم فى الفعل الانسـانى ٠ ان تعريف العلم يتطلب دائمـا وجود قوانين عامة ، ثم محاولة للتجربة او الملاحظة ، وأخيرا تحكم عن طريق التطبيق العملى(٥) ٠

وعلى حين ان بعض العلماء المعاصرين لا يزالون يرون فى العلم مجرد إداة للسيطرة على الطبيعة ، نجد علماء آخرين يرددون افكار الفيثاغوريين عن جمال العلم ، فيقولون ان العنصر الأساسى فى المعرفة العلمية انما هو ما تنطوى عليـه من انسجام جمالى ٠ ومنـذ عهد قريب صرح العلامة « ماكس بورن » بأن اللذة التى يجدها فى العلم لهى أشبه ما تكون باللـذة التى يجـدها المرء فى أن يسـتمتع بجمال غروب الشمس(٦) ٠ تماما مثلما أعلن العالم الرياضى « هنرى بوانكاريه » من قبل بأن العالم لا يدرس الطبيعة لأن هذه الدراسة نافعة ، بل هو يدرسها لأنه يجد لذة فى ذلك ، وهذه اللذة ترجع الى أن الطبيعة نفسها جميلة ٠ واذا لم تكن الطبيعة جميلة فانها لم تكن لتستحق أن تعرف ولمـا كانت الحياة نفسها تستحق أن تعاش ٠ ويوضح بوانكاريه ما يعنيه بجمال الطبيعة : فهو ليس هـذا النوع من الجمال الذى يخاطب الحواس بل هو الجمال الذى ينبع من النظام المتناسق بين الأجزاء ، ويستطيع ذكاء خاص أن يدركه ٠ ان الجمال الفكرى يكتفى بذاته ، ومن أجل هذا

---

(5) B. Malinowski. A. Scientific Theory of Culture in P.P. Wienner (ed .) Readings in Philosophy of Science New York : Charles Scribner's Sons. 1953pp 387 - 393, p. 392.

(٦) د٠ زكريا ابراهيم : قيمـة العلم بين النظرية والتطبيق ، الفكر المعاصر ، عدد ١٠ ، فبراير ١٩٦٦ ، ص ص ٢٦ ـ ٣٣ ، ص٣٦

الجمال وحـده وليس من أجل شىء آخر يسـتغرق الباحث فى أعمال طويلة وعسـيرة(٧) .

وفى الواقع ان العلم حركة اجتماعية ، وأن العـالم مندمج فى المجتمع ملتزم بالتاريخ ، فليس فى وسعنا ان نقيم حاجزا أخلاقيا بين العلم النظرى المحض والعلم التطبيقى العملى . فليس ثمة تفكير علمى خالص ، بل هناك حركة علمية اجتماعية تحمل فى طياتها نتائج معينة ودلالات خاصـة وآثارا محددة(٨) . فالعلم لم يتطور فى فراغ بمعزل عن المجتمع ، فنحن نحاول أن نرى تطور العلم والحكمة فى اطارهما الاجتماعى لأنه لا يمكن ان توجد حقيقة خارجة وما كان العلم ليستطيع النمو بدون المجتمع(٩) .

ويتطور العلم بصفة مستمرة فهو ليس مجرد تراكم من المعلومات او مجموعة الأنسقة النظرية المختزلة من التجربة ، ولكن النظرية العلمية هى طريقة لتعقيل التجربة كما تتبدى فى حقبة معينة ولكنها لا تكف عن التطور مع اتضاح تلك التجارب وازدياد خصوبتها . ان العلم اذن ليس تراكما استاتيكيا من المعلومات الفكرية ولكنه يتجدد باستمزار وينقد فى ضوء الخبرة(١٠) ، وفى ضوء الظروف النقدية والتاريخية . مثال ذلك تطـور الفيزياء من الميكانيكا الكلاسـيكية الى ميكانيكا الكم على يـد « ماكس بلانك » فى أوائل هـذا القرن . فلم تجلب ميكانيكا الكم ادراكا

(7) H. Poincaré Science et Méthode- Paris, Ernest Flammarion . 1908 p. 15.

(٨) د. زكريا ابراهيم : المرجع السابق : ص ٢٨ .

(٩) جورج سارتون : تاريخ العلم ، الجزء الأول ، ترجمة محمد خلف الله وآخرون ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ص ٢٦ .

(10) D. H. Theobald. An introduction to the Philosophy of Science. London Methuen Co. Ltd. 1968 p. 12.

جديدا للعـالم فحسب بل طرحت تفسيرا جديدا تماما للظواهر فيه ، ولأول مرة ترك المجـال مفتوحا لدخول الصـدفة فى العلم بصـورة تامـة(١١) .

ان العلم ككل ـ النشاط نفسه بأهدافه ومناهجه وأفكاره ـ يتقدم عن طريق التغيير والانتقاء Variation and Selection . ولا يتقدم العلم بالتعرف فقط على صدق ملاحظات جديدة ، ولكن عن طريق ادراكها ولهذا الغرض نقدم مبادىء للاطراد وتصورات للنظام الطبيعى ومثل عليا ... الخ ، كلها أشكال فكرية توضح الأشياء التى نقبلها باعتبارها مطلقة ومرضية للعقل(١٢) .

ويرى بوانكاريه أن هناك دائما انتقاء للوقائع Selection des faits والوقائع التى يجب أن نبحثها هى الوقائع البسيطة التى يكثر تكرارها . ان المنهج هو انتقاء للوقائع وبالتالى يجب أن ينصب الاهتمام على وضع منهج . الا أننا عندما نطبق القاعدة التى تقوم على البدء بالوقائع المطردة نجد أن الوقائع لا تخبرنا بشىء جديد ، فيصبح الاستثناء وليس الاطراد هو المهم . وعندئذ سوف نكف عن البحث عن التماثلات لنتعلق بالاختلافات . وسوف نبحث فى هـذه الاختلافات عن أكثرها ظهورا ليس لكونها أكثر جذبا ولكن لأنها تعطينا معلومات أكثر . وهكذا عند تطبيق قاعدة عمينة علينا أن نبحث منـذ البداية عن الحالات التى تكون فيها هـذه القاعدة على خطأ . وفى هـذه الحالة لا يكون هدفنا مجرد التشـابهات أو الاختلافات وانمـا هو التشـابهات Similitudes

---

(١١) ف . ريد نيك : ما هى ميكانيا الكم ، موسكو ، راد ميرا للطباعة والنشر ١٩٧١ ، ص ١٥ .

(13) S. E. Toulmin. Forsight and Understanding . An Inquiry into tho the Aims of science. New.York : Harper Torch Book 1961 . p. 12 .

الكامنة وراء الاختلافات الظاهرة . وهكذا نجد أن العالم لا يختار بطريقة عشوائية الوقائع التى يخضعها للملاحظة ، انه لا يقوم بحصر كل الحشرات الخاصة بنوع معين ، لأن عدد الحيوانات مهما كانت قيمته قد يخضع لتغيرات عديدة . وانما يبحث العالم عن تركيز خبرة واسعة وفكر واسع على حجم ضئيل ، لذلك نجد أن اى كتاب فى الفيزياء يضم عددا محدودا من التجارب الماضية ومئات الآلاف مثلها من التجارب المحتملة التى نعرف مقدما نتائجها(١٣) .

الا أن العلم لا يتمثل كما يقال فى مجموعة وقائع ، وانما يستخدم العلم هذه الوقائع لاقتراح وتأييد التفسيرات . أن هدف العلم اذن هو التفسير . ان تعبيرات مثل تصور ، نظرية ، قانون تتصل بالعلاقة الموجودة بين الوقائع ومعنى هذه العلاقة : انها تتيح للعالم اطارا يستطيع من خلاله أن ينظر الى المدى الواسع للوقائع الملاحظة والتعدد الموجود فيها ، ثم يفكر بعد ذلك فيما قد تعنيه ، ومن هنا تصبح النظرية تقريرا تفسيريا معبرا عن العلاقة بين التصورات . وعندما يقوم العالم بعرض تفسير لما قد لاحظه فعليه أن يقنع بقية العلماء أن الوقائع هى كما عبر عنها ، وأن كافة الوقائع المتصلة بالموقف قد خضعت للبحث . وهذا يثير العديد من الأسئلة : فهل من الممكن تكرار الملاحظات ، وهل ما رآه هو يتضح أيضا امام الآخرين الذين لاحظوا نفس الظاهرة ، وهل يتضمن تقرير الباحث كل ما كان يمكن ملاحظته أم أن هناك احتمال فى كون بعض العوامل الاضافية قد اغفلت ولم يؤخذ تأثيرها فى الاعتبار ؟ لقد دعت كل هذه الاعتبارات الى وضع متطلبات وقواعد متصلة بالعمل العالمى هو ما يطلق عليه اسم « المنهج العلمى »(١٤) .

---

(13) Poincaré op. cit. p. 13 - 14.

(14) T. Freides Litterature and Bibliography of the Social Sciences. California : Mehille publishing Co. 1973 p. 5 - 6.

يتمثل العلم اذن أساسا فى مناهج بحث فكلمة علم تشير فى العادة الى اية طريقة منظمة فى البحث(١٥) فالعلوم كما نعرفها هى موضوع بناء نظام للتصورات Concepts أساسا للتفسير وأيضا لوصف مظاهر جديدة للعالم كما تظهر فى البحث التجريبى ٠ والأسئلة التى تثيرها هى : كيف نتحدث فى هذه المواقف الجديدة ؟ وكيف تبدو ؟ وهل نستطيع أن نعاملها كما لو كانت كذا أو كذا ... ؟ هل نستطيع تكوين فروض على أساس هذا او ذاك من النماذج(١٦) ٠ ان التفكير العلمى يتخذ نقطة بدايته من المشاكل المستوحاة من أشياء ملاحظة وحوادث توجد فى التجربة العادية وهو يهدف الى فهم هذه الأشياء الملاحظة عن طريق اكتشاف نظام يؤلف بينها ٠ ويتمثل اختبارها النهائى ـ من اجل القوانين التى تستخدم كأدوات تفسير وتنبوء ـ فى ارتباط التفكير العلمى مع هذه الملاحظات(١٧) ٠ ان المهم فى العلم ليس هو تنظيم المعلومات وتصنيفها فحسب بل المهم هو ربطها والعمل على تفسيرها أيضا ... ان السمات المميزة للبحث العلمى هى التفسير ، واقامة علاقات الارتباط أو التوقف بين القضايا التى قد تبدو فى الظاهر غير مترابطة ، والعمل على تنظيم العلاقات القائمة بين عناصر المعرفة المتباعدة أو المشتقة بطريقة منهجية واضحة ٠ فالمثل الأعلى الذى يهدف اليه أى علم انما هو الوصول الى درجة عليا من التفسير المنهجى Systematic explanation حتى يتحقق له ربط معلوماته بطريقة استنباطية دقيقة ، كما هو الحال

---

(١٥) د٠ زكريا ابراهيم : مشكلات فلسفية ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧١ ، ص ١٢٩ ٠

(16) Theobald . op. cit. p. 56.

(17) E. Nagel . The Structure of Science. Problems in the Logic of Scientific Explanation New York : Harcort, Brace and World Inc . 1961 p. 79.

فى الهندسة البرهانية أو علم الميكانيكا(١٨) . وعلى الرغم من أن بعض العلوم ـ الاجتماعية والطبيعية ـ لا تملك نظاما سليما للتفسير كما هو موجود فى علم الميكانيكا الا ان فكرة الوصول الى تفسيرات لوقائعها دائما موجودة .

وتتجه الرياضيات نحو القيام بدور متزايد الاهمية فى العلوم سواء الطبيعية أو الاجتماعية . ولكن هذا بالطبع لم يمنع كل علم من أن يتخذ له مناهج تتناسب مع مجالات بحثه . وتعتبر الرياضة اداة ولغة لكل العلوم اكثر من كونها علوما خاصة مستقلة ـ البيولوجيا مثلا تستخدم حساب الاحتمالات ، وعلم النفس وعلم الاجتماع يستخدمان اختبارات وابحاثا تخضع نتائجها للمعالجة الاحصائية .

ومن الواضح أن الظاهرة تبلغ من التعقيد حدا لا نستطيع معه أن ننسبها الى سبب معين . ولذلك نلجأ الى فكرة الارتباط الاحصائى لكى نبين النسبة التى يسهم بها كل عامل من العوامل فى احداث الظاهرة ، فنقول ان نسبة (أو معامل) ارتباط العوامل الوراثية بارتكاب الجرائم هى كذا ... ومن مزايا هذه الطريقة أنها تمكننا من تعليل الظواهر شديدة التعقيد ، وخاصة تلك التى تحدث فى مجال العلوم الانسانية ، حيث تتعدد عوامل الظاهرة الواحدة وتتشابك على نحو يستحيل فيه استخدام علاقة السببية المباشرة . كما أن من مزاياها انها تتيح المقارنة ، بطريقة رقمية دقيقة ، بين هذه العوامل ، بحيث نستخلص مثلا أن العوامل المكتسبة أقوى تأثيرا فى ظاهرة الاجرام من العوامل الوراثية ، الخ (١٩) .

---

(١٨) د. زكريا ابراهيم : المرجع السابق ، ص ١٣١ .
(١٩) د. فؤاد زكريا : التفكير العلمى ، الكويت : عالم المعرفة ، ١٩٧٨ ، ص ص ٤٤ ـ ٤٥ .

ويعتبر علم الاجتماع اقل العلوم استخداما للتفكير الصورى Formal (الذى يتضمن الرياضيات) ، فهو يستخدم الرياضة بشكل اقل بالطبع من العلوم الفيزيائية واقل من علم الاقتصاد ، وحتى علم النفس يستخدم الرياضة أكثر من علم الاجتماع . ومن اهم خصائص الرياضة التوضيح Clarification ، وعندما يتحقق لعلم ما درجة معينة من النضج العلمى فان هـذا يكون دائمـا مرتبطا ولو بشـكل جزئى بالرياضة . ويعتبر اى فرع من فروع المعرفة علميا اذا ما تحدث بلغة خاليـة من الغموض والرياضة هى تلك اللغـة(٢٠) .

وعلى الرغم من أن الرياضة تجعل العلوم الاجتماعية تقترب من العلمية الا انها لا تضمن الخطوات التى سبقتها ولا التاويلات التى تتلوها ، والمهم هو التأويل أو التفسـير أى ادراك المعنى الخاص بالسـلوك الاجتمـاعى .

أولا ـ الآراء المتعارضة حول مناهج البحث الملائمة للعلوم الاجتماعية :

تتناول العلوم الاجتماعية بناء المجتمع والقوى التى تعمل فيه تماما مثل العلوم الطبيعية فى تناولها بناء المـادة والقوى التى تعمل فيها . ويوجد ثلاث طرق للنظر الى بناء المجتمع :

الأولى : النظر الى المجتمع على انه نوع من التطور وهى وجهة نظـر بيولوجية للمجتمع باعتبـاره كائنا حيـا لديه بنـاء من القيم والتنظيمات .

الثانية : النظر الى المجتمع على أنه من تأثير القوانين السببية التى

---

(20) R. Boudon . The Logic of Sociological Expaanation translated by T. Burns. London : Penguin Education 1974 p. 11.

قد تكون اقتصـادية او تاريخية وهى نظرة حتمية للمجتمع فى حالة عدم توازن مسـتمر .

الثالثة : هى النظر الى المجتمع من وجهة نظر المخطط باعتباره نظام من المتغيرات نستطيع التحكم فيها لتغيير المجتمع كما نشاء .

وهـذه النظريات غير قابلة للاختبار لأنها نظريات فلسفية قد تقدم طرقا للبحث وطرقا للتأويل فى مواجهة مشكلة ما ، ولكنها غير قابلة للاختبـار(٢١) .

وعندما يتصدى الدارس للعلوم الاجتماعية يقابل بمشـكلة أساسية وهى عدم وجود اتفاق عام بين العلماء وفلاسفة العلم بشأنها . لقد بدأ هـذا الخلاف فى القرن التاسع عشر وذلك حين بدأت العلوم الطبيعية تستقر وظهرت الدعوة بعلمية العلوم الاجتماعية وكان من الطبيعى ان تظهر وجهات نظر متعددة سواء بالنسـبة لطبيعة موضوعات الدراسة وبالنسـبة للمنهج الملائم للبحث .

ان هـذا الخلاف لم يمنع العلوم الاجتماعية من التطور والنمو السريع سواء بالنسبة للمناهج وطرق البحث أو بالنسبة للحصيلة الضخمة من المعلومات عن الظواهر الاجتماعية .

وحسب وجهة النظر الخاصة بامكانية تطبيق مناهج الفيزياء نستطيع ان نصنف هذه المدارس الى الاتجاه الطبيعى او الوضعى Pro - naturalistic or positive والاتجاه اللاطبيعى أو اللاوضعى anti - naturalistic or negative

وتأييد دارس المناهج للاتجاه الأول أو الثانى او نظرية تضم الاثنين

---

(21) Theobald op . cit. p. 44.

معـا يتوقف على آرائه عن طبيعة العلم الذى يدرسـه وطبيعة موضوع الدراسة وآراءه عن مناهج الفيزياء(٢٢) ٠

(ا) الاتجاه الأول ـ وحـدة المنهج بين العلوم الاجتماعية والعـلوم الطبيعيـة :

ينظر اصحاب هـذا الاتـجاه الى العلوم الانسانية باعتبارها فرعا من العلم الطبيعى ٠ ومعنى هـذا ان مادة العلاقات الانسانية اذا أريد لهـا ان تكون علماء فلا مندوحة لها عن السير فى نفس الطريق المنطقى الذى تسـير فيه بقيـة العلوم الطبيعية ، وليس فى مادة العلاقات الانسـانية ما يتنافى مع اسـتيفاء الشروط المنطقية الضرورية لكل بحث علمى ، فالفرق بين العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية الأخرى هو فرق فى تعقد التفصيلات وكثرتها ، مما يجعل مواقفها اعسر تناولا من المواقف الطبيعية الأخرى ، ولكن ذلك يجعل تطبيق المنهج العلمى على العلوم الانسـانية أكثر صعوبة ولا يجعله من الناحية المنطقية مستحيلا(٢٣) وينتمى هـذا الرأى الى الاتـجاه الطبيعىاو الوضعى **or pro-neturalistic positive** الذى ينادى بوحـدة المنهج بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعيـة فالانسـان ليس الا جزءا من عالم طبيعى ويفسر فى نطاق التفسير العـام للنظـام الطبيعى ٠

ويرى أصحاب هـذا الاتجاه ان التمييز بين العلوم الاجتماعيـة باعتبارها أيديوجرافية **idiographic** تمتاز بتصورات فردية وتبحث

---

(22) Karl Popper. The Poverty of Historicism. London : Routledge and Kegan Paul 1957. p. 2.

(٢٣) د٠ زكى نجيب محمود : المنطق الوضعى ، الجزء الثانى فى فلسفة العلوم ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٦ ، ص ٣٠٣ ٠

عن قضايا فردية جازمة اى تهتم بالوقائع الفردية عن الأفراد والأحداث والمواقف الحضارية ، وبين العلوم الطبيعية التى لها طبيعة نوموطيقية تعميمية وتمتاز بتصورات عامة وتبحث عن قضايا قاطعة ، هـذا التمييز لا يعنى اختلافا اساسيا فى المنهج ٠ فهناك مكونات تعميمية وأيديوجرافية فى كل العلوم الطبيعية والاجتماعية فالجغرافيا المـادية هى علم طبيعى ولكنـه ايديوجرافى كذلك التاريخ الجيولوجى لسـطح الأرض والفلك الوصفى ٠ علاوة على ذلك فان البحث عن قوانين موثوق بها فى العلوم الاجتماعية مستمر على الرغم من عدم نجاحه نجاحا أكيدا ، والنتيجـة فى علم النفس وعلم النفس الاجتماعى والاقتصـاد وعلم الاجتمـاع جديرة بالاحترام(٢٤) ٠

ويرفض أصحاب هـذا الاتجاه التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية على أساس أن الأولى علوم دقيقة exact والثانية علوم غير دقيقة ، وفى الواقع أن الفرق بين النوعين من العلوم هو فرق فى الدرجة وليس من حيث المبدأ فالعلم يقال انه دقيق اذا قدم التفسـير والتنبوء بطريقة معقولة وبالتالى بطريقة محددة للمفاهيم المسـتخدمة وظهر الاستنتاج عن طريق استخلاص منطقى ـ رياضى للغرض (وهو تقرير للواقعة المحتاجة الى تفسير أو تنبوء) من البداهة evidence (وهو نوع من المعرفة المقبولة عن طريق الملاحظة) ٠ أما عن اسـتخدام العلوم الدقيقة للرموز الرياضية والقياس العددى فهذا عرض وليس خاصية اساسية ٠ والدقة لا تنطبق على كل العلوم الطبيعية ولكن على بعض

(24) Hedbert Feigl . Principles of Concept Formation and Measurement. In R. Chisholm , R. Feigl W.F. Frankena and others (ed) Philosophy. New Jersey : Prentice Hall Inc. Engl Engl wood Cliffs 1964.

مجالات الفيزياء ، فمثلا الهندسة المعمارية والطب يعتبران « علمين » ولكنهما غير دقيقين لأنهما يعتمدان على عمليات استنتاجية غير منهجية . بينما نجد أن علوما مثل الاقتصاد وعلم النفس يعطيان استنتاجات دقيقة وفى نفس الوقت لديهما اعتماد على أحكام حدسية . فهذا يدل على أن ليس هناك حد فاصل بين العلوم الدقيقة وغير الدقيقة كما أن عدم الدقة ليس صفة قاصرة فقط على العلوم الاجتماعية(٢٥) بدليل أن بعض فروع العلوم الاجتماعية (أجزاء من علم السكان) متميزة بوجود نظرية رياضية مصاغة ومشـابهة منهجيا للأجزاء الدقيقة فى الفيزياء(٢٦) . ويدعى الذين يفرقون بين العلوم الاجتماعية والطبيعية تفرقة من حيث المبدأ أن الأخيرة على الرغم من كونها غير دقيقة تماما الآن الا أنها سوف تحقق الدقة تدريجيا بينما الأولى بسبب تعقد موضوع الدراسة وعدم الوصـول الى الكمال فى معلوماتها القائمة على الملاحظة فلابد ان تبقى غير دقيقة . الا أن هـذه التفرقة المفترضـة بين العـلوم الفيزيائية بدقـة مفاهيمها واستنتاجاتها وارتفـاع الثقة بتنبوءاتها وبين العـلوم الاجتماعيـة ذات المفاهيم الغامضـة والتصورات الحدسـية وعدم القدرة على التنبوء ، هـذه التفرقة زائفة ــ فى رأى ريكر ــ فضلا عن أنها هى التى عوقت تطور العلوم الاجتماعية . ان المهم ليس ازالة عدم الدقة فى العمليات وفى القدرة التنبؤية ولكن الموضوعية هى المهمة فهى التى تميز العلم عن العمل الحدسى (وهو المختلف عن العمل الحدسى الذى يؤدى الى اكتشاف) . ومتى وصلنا الى واقعة او فكرة جديدة مهما يكن أساسها الحدسى فلا بد أن تكون قابلة للخضوع للاختبار الموضوعى والتاكيد من

---

(25) Nicholas Rescher Scientific Explanation. New York the Free Press 1970 p. 164 - 65.

(26) Ibid. p. 206.

قبل اى شخص . أن هذا المستوى من الموضوعية العلمية هو الذى تستند اليه العلوم الاجتماعية ولكن بطريقة ناقصة ، ويرفض ريكر اعتبار دقة الشكل والمنهج أو درجة التنبوء ركنين أساسيين للتفرقة بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية فيتبقى لنا أن نبحث عن فارق معرفى خاص بقدرة كل منها على الوصول الى نفس مستوى الموضوعية . ويعتقد ريكر ان هذا الفارق لا وجود له وانه لا يمكن التفرقة بين العلوم الاجتماعية والعلوم الفيزيائية على أساس منهجى ، ونستطيع بناء على ذلك اقامة أساس لمعرفة متسقة لكافة العلوم غير الدقيقة سواء كانت اجتماعية أو فيزيائية(٢٧) .

ويتبنى ماشلوب نفس الرأى فهو يرفض الدقة بمعنى القياس أو القدرة على التنبوء بنجاح أحداث مستقلة او التحول الى لغة رياضية . فالمعنى الصحيح للدقة exactnes هو امكان بناء نسق نظرى من النماذج التى تحتوى على أبنية مجردة من المتغيرات ومن العلاقات بين المتغيرات ويمكن منها استنباط كل القضايا الخاصة بارتباطات معينة ، أمثال هذه الأنسقة لا توجد فى كثير من العلوم الطبيعية ــ مثلا فى مواضع كثيرة من البيولوجيا ــ بينما توجد فى علم واحد على الأقل من العلوم الاجتماعية وهو علم الاقتصاد . أننا لا نستطيع التنبوء بتطور اى نظام كما لا نستطيع القول انه ستوجد نظرية موحدة unified theory للعلوم السياسية مثلا ، أو أن التعميمات فى علم الاجتماع ستندمج فى نسق نظرى شامل . أى أن صفة الدقة لا يمكن نسبها الى كل العلوم الطبيعية كما لا يمكن رفضها بالنسبة للعلوم الاجتماعية(٢٨) .

---

(27) Ibid. p. 166 - 167.

(28) Machlup. Are the Social Sciences really inferior in M. Natanson (ed) Cit, pp. 158 - 180 p. 168.

ويرى بوبر أن المناهج فى مجالى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية متماثلة أساسا ٠ فالمناهج تتكون من تقديم تفسيرات استنباطية حدسية واختبارها عن طريق التنبوء ، وهـذا ما يسمى احيانا بالمنهج الفرضى ـ الاستنباطى ـ hypothetical - deductive method وأحيا يسمى بمنهج الفروض لأنه لا يقدم يقينا بالنسـبة للأحكام العلمية التى يقوم باختبارها ، بل ويمكن ان تحتفظ هـذه الأحكام دائمـا بطابع المحاولة بالنسـبة للفروض tentative hypotheses أن المهم فى مجال العلوم هو أن ندرك اننا نهتم دائمـا بالتفسيرات والتنبوءات والاختبارات وأن منهج اختبار الفروض دائمـا واحد(٢٩) ٠

لقد أصر صحاب هـذا الاتجاه على ضرورة تطبيق مناهج البحث المستخدمة فى العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية ٠ ويقدر تطبيق تلك المناهج بقدر ما تعتبر العلوم الاجتماعية واقعة فى مجال العلوم الطبيعية وبالتالى تعتبر علوما مستقلة autonomous ٠ واعتبروا اى تقاعس فى هـذا الاتجاه مسئولا عن البطء فى تقـدم العلوم الاجتماعية فى مواجهة تقدم العلوم الطبيعية ٠ وقد ذهب البعض الى أبعد من ذلك عندما تصـور أن التطور فى العـلوم الاجتماعية لن يأتى من علمـاء اجتماعيين وانما من آخرين خبراء فى مجالات أخرى والدليل على ذلك هو أن المساهمات فى علم النفس تأتى من أفراد لهم خبرة فى الهندسة والفسيولوجيا والعلوم الطبيعية الأخرى ٠ وهـذا لا يعنى أن مساهمة العلماء الاجتماعيين سوف تكون غير ذات قيمة : انهم يساهمون ولا شك

---

(20) K. Popper. Unity of Method in the Natural and Social Sciences In D. Braybook (ed.) Philosophical Problems of the Social Sciences . New York : Macmillan Co. 1965, pp 32 - 41 , p. 33 .

وسوف يستمرون فى اظهار المـادة والمشكلات والصعوبات فى ميدانهم ٠ ومع توفر المـادة سوف يساهم العلمـاء الذين يملكون الأجهزة الفنيـة technical equipements فى أهم انجازات العلوم الاجتماعية فى المسـتقبل(٣٠) ٠

(ب) الاتجاه الثانى ـ هناك مناهج للعلوم الاجتماعية متميزة عن مناهج العلوم الطبيعية :

سار الرافضون لفكرة الوحدة المنهجية على التفرقة التى وضعها دلتاى ومن قبله ريكرت وفند لبند بين علوم أيديوجرافية فردية وعلوم نومطيقية عامة رافضين النظر الى العـلوم الطبيعية كمثل أعلى للفهم العقلى للواقع ٠ انهم يؤكدون على وجود التعارض بين علوم مثل الفيزياء أو الكيمياء أو الفسيولوجيا تهدف الى تعميمات عن ظواهر متكررة وممكن التنبوء بهـا وبين علوم مثل التـاريخ تريد ادراك الخصائص الفـردية لموضوعاتها ٠ فالعلم فى رأى أحدهم لا يبدأ من وقائع أو فروض أو حتى من منهج ولكن يبدأ بمشكلة محددة ٠ والعلم الاجتماعى لا يستثنى عن هـذه القاعدة ٠ وبينما يواجه العلم الطبيعى مشاكل الواقعة فقط فان العلم الاجتماعى يهتم بمشـاكل الواقعة ومشـاكل القيمة أيضا(٣١) ٠ ان العلوم تختلف لأن الوضع فى ميادينها مختلف وما نتناوله بالدراسة باعتبـاره مجالا للفيزياء قد يكون مجموعة من الظـواهر حيث عـدد المتغيرات المرتبطة ذات المعنى صغير بحيث يسمح لنا بدراستها كأنها تكون نسقا مغلقا نستطيع أن نلاحظه ونتحكم فى كل العوامل المحددة

---

(30) G. A. Lundberg Op. Cit. p. 39.

(31) F. S. C. Northrop . The Logic of the Sciences and the Humanities. New York : The Macmillan Co. 1948 p. 255.

ونميز بينه وبين العوامل الاخرى التى تقع خارجه . ويكون من التناقض ان نفرض طرقا لم تفم الا عن طريق شروط معينة ونطبقها على أنظمة تعتبر مختلفة بسبب عدم وجود هذه الشروط فى مجالها(٣٢) . فمن الخطأ فى رأى هذا الاتجاه تطبيق المناهج التى ثبت نجاحها فى العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية لأن ادخال تلك المناهج يؤدى فى العلوم الاجتماعية الى خلط كبير والنظرية العضوية مثال على ذلك . واذا كان هناك منهج يراد تطبيقه فلابد من تحديده عن طريق خصائصه الفعلية المجردة فالفكرة فى كونه منهجا معترفا به فى علم ما قد يتاكد خطؤها فيما بعد . كما أن المطلب الخاص بتطبيق منهج من علم آخر على العلم الاجتماعى كثيرا ما يفشل فى تحديد المدى الذى سيمتد اليه هذا المنهج : أحيانا قد يفقد العلم الذى يأخذ بهذا المنهج استقلاله ويصبح فرعا فى علم آخر(٣٣) .

ويقرر أصحاب هذا الاتجاه أن منهج العلوم الاجتماعية الملائم هو منهج الفهم بينما منهج العلوم الطبيعية هو التفسير ، وبينما يهدف التفسير – فى رأيهم – الى ايجاد علاقة من الخارج بين شيئين فان فهم الوقائع الانسانية يهدف الى الحصول على معنى من الداخل ، فلا يكفى الوصول الى قانون عام ولكن يجب أن اضع نفسى بشكل ما فى موضع هؤلاء الناس وأفهمهم عن طريق التواصل . ويقول ناتانسون : ان الواقع الاجتماعى مكون من معان يعطيها الذين يقومون بالفعل على المسرح

---

(32) F. A. Hayek. The degrees of Explanation. in British Journal for the Philosophy of Science Vol . VI, August 1955 pp. 209 - 225. p.

(33) F. Kaufmann Methodology of the Social Sciences New York : Humanities Press 1965 p. 146.

الاجتماعى لافعالهم ومواقفهم . ان وعى الفاعل أو ذاتيته هو دعامة الفعل الاجتماعى . والموضوع الرئيسى فى فلسفة العلوم الاجتماعية هو القاء الضوء واعادة بناء للخصائص الرئيسية للنظرة الذاتية Subjectivity لأنها تؤسس وتبنى العالم الاجتماعى(٣٤) .

فى العلوم الطبيعية نجد مسلمة اطراد أو اتساق الطبيعة ، فكون الواقع الطبيعى يخضع للبحث العلمى قد تأكد من خلال تاريخ العلم ويتيح أكثر من أساس مقبول لافتراض أن ذلك سوف يستمر فى المستقبل ، ولكن الافتراض يظل افتراضا وليس هناك دليل اكيد على ان المستقبل سوف يكون مثل الماضى . ولكن من أجل العمل العلمى يكتفى بالمسلمة التى تقول بالاطراد . وفى العلوم الاجتماعية هناك موقف مشابه ففيه أيضا افتراض أن التحليل المنظم ممكن لأن الواقع الاجتماعى من حيث المبدأ مفهوم comprehensible ولكن قبل أن نحصر اهتمامنا فى معرفة الواقع لابد أن نحدد ما اذا كانت المعرفة نفسها ذات قيمة ففى أساس كل معرفة تعهد ما للقيمة التى فيه(٣٥) . ان الفينومينولوجيا المعاصرة ــ وهى من أبرز المذاهب المتبنية للاتجاه اللاطبيعى ــ تنادى بمنهج الفهم اى التوصل الى « المعانى » المعاشة عن طريق هؤلاء الذين يشتركون فى هذه الواقعة الاجتماعية أو تلك . وتعتبر العالم التواصلى intersubjective تكون نتيجة نشاط الوعى ، أما العلم الطبيعى فهو أحد مظاهر انتاج الوعى .

وبينما تتعامل العلوم الطبيعية مع علاقات ثابتة وموضوعات مادية قابلة للقياس وتخضع للتجارب فان العلوم الاجتماعية تفتقد القياس

---

(34) M. Natansen (ed). Philosophy of the Social Sciences. a reader. p. 186.

(35) Ibid. p. 20.

والتجارب وتتعامل مع موضوعات نفسية ومعنوية . ان الهدف الأساسى للعلوم الاجتماعية ـ فيما يرى شوتس ـ هو الحصول على معرفة منظمة « للواقع الاجتماعى » ويقصد به المجموع الكلى للموضوعات Objects والأحداث Occurences داخل العالم الاجتماعى الحضارى كما يشعر بها الناس العاديون الذين يعيشون حياتهم مع زملائهم ويرتبطون معهم بعلاقات تفاعل : أنه عالم الموضوعات الحضارية والتنظيمات الاجتماعية التى نشأنا فيها والتى يجب أن نتلاءم معها . فمن البدء نحن القائمون بالأفعال فى المشهد الاجتماعى نختبر العالم الذى نعيش فيه كعالم طبيعى وحضارى فى نفس الوقت ، وليس باعتباره قاصرا علينا فقط ولكن باعتباره مشتركا لنا جميعا ، أما معطى حاليا أو ممكن الوصول اليه من جانب أى شخص ، وهذا يتضمن اتصالا ولغة(٣٦) .

ان على النظرية التى تهدف الى تفسير الواقع الاجتماعى أن تطور أساليب خاصة غريبة عن العلوم الطبيعية وذلك لكى تتفق مع التجربة العادية للعالم الاجتماعى . وهذا فعلا ما قامت به العلوم النظرية للشئون الانسانية ـ اقتصاد ، اجتماع ، قانون ، لغويات ، انثروبولوجيا حضارية .. الخ(٣٧) . أن تخلف الدراسات فى العلوم الاجتماعية فى رأى هذا الاتجاه ـ ترجع فى الدرجة الأولى الى الاعتقاد بامكان تطبيق مناهج العلوم الأكثر تقدما خاصة الفيزياء ، على العلوم الاجتماعية . ان الوحدة المنهجية فى رأيهم مرفوضة لأنها تقوم على افتراض غير مؤكد فحواه أن الطرق المستخدمة من قبل العلماء الطبيعيين هى وحدها العلمية .

---

(36) A. Schutz . Concept and Theory Formation in the Social Sciences in Natanson (ed). Op. Cit. p. 236.

(37) Ibid. p. 241.

ثانيا ـ الظاهرة الاجتماعية او موضوع الدراسة :

اختلفت الآراء حول موضوع دراسة العلوم الاجتماعية وهو الظاهرة الاجتماعية فالبعض رآها فى بساطة الوقائع الطبيعية وقال أنها تخضع للدراسة العلمية الدقيقة والبعض الآخر جاهر بتعقدها وصعوبة اخضاعها للمنهج العلمى بسبب اختلافها البين عن الواقعة الطبيعية ، وبين هـذا الطرف وذاك آراء متعددة قد تعترف بصعوبة مادة الدراسة الاجتماعية ولكنها تقبل فكرة دراستها علميا • بل لقد تطرف البعض الى درجـة عدم اعتبار العلوم الاجتماعية علوما على الاطلاق •

(أ) الموقف الطبيعى :

يرى أصحاب هـذا الرأى ان الاختلاف الظاهرى بين المعطيات فى العلوم الاجتماعية والمعطيـات فى العـلوم الاجتماعيـة قد نشـأ أساسا من الفشل فى الاعتراف بأن المعطيات المباشرة فى كل العلوم هى استجابات انسانية لأى شىء قد اثار تلك الاستجابات • فالمعلومات فى عالمنا تعرف عن طريق الاسـتجابات الانسانية ومنها نسـتخلص وجود اى ظاهرة وخصائصها • ان العادة أو الفكرة أو المعتقد كمعطيات تعتبر حقيقية ، وملموسة ، وملاحظة ، وقابلة للقياس اى تخضع للدراسة العلمية مثل قطعة الحجر أو المنضدة او الحصان • والتطور العلمى يعتمد على نوع الرموز التى نطورها لتمثل الظواهر التى نستجيب لها فمثلا رموز مثل الشرف ، والواجب ، والوفاء ، تخضع مع السلوك الذى تمثله للملاحظة وتعتبر موضوعات للدراسة الموضوعية تماما مثل لعبة البيسبول أو طيران الطيور الموسمى ، أو انطلاق الشرارة الكهربائية(٣٨) • معنى ذلك أن

---

(38) Lunderg. Op. Cit. p. 52 - 53.

تصنيف الموضـــوع الى « طبيعى » أو « مادى » أو « حضـارى » أو « اجتماعى » لا غبار عليه بشرط الا يترتب عليه افتراض أن هـذه التصنيفات تؤثر على الطريقة التى بها نتعرف على الظاهرة محل البحث ٠

ويؤكد جون ستيوارت مل أن هناك خلطا لا شك فيه لدى الذين يعتقدون ان افكار واحاسيس وافعال البشر ليست موضوعا للعلم كما هو موجود بالنسـبة لموضوعات الطبيعة الخارجية ٠ فأى واقعة تحدث هى موضوع للعلم حتى لو لم نتبين الآن القوانين التى تحكمها وحتى لو لم تكن تلك القوانين قابلة للاكتشاف بواسطة امكانياتنا الحالية ٠ ونستطيع ان نأخذ كمثال فى العلوم الطبيعية ظواهر الأرصاد الجوية Meteorology مثل المطر أو أشعة الشمس وسوف نجد ان البحث العلمى حتى الآن لم ينجح فى تأكيد تسلسل السوابق والنتائج فى تلك الظواهر حتى يكون فى امكانه التنبوء بحدوثها بشكل مؤكد أو حتى بدرجة مرتفعة من الاحتمال فى مكان ما من الكرة الأرضية ٠ ولكن هـذا لم يمنع أن تكون تلك الظواهر معتمدة على قوانين وان هـذه القوانين لابد ان تكون مشتقة من قوانين اخرى معروفة مثل قوانين الحرارة والكهرباء والتبخر ٠٠٠ الخ ٠ كما لم يمنع هـذا من النظر الى علم الأرصاد الجوية باعتباره علما ، الا ان صعوبة ملاحظة الوقائع التى تعتمد عليها ظواهره تجعل منه علما ناقصا imperfect ٠ وكذلك علم الفلك فقد كان علما غير دقيق حتى أمكن ادراج ظواهره تحت قوانين فتحول الى علم دقيق ٠ وكذلك العلوم الانسـانية من الممكن اعتبـارها فى مكانة علم الفلك قبل أن يصـبح علما دقيقا(٣٩) ٠

ان الفارق الأساسى بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية يكمن

---

(39) John Stuart Mill On the Logic of the Social Sciences (book VI of Mill's A System of Logic) in Philip Wiener (ed.) Readings in Philosophy of Science. Op. Cit. p. 247.

فى عدد العوامل التى لابد من أخذها فى الاعتبار أثناء عمليات التفسير والتنبوء بالنسبة للأحداث الطبيعية والأحداث الاجتماعية ، الا أن هـذا الاختلاف هو اختلاف فى الدرجة فقط . وكما أن الظواهر فى العالم الطبيعى ليست متجانسة كما يظن الكثيرون ، فان الظواهر فى العـالم الاجتماعى أيضا ليست متغايرة بالصورة التى يخشى كثيرون أن تكون عليها . وعندما يبدو الواقع متضمنا عددا كبيرا من الاختلافات فنحن نبنى عالمـا مثاليا من النماذج المجردة ونوجد فيها ما يكفى من التناسق لكى نطبق العقل reason ونستنبط منها النتائج المنتظرة للأشـياء المفترضة . ويتبع هـذا التجانس المصطنع لأنواع من الظواهر فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية على السواء . ليس هناك اذن اختلاف بين ثبات حدوث الظواهر فى الطبيعة وفى المجتمع مادمنا نقوم بعملية تنظير Theorize لها . هناك فقط فرق فى الدرجة بين التغير فى ظواهر الطبيعة والمجتمع اذا كنا بصدد الحديث عن العالم الواقعى . ولكن لابد الا نغفل وجود عالم ثالث يقع بين العالم المجرد للنظرية والعالم الحقيقى غير الممكن التعامل معـه ، وهو العالم الصناعى للمعمـل التجريبى . فى هـذا العالم هناك تغير اقل من العالم الطبيعى واكثر من العالم النموذجى model ، ولا يوجد هـذا العالم الثالث فى أغلب العلوم الاجتماعية كما يفتقد فى بعض العلوم الطبيعية ، ويحدث الخطأ من مقارنة العالم الصناعى للمعمل الذى نستطيع أن نتعامل معه بالعالم الحقيقى للمجتمع الذى لا نستطيع التعامل معه(٤٠) .

ويرى بوبر أن موضوعات العلوم الاجتماعية هى موضوعات مجردة abstract فهى بناءات نظرية (حتى « الحرب » أو « الجيش » تعتبر مفاهيم مجردة) . هـذه الموضوعات المستخدمة فى تأويل تجربتنا

---

(40) Machlup . Op. Cit. P. 161.

ليست الا نتيجة اقامة بعض النماذج models (وبصفة خاصة للأنظمة institutions) من أجل تفسير بعض التجارب ، ويعتبر هذا منهجا نظريا مألوفا فى العلوم الطبيعية ، حيث نقوم ببناء نماذج للذرات ، أو الجوامد ، أو السوائل ... انه جزء من منهج التفسير عن طريق الرد أو الاحالة أو الاستنباط من الفروض(٤١) .

واذا كان تحليل أى موقف اجتماعى واقعى يزداد صعوبة نظرا لتعقده فان هذا ينطبق ايضا على اى موقف تجريبى واقعى . ان القول بأن المواقف الاجتماعية أكثر تعقيدا من المواقف التجريبية هو ادعاء ينتج عن مصدرين :

الأول : هو قيامنا بالمقارنة بما لا يجب المقارنة به أى المقارنة بين المواقف الاجتماعية الواقعية والمواقف التجريبية الفيزيقية المعزولة صناعيا .

والمصدر الثانى : هو الاعتقاد فى أن وصف اى موقف اجتماعى يتطلب معرفة بالحالات العقلية وأحيانا بالحالات الفيزيقية لكل من يعنيهم الأمر(٤٢) .

واذا تساءلنا كيف السبيل الى دراسة تلك الظواهر الانسانية فاننا نجد الاجابة لدى عدد من رواد هذا الاتجاه . أن لندبرج يرى أن التصورات والأفكار والأحاسيس تعبر عن نفسها من خلال سلوك رمزى أو عصبى ـ عضلى وهذا يصدق على الظواهر الاستبطانية مثلما يصدق على الظواهر المفترض نشؤها خارج الملاحظ . ان افتراض عدم خضوع

---

(41) Popper. Unity of Method. in the Natural and Social Sciences Op. Cit. p. 36.

(42) Ibid. p. 39.

المعطيات الخاصة بالوعى للدراسة الموضوعية تنشأ عن الحالة غير المتطورة لطريقة الدراسة . ان الخطأ — فى رأيه — يكمن فى افتراض أن الطابع الهادف أو القصدية التى نحب أن ننسبها الى السلوك المجتمعى هى طابع جوهرى للسلوك بدلا من أن نقول أنها طريقتنا الجميلة لوصفه . ولذا فمن الضرورى القيام بالبحث الدقيق لكل الظروف المؤثرة فى السلوك الملاحظ(٤٣) . واذا استطعنا تطوير وسائل استجابية تتيح المراجعة والتأكد من الاستجابات الخاصة بأشياء نعتبرها الآن غير ملموسة فانها تتحول الى أشياء ملموسة .. وسوف يساعد على التقدم فى هذا الموضوع وضعنا لهذا الكلام كفرض عملى working hypothesis ممكن حدوثه وليس أمامنا خيار الآن الا قبول هذا الفرض اذا أردنا أن نخضع تلك المعطيات لمجال العلم(٤٤) . أما المناقشة الخاصة يكون المعطيات الطبيعية والاجتماعية « متطابقة » أو « متشابهة » ففى رأى لندبرج أنها غير ذات أهمية لأنه ليس هناك ظاهرة فى العالم متطابقة مع ظاهرة أخرى ، والاعتراف بأن الظواهر « الاجتماعية » مختلفة عن « الطبيعية » ليس له أهمية الا اذا حددنا اختلافها فى اى النواحى لأن كل الظواهر مختلفة فى نواح معينة . كما أن كل الظواهر متشابهة فى ناحية هامة وهى كونها جميعا مدركة عن طريق الحواس ويعتبر هذا الشبه هو الوحيد الذى يهمنا فى المناقشة الحالية لأننا نهتم بالطرق التى عن طريقها نستطيع التوصل الى المعرفة الصحيحة Valid Knowledge (٤٥) .

أما « ناجل » فيتناول الظاهرة الاجتماعية باعتبارها متغيرا

---

(43) Lundberg . Op. Cit. p. 55.

(44) Ibid. p. 58.

(45) Ibid. p. 68 - 69.

اجتماعيا ، ملاحظا أن هناك صعوبة هامة متعلقة بالبحث فى الظاهرة نفسها ، وتتمثل هذه الصعوبة فى الطريقة التى تجرى بها التجارب على موضوع دراسة اجتماعية والتى قد تدخل تغييرات على مادة الدراسة : فاذا افترضنا ـ كما يقول ناجل ـ أن القائمين بالدراسة قد دربوا جيدا ولا يدخلون تغييرات جوهرية على المعلومات التى يجمعونها فان المشكلة تبقى ما اذا كانت الاجابات فعلا تعبر ـ بسبب معرفة المستجيبين باستجوابهم ـ عن آراء واتجاهات كانوا يعتقدون فيها قبل المقابلة وسوف يعتقدون فيها بعدها · ان كون المستجيب يعلم بأنه موضوع يهم السائل ، بالاضافة الى تفكيره فى النتائج التى قد تستخلص من اجاباته على موضوعات تشغله ، بالاضافة الى الطريقة التى تسير بها المقابلة ، كل هذا قد يأتى الى الموقف بمؤثرات يكون لها تأثير على الاستجابات التى تصدر عنه ـ المستجيب ـ وذلك اما عن طريق اعطاء اجابات مؤكدة على موضوعات لم يفكر فيها من قبل أو عن طريق ذكر آراء لا تمثل معتقداته الحقيقية ولا تعبر عن سلوكه المعتاد · وبالتالى فاذا كان هناك فرض تجمع هذه المعلومات لتأكيده فان هذا الفرض لا يمكن ان يقييم على أساس هذه المعلومات · وعلى الرغم من أهمية هذه الصعوبة الا أنها ليست فريدة وقاصرة على العلوم الاجتماعية وحدها ، فدارسو العلوم الطبيعية يستخدمون أدوات قياس قد تحدث تغييرا فى البعد المقياس فمثلا الحرارة التى نحصل عليها من ترمومتر وضع فى سائل لا تمثل حرارة السائل قبل وضع الترمومتر فيه ، لأن حرارة الترمومتر قبل وضعه فى السائل كانت مختلفة عن حرارة السائل وبالتالى فان درجتى الحرارة الأوليتين سوف تتغيران قبل أن يصبح الترمومتر والسائل فى حالة توازن حرارى · المشكلة اذن تنشأ فى كل من العلوم الطبيعبة والعلوم الاجتماعية لأن التغير فى موضوع الدراسة يحدث بواسطة الطرق المستخدمة لبحث هذا الموضوع ·· وتستطيع العلوم الاجتماعية ان تستخدم طرقا للبحث بواسطتها لا تحدث هذه الصعوبة اطلاقا او تحدث بطريقة اقل

حده ـ مثلا باستخدام طرق لملاحظة السلوك الاجتماعى دون أن يعلم المشتركون أنهم يخضعون للملاحظة ، أو باستخدام ما يسمى « بالطرق الاسقاطية » حيث يعلم الأشخاص انهم يخضعون للدراسة ولكنهم لا يعلمون بأهدافها(٤٦) .

(ب) الموقف اللاطبيعى :

يرفض أصحاب هـذا الاتجاه الاقرار بوجود أى تشابه بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الطبيعية فهناك فارق واضح بين وحدة المجتمع ووحدة الطبيعة . ويقول « زمل » فى هـذا الصدد : « ان رأينا مثل رأى كانت Kant وهو ان وحدة الطبيعة تنبع من ملاحظة شخص وهى تنتج عنه تجاه الأشياء الحسية وعلى أساسها وهذه الأشياء الحسية فى ذاتها متغايرة الخواص . وعلى العكس من ذلك فان وحدة المجتمع لا تحتاج الى ملاحظة فهى شىء مدرك بواسطة عناصره لأن هـذه العناصر نفسها وحدات واعية مركبة »(٤٧) .

ويتفق أصحاب هـذا الاتجاه مع الاتجاه الطبيعى فى القول بتعقد موضوع دراسة العلوم الاجتماعية الا أنهم يرون على عكس الاتجاه الآخر أن هـذه الصعوبة لا يمكن التغلب عليها وأنها قاصرة فقط على العلوم الاجتماعية ولا يوجد مثيل لها فى مجموعة العلوم الطبيعية . ويرتبط تعقد دراسة الظواهر الاجتماعية فى المقام الأول ـ فيما يرى كوهين ـ بقلة تكرار تلك الظواهر لدرجة أنها تصبح ظواهر تاريخية . فالحقيقة

---

(46) E. Nagel . Structure of Science . New York : Harcort, Brace and World 1961, p. 466 - 467.

(47) G. Simmel. How is Science of Sooiety Possible ? in M. Natanson (ed.) Op. p. 74.

الماضية لا يمكن ملاحظتها مباشرة وانما يكتفى بتأكيد حدوثها عن طريق التفكير Reason فى الاحتمالات المفترضة ٠ ثم ان التغير الكبير الذى يحدث فى الظواهر الاجتماعية يمكن النظر اليه على أنه صورة اخرى لتعقدها ٠ فبينما كل سنتيمتر من الهيدروجين يشبه الآخر فان ملاحظة مجتمع ما لا يمكن تطبيقها على مجتمع آخر ٠ ان التفكير فى امثلة من الواقع الاجتماعى يعتبر مجازفة فكرية لأننا من النادر أن نهرب من الانتقاء وبالتالى نجد أنفسنا ننسب الى الكل ما هو صادق فقط بالنسبة الى اللحظات المختارة ٠ حقا أنه فى بعض المسائل الاجتماعية يمكن معاملة الأفراد باعتبارهم متشابهين : فى الاحصاءات الحيوية مثلا ، كل ميلاد أو وفاة يعتبر مثل الآخر بغض النظر عن الفرد فى حد ذاته ٠ الا أن تطبيق القواعد فى مجال العلوم الاجتماعية يعتبر محدودا جدا بالنسبة لتطبيق القوانين فى العلوم الطبيعية ٠

ويعتمد كوهين على « منطق مل » ليصور صعوبة الملاحظة المباشرة للظواهر الاجتماعية وصعوبة عزل عامل واحد فى زمن معين ، يقول « مل » انه يكفى أحيانا وجود ملاحظة واحدة او تجربة واحدة للحصول على نتيجة قاطعة وفى حالات اخرى لا يكفى عدد كبير من الملاحظات للحصول على نفس النتيجة ٠ ولتفسير ذلك يرى كوهين أن العلم الطبيعى يستطيع أن يعزل العامل ويتحكم فيه بحيث تأتى النتيجة مستبعدة لفرض ما من الفروض ٠ ولكن فى حالة وجود أسباب متعددة وصعوبة عزل عامل واحد ــ كما هو الحال فى العلوم الاجتماعية ــ فان استبعاد فرض واحد من عدد كبير من الفروض لا يعطى أى تقدم فى سبيل اقامة السبب المحدد ٠ أن المواقف الاجتماعية متشابكة ولا يمكن للفرد أن يغير عاملا واحدا دون التاثير على عوامل اخرى كثيرة ٠ ومن هنا كانت صعوبة تحديد التاثيرات المعينة لعامل ما ٠ كما ان سلوك الأفراد فى مجموعة كبيرة ليس كسلوكهم فى مجموعة اصغر وهذا يجعل من الصعب

تطبيق الطرق الرياضية ـ التى اتت بنتائج فى العلوم الطبيعية ـ على العلوم الاجتماعية لأن هـذه المناهج تعتمد على قدرتنا على الانتقال من عدد صغير من الأمثلة instances الى عـدد غير محدود بواسطة عملية الجمع أو الادماج summation or integration بالاضافة الى ذلك فان القلة فى عـدد الملاحظات يجعل تطبيق المنحنى الاحتمالى مصدرا لأخطاء خطيرة . وفى العلوم الاجتماعية هناك اختلاف فى الآراء أوسع مما هو موجود فى العلوم الطبيعية كما ان التجربة أصعب ومن هنا نجد اننا نتمسك بافتراضاتنا الأولى بحيث تشكل هـذه الافتراضات ما نتقبله باعتباره حقائق أو وقائع كما ان النظرة الذاتية الى الوقائع تجعل العلماء المختلفين يرونها بصورة مختلفة ويرجع ذلك ليس فقط الى احتمال أن العلماء المختلفين لاحظوا اشـياء مختلفة ولكن ايضا الى ان الوقائع الاجتماعية نفسها قد تغيرت(٤٨) .

ان موضوع دراسـة العلوم الاجتماعية هو الفرد والمجتمع وهذان القطبان لا يتمثلان فى مجرد سلوك يخضع للدراسـة بطريقة آلية وانما هناك علاقة ديالكتيكية نحتاج الى منهج خاص لكى نفهمها . ان الداخل Within والخـارج Withoutبين الفرد والمجتمع على نحو ما يرى زمل ليسا شيئين منفصلين وانما هما يحددان معا الموقف المتسق للانسان باعتباره حيوانا اجتماعيا . ان وجود الفرد اذا حللنا محتوياته ليس مجرد جزء اجتماعى وجزء فردى ولكنه ينتمى الى **الفئـة الأساسية** والحاسمة والثابتة للوحـدة التى نستطيع ان نقول عنهـا أنها تركيب أو تعاقب لخاصيتين متعارضتين منطقيا للانسـان : الخاصية الخاصـة بوظيفته

---

(48) M. R. Cohen Reason in Social Scial Science. in H. Feigl and M. Brodbeck (eds.) Readings in the Philosophy of Science. New York : Appleton Century Crofts Inc. 1953. pp. 664 - 667.

كعضو فى المجتمع ونتاج ومحتوى له والخاصية المقابلة التى تقوم على وظائفه ككائن مستقل والتى تتوجه الى حياته من خلاله هو ومن أجله هو . أن المجتمع لا يتكون من مجرد أفراد غير مجتمعين ولكن من كائنات تشعر من جهة بأنها موجودات اجتماعية كاملة ومن جهة أخرى – بدون ان تغير من محتواها – بأنها موجودات فردية كاملة ... ان الصفات الفطرية والعلاقات الشخصية والخبرات الحاسمة تجعل لكل شخص فردية وعدم تكرار سواء فى تقدير الشخص لنفسه او فى تفاعله مع الآخرين(٤٩) .

يتركز اذن الموقف الثانى من موضوع الدراسة فى القول بتعقد موضوع الدراسة الاجتماعى ، ففهم الآخرين لا يمكن أن يصل الى درجة الدقة الموجودة فى علوم مثل الفيزياء والكيمياء لتميز هذين الأخيرين ببساطة موضوع الدراسة . كما ان طبيعة هذا الموضوع (الانسان) يجعل من الصعب التوصل الى أحد الأهداف الهامة للعلم وهو التنبوء .

ثالثا – مشكلات منهجية :

لقد واجه دارسو العلوم الاجتماعية مشكلات وعقبات فى سعيهم نحو اقامة مجالات اهتمامهم على أساس علمى . ان وجود علوم طبيعية متطورة على أساس منهجى سليم مثل بالنسبة لهم التحدى الذى يجب عليهم مواجهته للوصول بعلومهم الى مستوى يقارب مستوى العلوم الطبيعية .

ان دراسة المجتمع والسلوك الانسانى قديمة ولكن « النظرية » الاجتماعية التى نشأت من هذه الدراسة فى الماضى هى فى المقام الأول فلسفة اجتماعية وخلقية وعلى الرغم من التاريخ الطويل للاهتمام بالظواهر الاجتماعية فان الناتج العلمى يعتبر حديثا . وفى الواقع أنه

---

(49) Simmel Op. Cit., p. 86 - 87.

لم يتكون بعد نسيج متكامل من القوانين العـامة فى أى مجال من البحث الاجتماعى يماثل النظريات فى العلوم الطبيعية سواء من ناحية القوة التفسيرية أو القدرة على التوصل الى تنبوءات يعتمد عليها(١) • ويرجع ذلك الى عوامل كثيرة ابرزها عدم وجود اتفاق بين الدارسين حول أوضاع العلوم الاجتماعية ككل • الا ان هـذا لا يعنى أن تلك العلوم لم تخط على أيدى العلماء خطوات واسـعة فى سـبيل وصف الظواهر ومحاولة تفسيرها من أجل اقامة سياسة اجتماعية سليمة • ومن المفيد بعد أن عرضنا للآراء الخاصـة بالمنهج وبالظاهرة الاجتماعية أن نتعرض للصـعوبات التى تواجه البحث الاجتماعى • وتدور تلك الصـعوبات حـول محاور ثلاثة :

(أ) شكل البحث الاجتماعى •

(ب) التعميم والتنبوء •

(جـ) القيـــم •

(أ) شكل البحث الاجتماعى :

تحتاج العلوم المختلفة الى التجريب لكى تتثبت من كافة الفروض التى تصوغها وهى بصدد دراسة الظاهرة محل البحث • ويعتبر خضوع الفرض للتثبت عن طريق التجربة احدى الخصائص البارزة فى العلوم الطبيعية واحدى المزايا التى تتفوق بها • الا ان أختبار الفروض عن طريق التجارب ليست خاصـية عامة فى كل العلوم الطبيعية كما أنها لا تمثل حدا فاصلا بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ـ فيما يرى همبل ـ لأن الاختبار التجريبى experimental test يستخدم فى

---

(50) Nagel Op. Cit . p. 447.

علم النفس وبدرجة أقل فى علم الاجتماع ويتزايد استخدامه مع التطور العلمى . كما أن بعض الفروض فى العلوم الطبيعية لا تسمح بالاختبار التجريبى وفروض علم الفلك دليل على ذلك(٥١) .

ان استخدام التجارب فى العلوم الطبيعية يستند فى الدرجة الأولى الى القول باطراد الطبيعة : ففى الامكان فى ضوء ظروف متماثلة وتحت شروط معينة انتاج نفس النتائج . وفى العلوم الاجتماعية نواجه صعوبة هامة وهى ايجاد الظروف المتماثلة لأن الظروف تتغير من موقف الى آخر ويرجع هـذا الى تعقد الظاهرة الاجتماعية ، وعلى حين أن الظـواهر الطبيعية تخضع للتجريب بسـهولة فان التجريب على الانسـان شاق وفى بعض الأحيان يكون مستحيلا ، لأن اخضاع نواح معينة من الذات الانسانية للتجريب ربما أدى الى القضاء على كل ما هو مميز لها ، بحيث تختفى الظاهرة الانسـانية المراد بحثها بمجـرد أن تصبح موضـوعا للتجريب(٥٢) .

ويصف ناجل التجربة فيقول : يقوم المجرب بتطويع بعض المقومات (وتسمى بالمتغيرات variables أو العوامل factors) ، وفى الموقف يفترض أنها تمثل شروطا لحدوث الظاهرة موضع الدراسة . وبتغيير بعض منها ــ الموقف المثالى يتطلب تغيير عامل واحد فقط ــ والحفاظ على الأخرى ثابتة ، يستطيع الملاحظ أن يدرس تأثير هـذا التغيير على الظاهرة ويكتشف علاقات الاعتمـاد الثابتة بين الظاهرة

---

(51) C . G . Hempel Philosophy of Natural Sciences. New York Prentice Hall Foundations of Philosophy Series. 1966, P. 22 .

(٥٢) د. فؤاد زكريا : دور الدراسات الانسانية فى عصر العلم والتكنولوجيا ، مجلة الطليعة ، السنة العاشرة ، ابريل ١٩٧٤ ص ١٨٧ .

والمتغيرات . هـذه التجربة لا تتضمن فقط اجراء تغيير فى المتغيرات ولكن تتضمن ايضا احداث تاثيرات ــ كنتيجة لهذا التغيير ــ على الظاهرة موضع البحث . الا ان التجربة بهذا المعنى ــ فيما يرى ناجل ــ لا يمكن اجراؤها الا نادرا فى العلوم الاجتماعية لأن العلوم الاجتماعية لا تملك القوة على احداث التغيير التجريبى على المـادة الاجتماعية ذات الأهمية العلمية ... وأكثر من هـذا فان التغيير المقصود على موقف اجتماعى يؤدى الى تعديل فى المتغيرات الأخرى المرتبطة . وتكرار هـذا التغيير من اجل الوصول الى تحديد ما اذا كانت التأثيرات الملاحظة ثابتة سوف يحـدث على متغيرات ليست فى نفس الظروف الأصـلية . ولمـا كنا لا نستطيع أن نحكم ما اذا كانت التأثيرات هى نتيجة للتعديلات التى حدثت فى الحالات الأصـلية للمتغيرات أو ناتجة عن التعـديلات فى الظروف الأخرى للتجربة فانه يصبح من المستحيل علينا أن نحدد بواسطة التجربة ما اذا كان التغيير الذى طرأ على الظاهرة الاجتماعية يرجع الى تعديل فى متغير معين أم لا . وبالاضافة الى ذلك فان مدى التجريب فى العلوم الاجتماعية محدود جدا لأن التجربة المضبوطة ممكنة فقط اذا امكن اجراء تغييرات ملاحظة فى الظاهرة موضع الدراسة ــ وهو احتمال بعيد بالنسبة للظواهر الاجتماعية التى لا تتكرر وتعتبر فريدة تاريخيا(٥٣) .

ولكن هل صعوبة اجراء التجربة فى العلوم الاجتماعية تعتبر عائقا فى سبيل اقامة هـذه العلوم على اساس من القوانين العامة ؟ فى الواقع ان العلوم التى تريد التوصل الى قوانين عامة تستخدم ــ فى حالة عدم قدرتها على اللجوء الى التجربة المضبوطة ــ ما يسمى بالبحث المضبوط Controlled investigation وهو عبارة عن البحث عن مواقف

---

(53) Nagel Op. Cit. p. 451.

متغايرة حيث تكون الظـاهرة اما واقعة بانتظام أو تحدث فى بعض حالات وليس فى حالات اخرى ، وبفحص هـذه العوامل فى تلك الأحوال يمكن معرفة ما اذا كان التغيير فى هـذه العوامل مرتبطا بالتغيرات فى الظواهر ام لا . ويطلق على البحث الذى يستخدم هذه الطريقة « بحث تجريبى مضبوط Controlled emperical inquiry »(٥٤) .

ولكن هل تخلو العلوم الاجتماعية فعلا من التجربة ، فى الواقع اننا نجد نوعين من التجريب فى العلوم الاجتماعية : التجربة المعملية laboratory experiment والتجربة الميدانية field experiment ويوضح ناجل النوع الأول مبينا انه شـبيه بالتجربة المعملية فى العلوم الطبيعية . وهى تتضمن بناء موقف صناعى فى الحيـاة الاجتماعية شبيه بالموقف « الواقعى » فى بعض الجوانب ولكنه يتفق مع متطلبات فى العادة غير موجودة فى الموقف الواقعى من حيث أن بعض المتغيرات (وهى المفترض مسئوليتها عن حدوث الظاهرة) تخضع للتحكم فى الموقف المعملى بينما يمكن الحفاظ على بعض المتغيرات الأخرى ثابتة تقريبا . هـذه التجربة وأن كانت مستخدمة فى مجالات من البحث الاجتماعى الا أن كثيرا من الدراسـات الخاصـة بالظواهر الاجتماعية لا تستعين بها . وقد كانت هـذه التجارب مفيدة فى ابحاث علم النفس مثل الدراسات الخاصـة بسلوك الأطفال . الا أن هناك تحذيرا هامـا بالنسبة للتجربة المعملية وهى انها لا تصلح وحدها للوصول الى التعميم ولابد من بسط البحث الى البيئات الاجتماعية الطبيعية Natural Social environments . أما النوع الثانى من التجارب وهو المسمى بالتجربة الميدانية فيتخذ كموضوع دراسـة المجتمع « الطبيعى » natural بحيث يمكن التحكم فى بعض المتغيرات والتاكد عن طريق المحاولات المتكررة ما اذا كانت التغييرات الحادثة فى المتغيرات تنتج اختلافات

---

(54) Nagel Op. Cit. p. 453.

محددة فى بعض الظواهر الاجتماعية أم لا • وفى احدى هـذه التجارب الميدانية مثلا اجريت تعديلات فى طريقة تنظيم عمل جماعة من العاملين فى مصنع مع تحديد مختلف انماط التنظيم فى البحث • وأمكن التوصل الى أن الجماعات التى تطبق عليها انظمة « ديمقراطية » اكثر انتاجية من الجماعات التى نظمت بطريقة اقل ديمقراطية • ولا شك أن للتجربة الميدانية مزايا اكثر من التجربة المعملية الا أن الصعوبة هى فى الحفاظ على متغيرات ثابتة(٥٥) •

التجريب اذن ممكن على نحـو خاص فى العلوم الاجتماعية ، وعدم شيوعه لا يعنى استحالته • فاذا أمكن التغلب على بعض العوائق مثل ارتباط الفروض المتعارضة مع الوقائع الملاحظة وأمكن اسـتبعاد بعض هـذه الفروض وتحديد المتغيرات فان التجربة تصبح ممكنة مع وضع طبيعة الظاهرة الاجتماعية فى الاعتبار •

(ب) التعميم والتنبوء :

ارتبط التعميم فى العلوم الاجتماعية بوجهة النظر الخاصـة بكل من الظاهرة الاجتماعية والمنهج الملائم للبحث • أن اغلب الذين رفضوا منهج العلوم الطبيعية باعتباره صالحا للتطبيق على العلوم الاجتماعية ، وطالبوا بمنهج يتلائم مع الطبيعة الخاصـة للظواهر الاجتماعية جاهروا بوجود عقبات فى سـبيل اقامة القوانين العلمية(٥٦) • والذين نادوا بتطبيق نفس مناهج الفيزياء على الظـواهر الاجتماعية ، واعتبروا

---

(55) Nagel op. cit. p. 456.

(٥٦) باستثناء الذين يعتقدون فى امكانية قيام قوانين اجتماعية أرقى من قوانين العلم الطبيعى وذلك بالاستناد الى منهج الفهم انظر :
Kanfmann Op. Cit. p. 143.

الظاهرة الاجتماعية قابلة للدراسة مثلها مثل الظاهرة الطبيعية ، ففد صرحوا بامكانية التوصل الى اقامة قوانين عامة يعتمد عليها فى مجال البحث الاجتماعى ٠

ان الذين رفضوا امكانية وجود قوانين فى العلوم الاجتماعية أقاموا هـذا الرأى على أساس اختلاف تلك العلوم عن العلوم الطبيعية فاذا كانت القوانين الفيزيائية صالحة فى أى زمان ومكان فيرجع ذلك الى أن العالم الطبيعى يحكمه نسق من الاطرادات لا تتغير عبر الزمان والمكان بينما القوانين الاجتماعية تختلف باختلاف الزمان والمكان ٠ ان امكان التعميم ونجاحه فى العـلوم الطبيعيـة يعتمـد على اطراد الطبيعـة Uniformity of nature . ٠ اما فى المجتمع فليس هناك اطراد يستطيع التعميم الواسع الاعتماد عليه ٠٠ كما أن الاطرادات الاجتماعية تختلف عن الاطرادات الموجودة فى العلوم الطبيعية وذلك لأنها تتغير من مرحلة تاريخية الى أخرى والنشاط الانسانى هو القوة التى تغيرها فالاطرادات الاجتماعيــة ليست قـوانين للطبيعــة وانمــا هى من صـنع الانســان ، والطبيعة البشرية تملك القـوة أن تغيرها وربمــا التحكم فيهــا(٥٧) ٠

ويستند الرأى القائل بعـدم وجود قوانين أصيلة أو مباشرة على الاطلاق فى العلم الاجتماعى الى مبررات :

١ ـ ان حرية الارادة الانسانية تأتى بعامل من اللايقين فى التكهنات الاجتماعيــة in social prognoses ومن هنا فلا يوجد قانون لأن قرارات الأشخاص تتأثر بعوامل لا عقلية تتحدى الحساب الرياضى ٠

٢ ـ ان التجربة تلعب دورا أساسيا فى كشف القوانين الطبيعية

---

(57) Popper . Op. Cit. pp. 5 — 7 .

ولكن فى المجال الاجتماعى تصبح التجربة ممكنة فى حدود ضيقة جدا بحيث لا يمكن اقامة منهج على أساسها .

٣ ــ ان ما يسمى بالقوانين الاجتماعية يفتقر الى الصدق الموضوعى ، فالقوانين تختلف باختلاف « منظور » العالم الاجتماعى الى بعده الزمنى عن الأحداث التى يريد تفسيرها ، وباختلاف وضعه أو محيطه الاجتماعى بالاضافة الى أن العلم الاجتماعى ليس متحررا من القيمة مثل العلم الطبيعى .

٤ ــ أن دقة القوانين الفيزيائية ترجع الى شكلها الرياضى ولكن الرياضة لا تنطبق على المجال الاجتماعى(٥٨) .

ويعتبر كوهين أحد العلماء الذين يرفضون امكانية اقامة قوانين فى العلوم الاجتماعية ويقول فى هذا الصدد ان وجود تشابهات similarities فى مجتمعات مختلفة فى أوقات مختلفة استخدم كدليل على وجود قانون عام يصدق فى كل الظروف وعلى كل البشر . الا أن التشابهات فى العادات والتقاليد حتى لو لم تكن سطحية ليست قوانين . فما دام البشر يتشابهون فى الشكل والتركيب العضوى والسمات النفسية فمن الطبيعى أن نجد أن تعبيراتهم الاجتماعية بها نقاط تشابه(٥٩) . ويقيم كوهين المبرر الثانى للرفض على أساس تعقد الظواهر الاجتماعية وعدم تكرارها . فالقوانين الطبيعية تحتوى على عدد صغير من المتغيرات ، فاذا أصبح هذا العدد كبيرا أو اصبحت الوظائف معقدة فان القوانين لا يمكن تطبيقها ويصبح العلم الفيزيائى مستحيلا . فاذا كانت الظواهر الاجتماعية تعتمد على عدد من العوامل

---

(58) Kanfmann op. cit. p. 143 - 144.

(59) Cohen Op. Cit. p. 667.

يصعب علينا التحكم فيها فلا يمكن ضمان الوصول الى قوانين تحكم ظواهر الحياة الاجتماعية • والظواهر الاجتماعية مها كانت محددة لا تستطيع ان تفرض على عقل محدود فى زمن محدود أى قوانين على الاطلاق • فلا يمكن اذن مهما حددنا الظواهر الاجتماعية أن نصل الى اى قانون لأنه لا يوجد تكرار فى الظواهر(٦٠) •

ويقيم الرأى المقابل امكانية وجود قوانين عامة فى العلوم الاجتماعية على اساس عدم وجود فارق بين قوانين تلك العلوم وقوانين العلوم الطبيعية • ويؤكد وجهة نظره بتفنيد الآراء المعارضة • وسوف نأخذ آراء فيلسوفى العلم جرانبوم **Grunbaum** وناجل **Nagel** كممثلين لهذا الاتجـاه •

يرى جرانبوم أن السلوك الانسانى ـ الفردى والاجتماعى ـ اذا لم يعرض لتتابعات علة ومعلول أو سبب ونتيجة فان هـذا يعنى إن المنهج العلمى غير صالح لكشف طبيعة الانســان ، ولن يستطيع علم النفس أو العلوم الاجتماعية الوصول الى مكانة العلوم • ويرجع هــذا الرأى الى أن هدف التفسير العلمى فى كافة العلوم باستثناء الرياضيات البحتة هو « تفسير » ظاهرة ماضية أو التنبوء بحدث فى المستقبل وذلك بالاشارة الى أن تلك الأمثلة intances هى نماذج لقانون (أو قوانين معينة) وحدوثها يرجع الى أن الظروف التى تستدعى تطبيق القانون متوفرة وبالتالى فان انكار وجود تماثلات فى السلوك الانسانى الفردى والاجتماعى يعنى انه لا يمكن استخلاص دروس ذات معنى من المــاضى وأن مستقبل الانســان متقلب ومحير(٦١) •

(60(Ibid. p. 666.

(61) Grunbaum Causality and Science of human behavior in Feigl & Brodbeck (eds.) op. cit. p. 767.

ويناقش جرانبوم الرأى الذى يعتمد على القول بأن كل انسان فريد ولا يشبه أى فرد آخر وبالتالى فان سلوكه لا يخضع للوصف السببى ولا يمكن التنبوء به : ان كل جزئية فى العالم ولا شك فريدة سواء كانت شيئا ماديا او حدثا أو كائنا بشريا ، ومن الواضح ان تفرد الأحداث المادية لا يمنع من كونها متصلة بالقوانين السببية لأن القوانين السببية الموجودة الآن تربط بعض مظاهر مجموعة من الأحداث بمجموعة أخرى ... وما دامت العلاقة بين السبب والنتيجة هى علاقة بين أنواع من الأحداث ، فانه ليس من الضرورى أن تكون كل خصائص سبب ما مكررة بالكامل لكى تعطى نفس النتيجة . ويترتب على هذا انه حينما يفترض عالم النفس وجود قوانين سببية للسلوك الانسانى فان هذا الموقف لايتعارض مع وجود اختلافات متعددة بين البشر ولا يؤثر على تفرد وكرامة كل فرد(٦٢) .

ويرفض ناجل الصعوبة التى كثيرا ما تناقش كعائق فى سبيل اقامة قوانين عامة فى العلوم الاجتماعية وهى الطابع المشروط « تاريخيا » أو المحدد « حضاريا » للظواهر الاجتماعية . ان هذه الصعوبة تستند الى المناقشة التالية : على الرغم من أن كثيرا من المجتمعات فى الماضى والحاضر لها تنظيمات متشابهة ـ التنظيم الأسرى ، تعليم الصغار ـ الا ان هذه التنظيمات بوجه عام قد قامت كاستجابة لبيئات محيطة مختلفة ، كما أنها تشتمل على تقاليد حضارية متنوعة حتى ان الأبنية والعلاقات الداخلية تختلف أيضا فى المجتمعات المتعددة . وبالتالى فان أنماط السلوك الاجتماعى سوف تتغير باختلاف المجتمع وباختلاف طابع الأنظمة خلال حقبة تاريخية معينة . وعلى خلاف قوانين الطبيعة والكيمياء فان تعميمات العلوم الاجتماعية مجالها محدود ولا ينكر ناجل

---

(62) Ibid. p. 769.

أن السلوك البشرى يتأثر بتعقد الأنظمة الاجتماعية التى ينشأ فيها ...
مما يؤدى الى جعل القوانين الموثوق بها عن الظواهر الاجتماعية محدوده
العمومية . الا أن هذا لا يعنى أن القانون الثقافى transcultural law
(وهو القانون الصالح فى مختلف المجتمعات) الخاص بالظاهرة
الاجتماعية مستحيل . ان التشكك فى امكانية القوانين الاجتماعية يتمثل
ـ فى رأى ناجل ـ فى افتراض أن القوانين العلمية لابد أن تتيح لنا
التنبوء بالمستقبل ولذلك يؤخذ علم الفلك كنموذج Paradigm لأى علم
يريد أن يكون علما ... الا أن الظروف التى تسمح بالتنبوء البعيد فى
الفلك لا تتوفر فى العلوم الطبيعية الأخرى . ذلك أن المجموعة الشمسية
معزولة وسوف تظل كذلك لزمن طويل ومن هنا أمكن التوصل الى
التنبوء . وأغلب العلوم الطبيعية الأخرى لا يتوفر فيها هـذا الشرط
ومن هنا صعوبة التنبوء البعيد المدى ، بالاضافة الى ذلك فاننا فى
فروع العلوم الأخرى نجهل الظروف الأولية initial التى دعت الى
استعمال نظريات بالذات من أجل التنبوء . فمثلا من الممكن التنبوء
بحركة البندول مادام معزولا عن تاثير العوامل المزعجة له ذلك أن كل
من النظرية والمعلومات الواقعية متوفرة ، ولكن التنبوء لا يمكن الثقة به
فى المستقبل لأن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد ان الجهاز لن يظل
معزولا عن التداخلات الخارجية . ومن الواضح اذن أن عدم القدرة على
التنبوء بالمستقبل البعيد ليست قاصرة على دراسة الموضوعات الانسانية
وحدها(٦٣) .

ويؤكد ناجل ان القانون فى أى مجال للبحث اذا أريد له أن يغطى
مجالا واسعا من الظواهر التى تعرض اختلافات هامة ووثيقة الصلة
بالموضوع فلابد أن يتجاهل فى صياغته هـذه الاختلافات بحيث لا تعبر

---

(63) Nagel Op. Cit. p. 459 and also E. Nagel Concept and theroy formation in Social Sciences in Natanson op. Cit. p. 207.

الألفاظ المستخدمة فى الصياغة عن سمات محددة للظواهر التى تحدث فى ظروف معينة ، الا أن تحليل الظاهرة الاجتماعية بغرض التوصل الى القوانين العامة قد سار فى طريق الاختلافات distinctions التى يقوم بها البشر فى أنشطتهم الاجتماعية اليومية . وحتى اذا حصلنا على وضوح فى العوامل غير الواضحة فاننا لا نستطيع أن نستبعد كلية رجوعنا الى أشياء خاصة بمجتمع معين (أو تقليد معين) . واكثر من ذلك أن الظروف التى نصل فى ضوئها الى التعميمات نادرا ما تكون معروفة تماما . وبالتالى فان التعميمات تكون تعبيرات عن ارتباطات احصائية أكثر منها علاقات اعتماد عامة أو قد تكون شبه عامة (بمعنى أنه على الرغم من ان التعبير عنها عام فى شكله الا أنها تذكر بدون أى نية لاستبعاد الاستثناءات المتعددة) . واذا أريد للقوانين والنظريات الاجتماعية أن تعبر عن علاقات اعتماد لا تتغير مع الاختلافات الثقافية البادية فى الفعل الانسانى فلا بد للتصورات الداخلة فى هذه القوانين الا تعبر عن مجرد السمات المميزة لمجموعة واحدة معينة من هذه المجتمعات(٦٤) .

ويؤكد د. زكى نجيب محمود أهمية القوانين فى العلوم الاجتماعية فيقول « ان العلوم الانسانية ــ كعلم الاقتصاد وعلم النفس ــ تحاول جاهدة أن تأخذ ــ ما استطاعت بمناهج العلوم المتقدمة ، ومن أهم أركان هذه المناهج أن تحل فكرة « القانون » محل فكرة « السببية » فلا يكون البحث عن شىء يعد سببا لشىء آخر ، بل يكون البحث عن دالة رياضية تبين العلاقة بين مجموعة من المتغيرات(٦٥) .

ويعتبر التنبوء بالأحداث المستقبلة أحد المهام الرئيسية للعلم ،

---

(64) Nagel . Structure of Science Op. Cit., p. 463 - 65.

(٦٥) د. زكر نجيب محمود : مرجع سابق ، ص ٢٧٥ .

وهو يمثل مع التعميم نتائج البحوث السليمة ، الا انه يواجه صعوبة فى العلوم الاجتماعية لا ينكرها العلماء او المشتغلون بفلسفة العلم ٠ فقد يغير البشر انماط سلوكهم نتيجة معرفتهم لتلك التنبوءات ذلك اننا فى العلوم الاجتماعية فيما يرى بوبر نواجه تفاعلا كاملا ومعقدا بين ملاحظ وشخص خاضع للملاحظة ، بين دارس وموضوع دراسته ٠ وأدراكنا لوجود ميول tendencies قد تؤثر فى الحدث مستقبلا وأدراكنا أن التنبوء قد يؤثر على الأحداث المتنبأ بها ، هـذا الادراك له تأثير على محتوى التنبوء ٠ ويكون نتيجة ذلك اضعاف موضوعية التنبوءات وافساد نتائج أخرى فى البحث ٠ ان التنبوء ليس الا حدثا اجتماعيا قد يتفاعل مع أحداث أخرى اجتماعية ومن بينها الحدث نفسه المتنبىء به ٠ وقد يؤدى هـذا فى الحالات المتطرفة الى حدوث الحدث الذى يتنبىء به والذى لم يكن سيحدث لولا التنبوء ٠ وفى الطرف الآخر من المتصل قد يؤدى التنبوء بحدث ما الى منع حدوثه ، وتوجد حالات أخرى كثيرة متوسطة بين الطرفين(٦٦) ٠

ويميز ناجل بين نوعين من التنبوءات : كل نوع يعبر عن طريقة تحدث تبعا لها الأفعـال الصادرة عن معتقدات خاصـة بالموضوعات الانسـانية ، وتؤثر كل طريقة فى صدق هـذه المعتقدات نفسـها ٠ النوع الأول يسمى « التنبوء الانتحارى » suicidal prediction وهـو مكون من تنبوءات أساسها سـليم عند تكوينها وقابلة لأن تؤيد بالأحداث المستقبلة ، الا أن الأفعال التى تحدث نتيجة اعلان هـذه التنبوءات تحيلها الى تنبوءات كاذبة ٠ والنوع الثانى يسمى النبوءة المحققة لذاتها the self - fulfilling prophecy وهى عبارة عن تنبوءات غير صادقة بالنسـبة للوقائع الموجودة فى وقت التنبوء ولكنها تصبح صحيحة وصادقة بسبب الأفعال التى تحدث كنتيجة للاعتقاد فى

---

(66) K. Popper Op. Cit. p. 14 - 15.

تلك التنبوءات . ويرى ناجل انه من الخطأ الاعتقاد ان هـذه المشكلة ـ وجود النوعين السابقين من التنبوءات ـ قاصرة على العلوم الاجتماعية ومتصلة « بحرية الارادة الانسانية » ، ففى الواقع أن هناك أمثلة من العلم الطبيعى تعبر عن النوعين السابقين من التنبوءات . كما ان هـذا لا يمنع من اقامة قوانين اجتماعية عامة(٦٧) .

ويبين كوهين استحالة التنبوء فى العلوم الاجتماعية بسبب تدخل عوامل أخرى لا يمكن حسابها مسبقا . ففى رايه اننا نستطيع التنبوء بالظواهر فى مجال الفيزياء اذا كانت القوى الجاذبة والمضادة قابلة للقياس . أما فى المجال الاجتماعى وفى حالة وجود القدرة على قياس القوى الاجتماعية بالاضافة الى وجود ارتباط ما بينها ، فان ما نعتبره قانونا فى العلوم الطبيعية قد لا نستطيع تطبيقه . فعندما تتنازع الأفراد الاهتمامات الدينية والاقتصادية فى اتجاهات مختلفة ، فهناك يثور السؤال : اى القوى ستتغلب ؟ هـذا السؤال لا يمكن الاجابة عليه علميا : فنحن لا نعلم كم وحدة تملكها قوة اجتماعية معينة سوف تعارض الأخريات وكل ما نستطيع قوله هـو انه فى بعض الحالات قد تطغى البواعث الدينية على البواعث الاقتصادية وفى حالات أخرى يحدث العكس . وفى اغلب الحالات لا يمكن فصل البواعث على الاطلاق(٦٨) .

وفى السببية الاجتماعية social causation لا يختفى السبب بعد احداث النتيجة وانما ممكن أن يستمر ويتغير تحت تأثير ما يترتب عليه من نتائج . فمثلا قد يؤثر نظام تعليم معين على تجارة جماعة ما ، وهـذا بدوره قد يؤثر على التعليم . هـذا ممكن لأن نظام التعليم ليس حدثا سببيا فرديا ولكنه نموذج من الأحداث . إن العلاقة السببية

(67) Nagel . Structure of Science Op. Cit., p. 468.

(68) Cohen Op. Cit., p. 670.

بينهما ترجع الى التحليل المنطقى لمجموعة من الظواهر ٠ والاهتمام العلمى يحتم عزل مظهر واحد من الظواهر الاجتماعية ـ الاقتصادى أو السياسى أو الدينى ـ وتتبع تأثير التغيير فيه ٠ حتى المؤرخ يحتاج ان يختار ويلزم نفسه بمراحل معينة من الأحداث الاجتماعية(٦٩) ٠

يتفق اذن اغلب الدراسين للعلوم الاجتماعية على أن التنبوء يواجه صعوبات ليس من السهل التغلب عليها بسبب تعقد الظاهرة الاجتماعية وتدخل العامل البشرى كمؤثر على صدق التنبوءات ٠ وسوف نناقش فى الجزء التالى تأثير العامل البشرى على البحث الاجتماعى ٠

(جـ) القيم والبحث الاجتماعى :

ترتبط القيم فى البحث الاجتماعى بكل من الباحث وموضوع بحثه ٠ وكثيرا ما ينظر اليها كعقبة تحول دون العلوم الاجتماعية وتحقيق للاتفاق حول الوقائع الموجودة والتفسيرات الصالحة لها ، وذلك بادخالها متغيرات كان يفضل استبعادها من مجال البحث ٠ ويعبر د٠ فؤاد زكريا عن هـذه المشكلة كالتالى : « هناك صعوبة هى حساسية المجال الانسانى واتصاله بعالم القيم والمصالح والغايات والأمانى ٠ فالعالم الطبيعى يبحث موضوعات محايدة والنتائج التى ينتهى اليها من ابحاثه يتساوى تأثيرنا فيها ٠ وليست لدى الانسان مصلحة خاصة فى تغليب نظرية فى العلم الطبيعى على الأخرى ٠ اما فى حالة العلوم الانسانية فان الموضوعات التى تتناولها ذات حساسية خاصة والنتائج التى تتوصل اليها تؤثر تاثيرا بالغا فى قيمنا وفى غاياتنا وتمس مصالحنا واهتماماتنا وتثير خلافاتنا وحساسياتنا ٠ وحين تقترب من المجال الانسانى فان العلم لابد ان يتداخل مع المصالح ومع القيم ، ويصبح الحياد والموضوعية التامة امرا عظيم الصعوبة(٧٠) ٠

---

(69) Ibid. p. 672.

(٧٠) د٠ فؤاد زكريا : مرجع سابق ، ص ١٨٧ ٠

ان ارتباط القيم بالباحث نفسه فى المجال الاجتماعى يتبدى فى صورتين : اختيار الباحث لمشكلات بحثه ، ثم تدخل قيم الباحث وآرائه الشخصية وتحيزه فى أثناء تحليله للظاهرة موضع الدراسة • فأما بالنسبة للصورة الأولى وهى تدخل القيم فى اختيار المشكلة فيرى بعض العلماء ان هذه العملية تقوم اساسا على رأى الباحث لما هى القيمة المهمة اجتماعيا • حتى ان « ماكس فيبر » على الرغم من أنه من القائلين بعلم اجتماع « خلو من اعتبارات القيمة » Value free الا أنه يرى ان العلماء الاجتماعيين يجب أن يقدروا (أو يفهموا) القيم الداخلة فى الأفعال أو الأنظمة التى يناقشونها ، ولكن ليس من شأنهم ، باعتبارهم علماء موضوعيين ، أن يؤيدوا أو يرفضوا هذه القيم أو هذه الأفعال والأنظمة(٧١) •

بينما يرى « فيجل » ان الأحكام القيمية على الرغم من انها تلعب دورا فى اختيار المشكلات وطرق تناول هذه المشكلات الا أنها لا تدخل كجزء فى العلم نفسه ، أنها مثل اعتبارات النفع والاحتمال التى تدخل فى التخطيط العقلى للموضوع العملى • وبهذا المعنى فهى تسعى وراء النشاط العلمى وليست محتوى معرفيا له(٧٢) •

ويتساءل ماشلوب عن نوع القيم وأى القيم لها الأولوية ونحن بصدد اختيار المشروع أى موضوع الدراسة • فاذا حول البحث عن طريق مؤسسة ما أو الحكومة فسوف تكون القيمة هى التى يعتقد الباحث أنها تهم المنظمة أو المؤسسة ، واذا لم يكن البحث ممولا من الخارج فقد يتم اختياره على اساس ما يعتقد الباحث انه « قيمة اجتماعية » ، أى ما يعتقد أنه يقدم حلولا لموضوعات يفترض أهميتها بالنسبة للمجتمع •

---

(71) Nagel Structure of Science Op. Cit. p. 485.

(72) Feigl . Op. Cit. p. 528.

فالمجتمع يريد أن يعالج السرطان ، أو يريد أن يعرف طريقة للقضاء على البعوض . أو كيف يقلل الحوادث أو كيف يتفادى تضخم الأسعار ... وهـذا يوحى بأن اختيار الموضوع متساو فى العلوم الطبيعية والاجتماعية . وأحيانا قد يختار الباحث مشروعا لمجرد حب الاستطلاع العلمى دون اعطاء أولوية لأهمية النتائج اجتماعيا ، وهـذا يعتبر استثناء الا أنه موجود فى كل من العلوم الطبيعية والاجتماعية(٧٣) . ويرى ناجل أن اهتمامات العلماء تحدد ما يختاره للبحث وهـذا موجود فى العلوم جميعا . فالأشياء التى يختارها العالم الاجتماعى للدراسة وفى ذهنه تحديد للظروف والنتائج الخاصـة بوجودها ـ على حد تعبير ناجل ـ قد ترجع الى الواقعة التى ترى أنه « كائن حضارى » . ولكن كوننا بشرا لم يمنعنا من دراسة أشياء ليس لدينا تجاهها أى اهتمام فقد نكون غير مهتمين بالشروط التى تساعد على وجود السوق الحرة أو بالعمليات الخاصـة باتزان الحرارة الداخلية للجسم أو بالميكانيزمات التى تنظم ارتفاع المد أو تتابع الفصـول أو حركة الكواكب ومع هـذا لم يمثل ذلك أى عقبـة أمام البحث الخاضـع للتحكم الموضـوعى فى أى فرع من فروع العلم(٧٤) .

اما بالنسبة للصورة الثانية وهى الخاصـة بتدخل قيمة الباحث أثناء دراسته للظاهرة الاجتماعية فقد اختلفت الآراء حولها لقد رأى البعض أنها تؤدى الى تحيز الباحث . وتحدث كوهين عن « الصعوبة الذاتية للاحتفاظ باللا تحيز العلمى فى دراسة الشـئون الانسانية . فقليل من الناس فى امكانهم أن ينظروا بموضوعية الى موضوعات مثل

(73(Maohlup . Op. Cit. p. 164 - 165 .

(74) Nagel . Op. Cit. p. 436.

الاشــتراكية ، أو الحرية فى الحب أو تنظيم الأسرة(٧٥) • ويوافق ماشلوب على أن هناك احتمالات تحيز ، الا انه يضيف بعدين :

أولا : أن هــذا موجود أيضا فى العلوم الطبيعية : ولعلنا لا ننسى الصعوبات التى نشأت خلال مناقشة القيمة الدينية فيما يتصل بنظرية التطور فى البيولوجيا أو المشــكلات التى واجهت علمــاء الفلك فى مناقشتهم للنظرية الخاصة بمركزية الشمس heliocentric theory أو الجيولوجيين فى مناقشاتهم لعمر الأرض •

ثانيا : قد يكون لدى الباحث أحكام اخلاقية ethical مرتبطــة بالمشــكلة التى يعالجها دون أن يؤدى هــذا الى تحيز فى نتائج البحث فقد يكون للعالم الطبيعى آراء عن القنبلة الذرية أو الاجهاض أو التعقيم ، وقد يعبر عنها مرتبطة بعمله العلمى • وكذلك قد يكون للعالم الاجتماعى آراء عن حرية العمل أو الأسواق الحرة أو تاميم الطب وقد يعبر عنها مرتبطة مع نتائج بحثه • وهــذا لا يستدعى القول بالتحيز وليس هناك فارق بين العالم الطبيعى والعالم الاجتماعى • وارتباط الأحكام القيمية بنتائج البحث لا يؤثر على موضوعية تلك النتائج(٧٦) •

وقد قام ديوى بمواجهة ثنائية الواقعة والقيمة التى رآها هيوم بوضوح ثم قام التجريبيون المنطقيون بتحديدها وتطويرها واخضاعها لتحاليل متعمقة • وكذلك ناقش كل من كارناب وراشنباخ موضوع العلم والتقييم • ويرى هؤلاء ومعهم هربرت فيجل انه لابد من التمييز بين دراســة التقديرات والاتجاهات التقيمية كمــا يقوم بها علمــاء النفس

---

(75) M. Cohen. Reason and Nature p. 348 Quoted in Machlup Op. Cit. p. 165.

(76) Machlup . Op. Cit. p. 162 - 164.

والانثروبولوجيون وعلمـاء الاجتماع والمؤرخون ، ويمثل هـذا جزءا هاما من العلوم الاجتماعية ، وبين القيام بتقديرات ، ويمثل هـذا جزءا من عملية الحياة نفسها ولا يعتبر نشاطها عمليا على الاطلاق . فتقييم أهداف وفوائد البحث هى موضوع التزام أكثر منها موضوع لمعرفة . فمثلا نحن نفضل استمرار الحياة على الأرض عن توقفها ، والصحة عن المرض ، والعـدل عن الظلم ... ولكننـا نعتبر هـذه التزامات أو موضوعات للاتجاهات ولا تخضع للتبرير العلمى(٧٧) .

ويؤكد ناجل أن العلماء الاجتماعيين يدخلون بالفعل قيمهم الخاصة فى تحليل الظواهر الاجتماعية . وحتى العلماء الذين يؤمنون بامكانية دراسـة الشئون الانسـانية بحياد اخلاقى عن طريق أبحاث تقـوم على العلاقات الهندسية والفيزيقية ، حتى هؤلاء العلماء فى رأيه – يعطون احيانا احكاما تقييمية فى ابحاثهم الاجتماعية . ولا شك أن دارسى الشئون الانسانية كثيرا ما يكون لديهم قيم متعارضة مما يؤدى الى اختلافهم حول الوقائع ، وهو اختلاف لا يختفى عن طريق اجراءات البحث المضبوط . فليس من السهل أن نمنع ما نحبه وما نكرهه ، آمالنا ومخاوفنا من التأثير على نتائج أبحاثنا . لقد احتاجت العلوم الطبيعية الى قرون لكى تنمى عادات وأساليب للبحث تمنع دخول عوامل شخصية غير مرتبطة بالموضوع والمشكلة أكثر تعقيدا فى دراسـة الشئون الانسانية والمشـاكل التى تخلقـا فى وجـه الوصـول الى معـرفة يعتمـد عليهـا مازالت موجودة . ويرى ناجل أن الحل هو فى اقامة تفرقة بين الأحكام الواقعية والأحكام القيمية . وهناك خطوات يمكن القيام بها من أجل التعرف على التحيزات القيمية Value bias فاذا حدثت نحاول بقدر الامكان أن نقلل من تأثيرها وهـذا اذا لم نستطيع استبعادها نهائيا(٧٨) .

---

(77) Feigl Op. Cit. p. 527.

(78) Nagel . Op. Cit. p. 488.

ويؤدى ارتباط موضوع دراسة العلوم الاجتماعية بالقيمة الى تميز الظواهر الاجتماعية وتعقدها . فالظواهر الاجتماعية تعرف باعتبارها نتائج للأفعال الانسانية وكل الأفعال الانسانية هى أفعال تقوم على بواعث Motivated action أى أن الظواهر الاجتماعية تفسر فقط اذا نسبت الى انواع محددة من الأفعال تكون « مفهومة » فى ضوء القيمة التى تحرك من يقرر ويقوم بالفعل . وهذا الاهتمام بالقيمة - ليس القيمة التى تحرك الباحث وانما القيمة التى يفهم منها انها فعالة فى توجيه الأفعال لتفسير الأحداث المدروسة - يعتبر الفارق الأساسى بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية . فمن أجل تفسير حركة الجزئيات أو التحام الذرات لن يتساءل العالم لماذا تريد الذرات أن تنقسم . أما العالم الاجتماعى فهو لا يقوم بعمله الا اذا فسر التغيرات فى تداول المال بالرجوع الى قرارات المستهلكين والمدخرين ، وفسر اندماج الشركات عن طريق الأهداف التى اقنعت المسئولين القيام بهذه الخطوة ... هذه أمثلة من علم الاقتصاد ولكن من السهل تقديم أمثلة من علم الاجتماع أو الانثروبولوجيا الحضارية أو العلوم السياسية ... لنبين أن التفسير فى العلوم الاجتماعية يحتاج بانتظام الى تأويل للظواهر فى ضوء الدوافع المثالية للأشخاص المثاليين الذين يقومون بأفعال مثالية idealised . لابد أن نأخذ فى اعتبارنا التقديرات البشرية ولابد من تفسير الظواهر الاجتماعية كنتائج للأفعال الانسانية القائمة على الدوافع (٧٩) .

ولا شك أن العلم المتطور يشجع الاختراع والتبادل والنقد الحر والمسئول للأفكار ويرحب بالتناقض فى طلب المعرفة بين المحققين المستقلين حتى لو اختلفت اتجاهاتهم الفكرية .

ويحاول العلم الاقلال تدريجيا من تأثير التحيزات عن طريق استبقاء

(79) Machlup. Op. Cit. p.. 165.

نتائج الأبحاث التى استطاعت التغلب على الفحص الناقد من جانب جمهور كبير من الدارسين مهما كانت اتجاهاتهم القيمية أو ارتباطاتهم المذهبيـة • ومن العبث أن ندعى أن هـذه العملية المنظمة لاستيعاب المبادىء المتعددة من الممكن أن تطبق بنجاح فى البحث الاجتماعى كما طبقت فى العلوم الطبيعية • ولكن من العبث ايضا أن تنتهى الى القول بان المعرفة السليمة للشئون الانسانية لا يمكن الوصول اليها مادام البحث الاجتماعى كثيرا ما يكون موجها توجيها قيميا Value oriented (٨٠) • وعلى الرغم من أن هـذه المشكلة لم تحسم بعد نهائيا فى العلوم الاجتماعية الا أنها لا تعوق البحث الاجتماعى •

---

(80) Nagel Op. Cit. p. 430.

الفصل الثانى

« معنى التفسـير »

أولا ـ الآراء المختلفة فى التفسـير ٠

ثانيا ـ شروط التفسـير :

(أ) المطلب المنطقى للتفسـير ٠

(ب) المطلب المعرفى للتفسـير ٠

ثالثا ـ التفسـير والعمليات المنهجية الأخرى :

(أ) التفسـير والوصف ٠

(ب) التفسـير والتنبوء ٠

(جـ) التفسـير والتعميم ٠

أولا ـ الآراء المختلفة فى التفسير :

اختلفت آراء العلماء وفلاسفة العلم حول ما هية التفسير الا انهم اكدوا على اهميته كهدف واضح للعلوم جميعا وذلك من اجل الوصول الى مستوى أرقى من العلمية . وفى الواقع ان التفسير خاصية اساسية للعلم لأن العلم يسعى الى التنظيم وتنسيق معرفتنا بما يجرى فى العالم على أساس مبادىء مفسرة تتيح الاجابة على أسئلة تطرح الاستفهام لماذا ؟ .

وليس هناك من شك فى أن تحليل التفسير The analysis of explanation هو محور اهتمام فلسفة العلم لأننا نبدأ بالبحث العلمى من أجل الوصول الى تفسير للعالم بطريقة افضل من مجرد الاعتماد على الحس الشائع . وهذا صحيح سواء كان الحدث الذى نفسره اقتصاديا او سياسيا او كيمائيا . فكل ما نريده هو أن نعرف لماذا تكون الظواهر على ما هى عليه بدلا من ان تكون شيئا آخر وذلك مهما كان نوع الظاهرة التى نهتم بها . ويترتب على ذلك اثارة للسؤال : ما هو التفسير السليم ؟ .

ان الشكل العام للتفسير يجد اسسه فى الاستجابات المعرفية الأولى للانسان فى مواجهة المثيرات المحيطة وفى استجابات يقوم بها الادراك الحسى Perception . ثم ينتقل الى الأشكال التصورية conceptual forms فى فكر الانسان . هذا التفسير العام وجد تعبيره التصورى أولا فى الأساطير والخرافات myths ثم فى النظريات الكونية والميتافيزيقية . فالميتافيزيقا كثيرا ما قدمت مشكلات للعلم ،

---

(1) Alan Ryan. The Philosophy of Social Sciences. Glasgow: The University press, 1970, p. 47.

الا أن التطور التجريبى للعلم أدى الى ترك هـذا النوع من التفسير(٢) ٠ ولعل من أوضح الأدلة على أن الفكر الأسطورى ظل محتفظا بمكانته فترة أطول مما ينبغى ، استمرار ذلك النوع من التعليل المسمى بالتحليل « الغـائى teleologieal » ، للظواهر ، أعنى تفسـير ظواهر الطبيعة من خلال « الغايات » التى تحققها هـذه الظواهر للبشر ٠ فنحن نتصور مثلا ، أن الشمس تطلع كل صباح لكى تدفىء أجسامنا ، وأن القمر والنجوم تظهر كل مساء لكى تنير طريقنا أو تهدى التائهين منا فى الليـل(٣) ٠

ويعتبر التفسير بشـكل عام تعبيرا عن تأكيد بطريقة معقـولة ٠ فاذا ما تحدث شخص بلغة لا نفهمها فنحن نطالبه أن يفسر تقريره ، فاذا ما عدل تقريره بطريقة تجعله أكثر ألفة familiar فهذا يعنى أنه قد فسره ٠ ويصبح التقرير فى شكله الجديد أكثر قبولا لأنه يثير لدينا استجابة محددة نصفها بأننا نفهم التقرير ٠ وبشكل عام يقبل التفسير اذا فسرت الأحداث والتغيرات عن طريق النظر اليها باعتبارها أمثلة خاصـة لقانون عام ٠ ان القوانين العامة تفسر تجربتنا لأنها تنظمها وذلك عن طريق ارجاع الأمثلة الخاصة الى المبادىء العامة ٠ وكلما كان المبدأ أكثر عمومية وعـدد الشواهد التى يمكن الاشارة اليها أكبر كان التفسير أكثر قبولا ٠ اننا نلاحظ أن تفسيرات الحياة العـامة كثيرا ما تعتمد على مبدأين : ان الأفكار تكون أكثر قبولا عندما تكون أكثر ألفة familiar أو عندما تكون أكثر عمومية ، وأى واحد من المبدأين السابقين يصلح كأساس للتفسـير(٤) ٠

---

(2) John W. Yolton. Explanation. in British Journal of Philosophy of Science Vol. 10 1959 - 60 p. 195.

(٣) د٠ فؤاد زكريا : التفكير العلمى ، مرجع سابق ، ص ٦٤ ٠

(4) Norman Campbell . Op. Cit. p. 77 - 79.

وللتفسير معانى متعددة وأحيانا يبدو كأن هنـاك انفصالا بين استخدامات التفسير فى العلم واستخداماته فى السياقات العادية الا أن المعنى العلمى للتفسير يتصل مع معنى واحد فقط من المعانى العادية الشائعة وهو « جعل ما هو غامض مفهوما » ويكون هـذا عن طريق ربط ما يبدو خارج نطاق الأحداث بالنطاق ذاته ٠ فمثلا ، فى الحياة اليومية اذا قام شخص بفعل غامض فاننا نفسره عن طريق وصف السياق بطريقة تجعل الفعل مفهوما مع اعطاء التصورات العامة عن الدوافع الانسانية ٠ واذا استاء شخص خلال مناقشة موضوع معين فاننا نسأله لـماذا ؟ ويفسر الحدث فى السـياق المعتاد عندما نشير الى الموضوع الذى أثير وكان له تأثير على كرامة الرجل ٠ ان التفسير هنا يعنى وضع الغامض داخل سير الأحداث المعتـادة ٠ ويحدث شىء مشابه بالنسـبة للتفسير فى السـياق العلمى ٠ الا اننا فى مجال العلم نجد أن ما يوافق « السير المعتاد للأحداث » لا يوجد ببساطة فى التصورات العادية وانما يقوم من خلال التفسير : اننا نقول اننا قد فسرنا حدثا ما عندما نعطى سابقة (اى شرط سابق) لهذا الحدث ، وهى سابقة لها اهمية خاصة اما لأنها من النوع الذى يمكن تغييره بسـهولة أو أنها من النوع الذى يتغير بكثرة مع بقاء بقية الشروط كما هى ٠ وهناك مطالب اخرى فى السياق العلمى وهو أن تكون السـابقة antecedent (الشرط السـابق) متميزة فى تصـورات تبين العلاقة بين النتائج التى نفسرها ومجموعات أخـرى ، لأنه يحدث أن تكون السوابق (الشروط السـابقة) موضوعة فى سياق يعطى قيمة معينة لمتغيرات هامة التى لو كان لها قيم أخرى لكانت قد أعطت نتائج اخرى ٠ ويتضح لنا اذن أن التفسير له خاصيتين أساسيتين : أنه يعطى السوابق (الشروط السـابقة) الخاصة بالواقعة المفسرة(٥)

---

(٥) أطلقنا اسم واقعة مفسرة أو الواقعة التى تحتاج الى تفسير على التعبير explicandum وهى تتسـاوى فى المعنى مـع التعبير explanandum الذى سيرد فى موقع آخر ٠

explicanaum في شكل مجموعة عوامل توضح علاقة هـذه الشروط بشروط اخري وهـذا يبين بدقة ما يحتاج الى تفسير . والخاصية الثانية أنه قادر على اقامة بنـاء حيث تكون الارتباطات التي نفسرها في مستوى معين هي نفسها وقائع مفسرة explicanda وتحتاج الى تفسير في مستوى آخر . والنتيجة أن التقدم في العلم حقق نتائج كثيرة خاصـة بهيكل النظرية التفسيرية . وهـذا يرجع اساسا الى أن مجموعة الارتباطات التي تفسر على مستوي عميق تتصل بمجموعة أوسع . وهكذا يتسع مدي النظرية العلمية كلما تقـدم البحث . فهي تضع تحت اطار واحد ظواهر مختلفة للغاية عن طريق تحقيق التجانس لمـا يبدو مختلفا . واذا اخذنا مثالا علي ذلك فسوف نجد أن قوانين كبلر تفسر في مستوى معين بعض مظاهر حركات الكواكب ، الا أن نفس هـذه القوانين تخضع للتفسير بواسـطة نيوتن في شكل قانون الجاذبية وبعض انواع السرعة . وهكذا نجد أن الاطرادات regularities التي أوضحها كبلر تمثل نوعا واحدا في مجموعة أوسع من الاطرادات التي تنطبق عليهـا ايضا قوانين نيوتن . ويقال حينئذ أن نيوتن قد قام بتفسير قوانين كبلر لأنه بين الارتباط بين مدي واسع من الظواهر . ونجد نفس الموقف في الاطرادات التي وضـعها قانون بويل وقانون شـارلز ، فهذه القوانين تفسر على مستوي أعمق بواسطة النظرية الحركية للغازات Kinetic theory of gases ان التفسير العلمى اذن يربط بين الظواهر على مدى واسع الا أن من الخطأ الاعتقاد أن هذا الربط يشبه خضوع تعميم ما تحت تعميم أعم(٦) .

ويقال عن شيء أنه « فسر » أو « فهم » عندما نكون قد حولنا

---

(6) Charles Taylor. The explanation of purposive behaviour in T. Borger & Cioffi (eds.) Explanation in the Behavioural Sciences. Cambridge : the University Press 1970. p. 49 - 79, p. 49 - 51

الموقف الى عناصر وارتباطات مألوفة الى حد اننا نقبلها كشىء مسلم به . وفهم موقف ما يعنى من الناحيـة الاجرائية اكتشـاف عناصر مألوفة وارتباطات بينها ، ويحدث كنتيجة الألفـة مع القواعـد التى تحكم (تصف وتفسر) اغلب الأحداث فى العالم الطبيعى مما يمكن الانسان من التـلائم مع تلك الأحداث . وفى حالة تغيب القواعـد التى يمكن الاعتماد عليها تحدث محاولات التجربة والخطأ فى محاولة التوافق الاجتماعى . وتعتبر الأحداث الاجتماعية مثل الحروب والثورات احداثا طبيعية بنفس المعنى الذى ينسب الى الأحداث الفيزيائية(٧) .

واذا كان التفسير يعنى الرجوع الى المألوف فلابد أن نلاحظ أن « الألفة » تعبير نسبى فما يعتبر مألوفا بالنسبة لرجل العلم لا يعتبر مألوفا بالنسبة لرجل الشارع . ان العالم يسعى دائمـا الى تطوير نظرية ذات شـكل عام ، نظرية تتيح له التنبوء بالاضافة الى التفسير . ومادام هدف العلم هو التنبوء فلن ترضيه الا الشروط الكافية والضرورية معـا وذلك على خلاف ما يحدث فى الحياة اليومية التى نكتفى فيها بالشروط الكافية . ولهذا ينظر العالم الى التفسيرات الصالحة فى الحياة اليومية باعتبارها فروضا تحتاج الى فحص نقدى أثناء البحث عن شروط تكون ضرورية وكافية (٨) .

وهناك آراء أخرى ترفض اعتبار « الألفة » أساس التفسير وترى

---

(7) G. A. Lundberg : The Postulates of science & Their implicacations for Sociology. in Natanson (ed.) Philosophy of Social Science. pp. 33 - 72. p. 39 .

(8) J. Passmore. Explanation in everyday life, in Science and in history : in « History & Theory » Vol. 11 No 2 1962 pp. 105 - 123, p. 107.

ان التفسير اساسا يهدف الى تعقيل الوقائع اى جعلها مدركة من جانب عقل يسعى الى الفهم • وعندما نفسر واقعة فاننا نصنفها فى سياق وقائع اخرى بطريقة تلقى الضوء عليها • ان التفسير النظرى لواقعة هو بيان لها يتعامل من جهة مع المظاهر المختلفة لماهيتها ومن جهة اخرى يجيب على السؤال لماذا وهو سؤال خاص بالظروف المتعلقة بوجودها مما يجعل هذا الوجود معقولا • ان التفهم أو الفهم comprehensibility or understandibility هو العامل الأساسى للتفسير وليس الألفة familiarity (٩) والتفسيرات هى تقريرات تقدم لارضاء رغبتنا فى فهم العالم من حولنا •

ان التفسيرات لا تخضع للحكم الثابت الذى يدعى انها صالحة فقط فى حالة رد غير المألوف الى المألوف لأننا عندما نفسر البهتان الناتج عن تاثير الشمس على الأشياء الملونة بالرجوع الى افتراضات فيزيقية وكيميائية عن مكونات الضوء ومكونات الأشياء الملونة فان التفسير لا يستبعد بحجة انه غير صالح حتى اذا كان المألوف مصاغا فى عبارات تبدو لأغلب الناس غير مألوفة • ان هناك نقطتين لابد أن يسجلا :

١ ـ فى حالة عدم قيام التفسير برد غير مألوف الى المألوف فانه يظل تفسيرا مقبولا مادامت المقدمات قائمة على اساس متين من الأدلة التى كفت عن كونها غير مألوفة فى مكان ما من المجتمع العلمى •

٢ ـ وحتى فى حالة احتواء المقدمات على افكار غير مألوفة فهذه الأفكار تشير الى تشابه مع افكار عامة استخدمت من قبل ومتصلة بموضوعات مألوفة لنا • وتساعد المقارنات analogies على تشبيه الجديد بالقديم وعلى تفادى أن تصبح المقدمات المفسرة غير مألوفة (١٠) •

---

(9) N. Reseher. Scientific Explanation. New York : The Free Press 1970 . p. 1 - 2.

(10) E. Nagel. Structure of Science p. 46.

ويرفض هوسبرز النظر الى التفسير باعتباره يرد الحدث الى احد الأمثلة فى سلسلة من الأحداث المعروفة لنا من قبل كأن يفسر سلوك الشخص بارجاعه الى دوافع ورغبات مثل التى تحدث لنا وبالتالى تكون مألوفة لنا . على عكس بردجمان Bridgman الذى اكد على كون التفسيرات كلها من هذا النوع وقال فى هذا الصدد « انى اعتقد ان الفحص سوف يبين لنا أن جوهر التفسير يكمن فى رد الموقف الى عناصر تكون مألوفة لنا ونقبلها كشىء مفروغ منه بحيث ترضى فضولنا »(١١) .

ويبنى هوسبرز رفضه لرأى بردجمان على أساس :

اولا : اننا من الممكن أن نطلب التفسير لأشياء مألوفة لنا كما نطلبه لأشياء مجهولة لنا ، فقد نسأل لماذا تسقط الأحجار ، كما نسأل لماذا ترتفع الطائرات ؟

ثانيا : قد لا يكون التفسير مألوفا على الاطلاق ، بل قد يكون اقل الفة من الظاهرة التى تحتاج الى تفسير . واذا كان التفسير غير مألوف فقد نميل الى القول انه لابد من أن يكون كذلك مادام صادقا . ولكن كونه مألوفا ليس له أى علاقة بصدقه validity كتفسير . ان كونه مألوفا موضوع ذاتى ـ فما هو مألوف لشخص ما قد لا يكون مألوفا بالنسبة لى ـ ولكن التفسير اذا كان صادقا فهو صادق بالنسبة لكلينا . ان ما يبدو سليما فى الرأى الذى يقول برد الشىء الى المألوف هو أن القانون الذى يفسر قد يكون مألوفا . ولكن كون الظاهرة تخضع لقانون

---

(11) P. W. Bridgman. The Logic of Modern Physics, p. 37 Qnotedin J. Hospers : What is explanation. in Essays in Conceptual analysis . by F Flew (ed) London : Macmillan and C. Ltd. 1960 pp 94 - 119 , p. 96.

وكون السلوك يشـبه القانون lawlike ومن الممكن التنبوء به ، كل هـذا قد يجعل الظاهرة اقل غموضا واكثر الفة . والآن اذا سألنا ما هو التفسير فان الاجابة بسيطة : ان تفسير حدث هو ببساطة وضعه تـحت قانون ، وتفسير قانون هو وضعه تـحت قانون آخر . ولا يهم اذا كان القانون يعبر عن الأهداف purposes أم لا ، ولا يهم اذا كان مألوفا ام لا ، فان ما يهم هو كون التفسير صادقا . ان القانون يجب ان يكون صادقا ، وهـذا يتضح من استخدام كلمة « قانون » التى تشير الى وجود اطراد فى الطبيعة Uniformity of nature واذا كان هـذا الاطراد مجرد خيال أو يتضمن استثناءات فنحن لا نسميه قانونا(١٢) .

ويتعرض قاموس الفلسفة لمعنى التفسير فيبين أنه من الناحية العلمية هو « منهج لبيـان ان الظاهرة أو مجموعة الظواهر تـخضـع لقانون بواسطة علاقات سببية أو ارتباطات وضعية » أو باختصار « هو تحليل منهجى للظاهرة من أجل ذكر سببها . ان عملية التفسير توحى بالأداء الحقيقى أو الوجود الملموس للنتيجة فى السابقة (الشروط السابق) بحيث تعتبر الظاهرة مشتقة ومتطورة ومنفصلة عن سوابقها (شروطها السـابقة) . ان عملية التفسير ذاتهـا ثم قيمة هـذا التفسير تتضمن موضوعا هاما هو العلاقة بين السبب والقانون . فبينما يرى بركلى انه يمكن التوحيـد بينهما يطالب كونت بالتمييز بين السبب والقانون . والنظريات الحـديثة تتدرج من مثاليـة متطرفة الى وضعية منطقية . ويبدو هذان الطرفان غير كافيين : الأول : بادخاله أشياء كثيرة فى العلم ، والثانى : لاهتمامه بجزء محدود من العلم وهو المعرفة بالقوانين العلمية . وقد اقترح راسل اتجاها متوسطا واضعا فى اعتباره نقد هيوم للسببية جنبا الى جنب مع أسباب ميل لقبولها . ويتلخص هذا الاتجاه فى :

---

(12) Hospers. What is explanation p. 97 - 98.

(أ) أن الأحداث sequence المنتظمة توحى بالعلاقات السببية .

(ب) ان العـلاقات السـببية هى مجموعة واحـدة من التعميمات العلمية وهـذا يمثل اتجاها واحـدا للأحداث فى الزمان .

(جـ) ان العلاقات السـببية كما هى يجب الا تستخدم فى المراحل المتقدمة للتعميمات العلمية وذلك مع توخى العلاقات الوظيفية فى كل الحـالات .

وعلى الرغم من أهمية هـذه الوجهة من النظر فى مجال المنهج الا أنها لا تكفى لتغطية كل المشـكلة(١٣) .

والتفسير بهذا المعنى هو خطوة فى اتجاه التعميم اى بناء النظرية ، انه العملية التى تربط الواقعة بآثارها المنطقية وبنتائجها او هو عملية ادخال تقرير الواقعة داخل نسق سليم من التقريرات التى تمتد أبعد من مجرد الواقعة المعطاة ، أو هو بناء لجسم مترابط منطقيا من التقريرات التى تضم تقرير الواقعة المحتاجه الى تفسير جنبا الى جنب مع التقريرات الأخرى . وبصورة اكثر عمومية التفسير هو البحث عن تعميمات ترتبط متغيراتها وظيفيا بطريقة تجعل قيمة اى متغير تحسب بواسطة قيمة المتغيرات الأخـرى ، وذلك سـواء كانت العلاقات السـببية ملحوظة أو متداخلة فى عناصر التعميمات(١٤) .

ويعتبر التفسير أحد الدعامات التى يقوم عليها التمييز بين الحس الشـائع common sense وبين المعرفة العملية . فاذا ما حاول الحس

---

(13) Thomas Greenwood. Explanation . in D. D. Runes (ed.) Dictionary of Philosophy. New York Philosophical Library. 1972 pp. 104 - 105, p. 104 .

(14) Ibid p. 105.

الشـــائع اعطاء تفسيرات للوقائع فان تلك التفسيرات غالبا ما تكون خالية من اى اختبارات نقدية لمدى اتصالها بالوقائع ٠ ان الرغبة فى التفسير ، تلك الرغبة المنظمة والمحكومة بالدليل الوقائعى هى المولد للعلم ، ان تنظيم وترتيب المعرفة على أسس من المبادىء التفسيرية هو الهدف المميز للعلوم ٠ وبالتحديد العلوم تهدف الى الكشف ثم الى التعبير فى عبارات عامة عن الظروف التى تحدث فى ظلها الأحداث ٠ ويمثل ذكر هـذه الظروف تفسيرات الأحداث المتماثلة ٠ ويمكن تحقيق هـذا الهدف عن طريق تمييز أو عزل بعض الخصائص فى موضوع الدراسة المدروس ثم تحقيـــق نمـــــاذج متكررة للعـــــلاقات المتبادلـــة repeatable patterns of dependence يحدث فيها مواجهة بين الخصائص وبعضها ٠ ويترتب على ذلك فى حالة البحث الناجح أن نجد القضـايا التى كانت تبدو منعزلة تظهر مرتبطة ببعضها البعض بطريقة محددة بفضل وجودها فى نسق من التفسيرات System of explanations وفى بعض الحالات يمكننا الوصول بالبحث الى آفاق بعيدة ، فمن الممكن كشف نماذج من العلاقات تنتشر فى عـدد كبير من الوقائع حتى أنه يمكن بمساعدة عـدد ضئيل من المبادىء التفسيرية بيان أن عـــدا لا نهائيا من القضايا الخاصة بتلك الوقائع تكون كلا متكاملا من المعرفة ٠ وقد يأخـذ هـذا الشكل احيانا شكل المنهج الاستنباطى كما هو الحال فى الهندسة البرهانية وفى علم الميكانيكا ٠ ولا تملك كل العلوم الموجودة نظاما سليما للتفسير كما هو الحال بالنسبة لعلم الميكانيكا ٠ فعلى الرغم من أن فكرة التنظيم المنطقى السليم فى كثير من العلوم ـ سواء فى البحث الاجتماعى أو فى كثير من العلوم الطبيعية ـ تستمر فى لعب دورها كمثل اعلى ideal (حتى بالنسبة لفروع البحث التى لا تستطيع دائمـا تحقيق هـذا المثل الأعلى ، مثل البحث التاريخى) فان هدف الوصول الى تفسيرات للوقائع دائمـا موجود ٠ ان التفسير اى اقامة علاقات تبادل بين قضايا غير مرتبطة ظاهريا والعرض المنهجى للصلات بين موضوعات مختلفة ظاهريا ، كل هـذا يعتبر علامات مميزة للبحث العلمى ٠

ان المعرفة العلمية تملك طابعا منهجيا systematic غير موجود

فى الحس الشـائع ونتيجة لذلك يحدث التمايز بين النوعين من المعرفة ·
ان الحس الشـائع قد يعبر عن معرفة سليمة الا ان الحدود التى ينبغى عليه ان يتوقف عندها غير واضـحة · لذلك تقـدم العلوم تحسينات وتطورات للتصورات العـامة عن طريق عرض للصلات المنهجية للقضايا التى تهتم بموضوعات المعرفة العـامة · ان كون الحس الشـائع يهتم اهتماما ضئيلا بالتفسير المنهجى للوقائع التى يسجلها يترتب عليه قلة اهتمام بمدى التطبيق الصحيح للمعتقدات الخاصة به(١٥) ·

ان اى أى قاموس سوف يوضح لنا ان السؤال « لمـاذا ؟ » يستخدم بدون تمييز لتوضيح مجموعة اشياء قد يكون سبب وضع من الأوضاع أو سبب حدث ما او دوافع شخص أو الهدف من فعله · ان هـذه الأسئلة تطالب بسرد ما حدث فى المـاضى أو قد تعبر عن حيرة بسبب وضـع من الأوضاع يكون مختلفا عن المعتاد · وفى الواقع اننا أحيانا نفشل فى التمييز بين البحوث العلمية وبين الأسئلة التاريخية وذلك بسبب عدم التمييز فى استخدام السؤال « لمـاذا ؟ » ، ولكن من المهم أن ندرك ان اهتمامنا بأصـل الشىء **origin** ليس مجرد اهتمـام تاريخى · فقد تتضمن الرغبة فى الوصول الى تفسير سببى **causal** أو علمى · اى أن السائل قد يكون مهتما بشيئين : التفاصيل الخاصـة بالموضـوع بالاضـافة الى بعض التعميمات التى تربط بعض التفاصيل بتفاصيل اخـرى(١٦) ·

وفى الواقع اننا نحكم على نجاح اى علم بمدى قدرته على التفسير ، والنظرية الخاصة بظاهرة ما ليست الا تفسيرا لتلك الظاهرة ، فلا يصح اطلاق لفظ « نظرية » على اى شىء خارج نطاق التفسير · ويكون التفسير اجابة على السؤال التالى : « لمـاذا تحت ظروف معينة تحدث ظاهرة

---

(15) Nagel, Op. Cit. p. 4 - 5 .

(16) Brown Op. Cit. p. 11 - 12 .

معينة » .. وبذلك يكون تفسير كشف ما سواء كان تعميما أم قضية متصلة هو عبارة عن العملية التى ـ باعتبارها نتيجة منطقية أو استنباطا ـ تتبع قضية عامة أو أكثر تحت ظروف معينة(١٧) .

واذا كان من الصعب التحكم فى متغيرات عن البشر بسبب كونه أكثر تعقيدا من التحكم فى متغيرات عن الأشياء فهذا لا يعنى أن التفسير مفتقد فى العلوم الاجتماعية . ان الحاجة الى قضايا والى تفسير موجود فى العلوم جميعا وذلك على الرغم من ان مضمون القضايا والتفسير فى العلوم الاجتماعية مختلف عنه فى العلوم الأخرى . فلابد للعلوم الاجتماعية فيما يرى البعض أن تصبح اكثر تشبها بالعلوم الأخرى وذلك عن طريق اخذ مستويات العلوم الطبيعية فى التفسير . واذا كان علم الاقتصاد اكثر العلوم الاجتماعية تقدما بسبب توصله الى نظريات على المستويين الجزئى والعام micro & macro levels . فانه لا يزال يعانى من عمومية النظريات (مثلا قانون العرض والطلب ليس عاما فالطلب على الروائح العطرية لا يخضع لهذا القانون) . أما التاريخ فيعتبر القطب المقابل لأنه يملك رصيدا كبيرا من النتائج التجريبية عموميتها منخفضة . هو يدعى التفسير ولكنه يتظاهر ـ أو هذا موقف أغلب المؤرخين ـ بانه لا يملك نظريات لأن النظريات لابد ان تتضمن قضايا عامة ، وقد استنتج المؤرخون أن التاريخ خال من النظريات عندما وجدوا انه ليس هناك قضايا عامة فى موضوع دراستهم . ولكنهم اغفلوا موضوعا هاما وهو ان التاريخ يحوى قضايا عامة الا انه لا يذكرها . واذا كان التاريخ يضم تفسيرات كثيرة وليس نظريات فان علم الاجتماع والانثروبولوجيا يظهران باعتبارهما يتضمنان نظريات كثيرة وليس تفسيرات . الا ان فحص النظريات عن قرب يبين انها تفشل كتفسيرات . فقد تتكون

---

(17) Homans Op. Cit. p. 22 - 23.

النظريات من تعريفات غير اجرائية(*) وقد تظهر علاقات بين الخصائص المعروفة فى النظريات فتحولها الى تقريرات موجهة oriented statements وفى الحالتين تفشل فى أن تصبح أنظمة استنباطية .

ان علم الاجتماع والانثروبولوجيا يملكان تعميمات شديدة العمومية تسمى تعميمات حضارية cultural universals مثل ان المجتمعات كلها متدرجة ... ولكن لكى تصبح صالحة فى نظرية لابد للقضية ان تكون عامة ولا بد أيضا ان تكون لها قوة تفسيرية وهى لا تملكها(١٨) .. وتبقى المشكلة الرئيسية فى العلوم الاجتماعية تلك التى وضعها هومز : كيف يستطيع سلوك الأفراد خلق خصائص الجماعات ؟ أى أن القضية الرئيسية ليست تحليلا وانما تركيب ، ليس اكتشاف المبادىء الأساسية لأنها معروفة ولكن بيان كيف تختلط المبادىء العامة ـ كيف تبدو فى سلوك كثير من الأفراد والجماعات ـ على مدى الزمان لتعطى أكثر الظواهر الاجتماعية ثباتا وتحافظ عليها وتغيرها(١٩) .

وفى الواقع ان الموقف من التفسير فى العلوم الاجتماعية لا يوجد حوله اتفاق بشكل عام لأنه متصل بالموقف نحو العلوم الاجتماعية عموما ومقدار نجاحها أو فشلها فى التوصل الى معرفة بالقوانين

(*) التعريف الاجرائى يرتبط بالقياس ويقوم على تحديد المفاهيم المستخدمة بواسطة اجراءات ، أى دلائل تجريبية أو عددية تمثل الظواهر الاجتماعية . وتساعد هذه الاجراءات على توضيح المعنى العلمى للمفهوم . وكمثال على ذلك تعريف الذكاء بواسطة اختبارات الذكاء . ومن هنا يتضح لنا أن التعريفات غير الاجرائية تفتقر الى الدقة العلمية .

(18) G. Homans. The nature of Social Science New York, Harcourt Brace & World 1967, p. 28 - 31.

(19) Homans. Ibid. p. 105.

والنظريات على غرار الموجود فى العلوم الطبيعية ٠ ويظهـر بالتـالى الاتجاهين التقليديين : أن السلوك الانسـانى لا يمكن تقديمه فى ضـــوء قوانين ولابد للتفسير أن يأخـذ شـكلا آخر او أن العلوم الاجتماعية توازى العلوم الطبيعية فى مناهجها التفسـيرية ٠ ومهما كان شكل الخلاف فان التفســير يعتبر ضرورة سواء أخذ الشكل الموجود فى العلوم الطبيعية او رسم لنفســه طريقا آخر ٠

ومما لا شك فيه انه قد أصبح هناك مجموعة من العلوم الانسانية تقل فيها بالتدريج مســاحة الأرض المتروكة للتفســيرات الحرة التى يدور حولها الخلاف بين المدارس العلمية والمذاهب المتعددة ، واخذ يتســـع بالتالى مجال الحقائق العلمية التى تتسم بقدر معقول من اليقين ، والتى تتخلص من الخلافات بين وجهات النظر المتباينة ، كما أخذ يظهر بالتدريج حد ادنى ذو طابع علمى لا مجال للخلاف عليه ، وهذا الحد الأدنى قابل للاتســاع باطراد بحيث يكون فى النهاية قاعدة عريضــة لهــذه العلوم(٢٠) ٠

ثانيا : شروط التفســير :

ان هناك مجموعة من المبادىء العامة تعتبر ضرورية ولازمـــة للوصول الى تفســير علمى ســليم ٠ ولا تزال هذه المبادىء محل خلاف حول مدى صلاحيتها للتطبيق فى مجال العلوم الاجتماعية فالتفســير قد استقر من حيث الشــكل فى أغلب العلوم الطبيعية بينما الخلاف لازال دائرا فى مجال مجموعة العلوم الاجتماعية حول شــكل التفسير ، وهل من الضرورى أن يحاكى ما هو موجود فى العلوم الطبيعية أم يتخــذ نماذج خاصة به ٠ ولمــا كانت المشــكلة لم تحسم ســواء بين العلمــاء

---

(٢٠) د٠ فؤاد زكريا : دور الدراسات الانسانية فى عصر العلم والتكنولوجيا ، الطليعة ، السنة العاشرة ، ابريل ١٩٧٤ ، ص ١٨٩

الاجتماعيين أو بين فلاسـفة العلم والمنهجيين فان دورنا هو عرض الآراء المختلفة مما سـوف يساعدنا على التعرف على مدى التقدم الذى تحقق فى هذا الاتجاه ٠

وسوف نخصص هذا الجزء للحديث عن الشروط التى تصلح ـ فى راى البعض ـ لاقامة تفسـير سليم سـواء فى العلم الطبيعية أو فى العلوم الاجتماعية ٠ وقبل الدخول فى تفاصيل هذا العرض يهمنا أن نطلع على بعض الآراء التى تقول بصلاحية المبادىء العامة للتطبيق على مجموعتى العلوم الطبيعية والاجتماعية على السواء ٠

لقد وضع همبل واوبنهايم مجموعة شروط للتفسـير السليم تنطبق على العلوم الطبيعية كما تنطبق خارج ذلك المجال ففى رأيهما أن كثيرا من السلوك الحيوانى والبشرى الذى يحدث فى المعمل يفسر فى علم النفس بالرجوع الى قوانين أو نظريات عامة للتعلم أو التشريط conditioning واذا كان التكرار لا يحدث بنفس الدقة والتعميم الموجود فى علم الكيمياء أو الفيزياء الا أن الطابع العام لتلك التفسيرات يتمشى مع خصائص التفسير العلمى ٠ ويناقش الفيلسوفان الآراء التى ترفض وجود نموذج التفسـير السببى فى العلوم الاجتماعية مبينين أنها تقوم على مبررات غير سليمة ٠ فالمبرر الأول على رفض نموذج التفسـير السببى يستند الى القول بأن الأحداث التى تتضمن أنشطة البشر جماعات أم منفردين لها طابع فريد وغير متكرر ٠ وهذا يجعلها ـ الأحداث ـ لا تخضـع للتفسـير السببى على أسـاس أن التفسـير يفترض التكرار فى الظاهرة المعينة ، الا أن هـذا المبرر الذى يرفض حتى تطبيق المناهج العلمية فى العلوم الاجتماعية وعلم النفس ينطوى على عدم فهم الطابع المنطقى للتفسـير السببى ٠ ان كل حدث سـواء فى العلم الطبيعية أو فى العلوم الاجتماعية فريد اى أنه فى خصائصه الدقيقة لا يتكرر ٠ ومن الممكن أن تفسر الحوادث الفردية بواسـطة القوانين العـامة ذات الطـابع

السببى . فالقانون السببى يؤكد على ان اى حادث ذى طابع معين يكون مصاحبا لحادث آخر له ايضا خصائص محددة . وكل ما نحتاجه لاختبار وتطبيق هذه القوانين هو تكرار الأحداث ذات الخصائص السابقة اى تكرار الخصائص وليس شواهدها الفردية .

ويستند المبرر الثانى الرافض للنموذج السببى على القول باستحالة اقامة تعميمات علمية اى مبادىء مفسرة للسلوك الانسانى على اساس ان استجابات الفرد فى ظروف ما لا تعتمد على الظرف نفسه فقط وانما على التاريخ السابق للفرد . غير ان هذا القول ليس له معنى فلا يوجد ما يمنع التعميمات فى ان تضع فى اعتبارها ارتباط السلوك بالتاريخ السابق للفرد(٢١) .

واذا قيل كمبرر ثالث أن تفسير ظواهر السلوك السببى يتطلب الرجوع الى بواعث وبالتالى يحتاج الى تحليل غائى teleological وليس سببى فان هذا لا يجافى الحقيقة كلية فكثير من التفسيرات الخاصة بالأفعال الانسانية فيها اشارة الى اهداف وبواعث ولكن هذا لا يجعلها مختلفة عن التفسيرات السببية فى الكيمياء والطبيعة . هناك فارق واحد فقط هو ان المستقبل يبدو كأنه يؤثر فى السلوك القائم على الباعث بطريقة غير موجودة فى العلوم الطبيعية . الا انه من الواضح فى حالة وجود باعث يوجه السلوك الى هدف معين ان هذا لا يعنى أن الحدث المستقبل الذى لم يتحقق هو الذى يحدد السلوك الحالى لأن من المحتمل الا يتحقق الهدف على الاطلاق . ونستطيع ان نعبر عن ذلك بطريقة

---

(21) C. G. Hampel & p. Oppenheim : The logic of Explanation in H. Feigl & M. Brodeck (eds.) Readings in the Philosophy of Soience. New York : Appleton - Century - Corfts Inc. 1953 p. 325 - 326.

اخرى فنقول أن كل من (ا) وهى رغبة الانسان الموجودة قبل الفعل ـ فى الوصول الى الهدف المعين و (ب) وهى اعتقاده ـ الموجود أيضا قبل الفعل ـ يحددان الفعل ذاته . ان الدوافع والمعتقدات المحددة قبل الفعل تصنف باعتبارها شروطا سابقة للتفسير القائم على الباعث ولا يوجد فارق منهجى بين التفسير القائم على الباعث والتفسير السببى فى هذا الصدد . وكون الدوافع غير خاضعة للملاحظة لا يعنى اختلافا أساسيا بين نوعى التفسير لأن كثيرا ما تكون العوامل المحددة فى التفسير الطبيعى غير خاضعة للملاحظة . ان الخطر المحتمل وقوعه فى التفسير القائم على الباعث هو أن المنهج قد يقوم ببناء تصورات لا تملك قدرة تنبؤية فيفسر الفعل عن طريق نسبه الى بواعث يتصور تأثيرها بعد أن وقع الفعل فعلا . وهذا الاجراء يحتاج لكى يكون صالحا الى الخطوات التالية :

١ ـ أن تقبل الافتراضات القائمة على البواعث الاختبار .

٢ ـ وأن تتوافر القوانين العامة الملائمة لتعطى قوة تفسيرية للبواعث المفترضة . وأحيانا يعتبر تفسير الأفعال عن طريق ردها الى البواعث نوعا خاصا من التفسير الغائى . الا أننا رأينا انه اذا صيغ التفسير القائم على الباعث بطريقة سليمة فانه سوف يتفق مع شروط التفسير السببى ويكون التعبير « غائى » غير مناسب اذا قصد به الطابع غير السببى للتفسير أو تحديد الحاضر بواسطة المستقبل . ومن الممكن عندئذ أن ننظر الى تعبير « غائى » باعتباره يشير الى تفسيرات سببية بعض شروطها السابقة عبارة عن بواعث الفاعل agent الذى نفسر أفعاله(٢٢) .

ويرى ريكر أن التفسيرات العلمية لها بداية فى اطراد الطبيعة ـ

(22) Ibid. p. 327 - 328.

ويعنى بها الطبيعة كلها متضمنة الانسان وافعاله . فالعلم يسعى الى تفسير كل من الأحداث الطبيعية الواقعية المحددة . والقوانين المجردة abstract التى تتعامل معها أثناء تفسيرها للأحداث المعينة . ان النموذج الأسامى هو نموذج واحد - فى رأيه - أن الأحداث تفسر عن طريق اخضاعها تحت تعميمات أو قوانين ، وهذه القوانين تفسر عن طريق اخضاعها تحت قوانين أخرى أكثر اتساعا . فالتفسير العلمى يعتبر علميا عن طريق :

١ - موضوعه : وهو يركز على شيئين : ما يحدث فى الطبيعة (الأحداث الواقعية المحددة) ، ثم الملامح العامة للأحداث الطبيعية (القوانين التى تحكمها) .

٢ - منهجه : وهو عبارة عن اخضاع الوقائع التى تحتاج الى تفسير تحت قوانين سبق اختبارها وتأكيدها .

ان تفسير واقعة علميا ليس الا تقييم للأسباب التى تبين لماذا وجدت هذه الواقعة بالذات دون غيرها من الوقائع البديلة . وهذا يحتاج الى الذهاب أبعد من مجرد اثبات وجود الواقعة الى بيان أنها ضرورية ولا يمكن تفادى وقوعها ، أو انها على الأقل محتملة « ومنتظر حدوثها » . ولكن من أين تحصل التفسيرات على هذا المظهر الضرورى - أو على الأقل المحتمل - والاجابة هو من مصدر واحد هو استخدام القوانين . لقد رأينا أن التفسير العلمى ينشأ من الخضوع لقوانين أى عن طريق وضع الشىء المحتاج الى تفسير باعتباره حالة خاصة فى اطار من التعميمات تذكر كيف تعمل الأشياء فى نطاق معين من الظواهر(٢٣) .

(أ) المطلب المنطقى للتفسير :

لا شك أن التفسير باعتباره عملية منهجية هامة له شروط لا بد

(23) Rescher. Op. cit. p. 8 - 11 .

أن تراعى للوصول الى التفسـير السليم ٠ ويعتبر المطلب المنطقى أحد الشروط الهامة التى فى ضوئها يكون للتفسير الشكل المعين الذى يقدم به فى العلوم ٠ ولمـا كان الشكل الاستنباطى أحد الاشكال البارزة التى يقدم بها التفسير خاصـة فى العلوم الطبيعية فقـد دار حوله النقاش ٠ هل يجب أن يكون لكل تفسير الشكل الاستنباطى ؟ أى هل هو ضرورة sine que non لكل التفسيرات ، وهل يفشل التفسير اذا فشلنا فى استنباط الحدث الذى نفسره من التفسير ذاته ؟ هناك حلين : الموقف الأول أن نقول انه من الممكن التخلص من النموذج كلية ، من الممكن أن نقول أنه كثيرا ما تستنبط الجملة المحتاجة الى تفسير من التفسير ذاته ولكن لا يمثل هذا أساسـا للتفسير ٠ وقد نضيف أن الاسـتنباط طريقة لتبرير تفسير نكون قد قدمناه ، الا أن اعطاء تفسير سليم لا يعتمد على ذلك ٠ والحل الثانى أن نصر على أن التفسير الكامل يتضـمن الاستنباط ، الا أن ما نقدمه فى العادة اقل من تفسير كامل ٠ ففى الواقع أن الطريقة الوحيدة للتاكد من التفسير ، لا تكون الا باستنباط الظاهرة من مقدمات نعلم مقدما انها صادقة ٠ ويتكرر نفس السؤال بالنسبة للقانون هل الاستنباط ضرورة ، لا شك أنه فى حالات دقيقة يحدث هذا : مثال قوانين حركة الاجرام لكبلر ، فمن الممكن استنباطها من قوانين نيوتن للحركة مع قانون الجاذبية ، والأخير يفسر السـابق ٠ ولكن هل هذا مطلب ضرورى لكل تفسير للقوانين ؟ البعض قـد يقول نعم ، ويعتبر أى قصـور فى هذا الاتجاه ليس بتفسير ، وآخرون يرون أنه غير ضرورى ، وأن الحالة الاستنباطية هى حالة مثالية ولكن التفسير لا يحتاجهـا : فمثلا يمكن تفسير القانون فى ضوء نظرية عامة جدا لا يستنبط القانون مباشرة منها ولكن تعتبر النظرية تفسير لهذا القانون ٠ وقد يرد الشخص المقتنع بالاستنباط أن من غير المعروف اذا كانت هذه النظرية تعتبر تفسيرا الا بعد الاختبار أى بعد أن يحدث الاستنباط(٢٤) ٠

---

(24) Hospers, p. 105 - 106.

ويرى كل من همبل واوبنهايم أن الاستنباط هو الشكل الأساسى للتفسير العلمى . فالتفسير مكون من جزئين رئيسيين :

الأول : هو عبارة عن تقرير اوجملة تصف الظاهرة التى تحتاج الى تفسير وتسمى واقعة مفسرة أو واقعة محتاجةالىتفسير explanandum

الثانى : هو مجموعة الجمل المقدمة للتعبير عن الظاهرة وتسمى تقرير تفسيرى أو مقدمات مفسرة explanans (*)

ويقع التقرير التفسيرى فى فئتين فرعيتين : واحدة تحوى الجمل التى تذكر شروط سابقة محددة ، والأخرى مجموعة جمل تمثل قوانين عامة . ولابد لكى يكون التفسير سليما ان تتوافر مجموعة شروط منطقية :

١ ــ ان تكون القضية الأولى أو الواقعة المحتاجة الى تفسير explanandum نتيجة منطقية أى من الممكن ان تستنبط منطقيا من المعلومات المتضمنة فى التقرير التفسيرى explanans . وخلاف هذا الوضع لا يمثل أساسا صالحا للتفسير .

٢ ــ لابد أن تحتوى المقدمات المفسرة explanans على قوانين عامة وتعتبر ضرورية لاستخلاص الواقعة explanandum

٣ ــ لابد أن تكون للمقدمات المفسرة explanans محتوى تجريبى أى أن تكون قابلة للاختبار عن طريق التجربة والملاحظة .

(*) اطلقنا اسم « واقعة مفسرة » أو واقعة محتاجة الى تفسير » على التعبير explanandum واسم « تقرير تفسيرى » أو « مقدمات مفسرة » على التعبير explanans

٤ ـ لابد ان تكون الجمل المكونة للمقدمات المفسرة explanans صادقة true • وهذا شرط أو مطلب تجريبى اكثر منه منطقى(٢٥) •

ويضيف يولتون مطلبين للتفسير العلمى السليم وهما :

١ ـ ان تكون المقدمات المفسرة متسقة مع ذاتها self - consistent

٢ ـ أن تبسط ما سوف نقبله أى تقلل من عدد القوانين غير المستنبطة undeduced Laws

استنباط منطقى	ش١ ، ش٢ ••• ش٢ شروط اولية أو تقريرات عن شروط سابقة ن١ ، ن٢ ••• قن قوانين عامة	مقدمات مفسرة
	وصف للظاهرة التجريبية المحتاجة الى تفسير	واقعة مفسرة أو واقعة محتاجة الى تفسير explanandum واحيانا تسمى explicandum

ويضف هوسبر مطلبا جديدا هو ضرورة ان يشمل التفسير ظواهر اخرى غير التى وضع لتفسيرها أى انه يجب أن يفسر احداثا اخرى (سواء ماضية او حاضرة أو مستقبلة) ولكن يجب أن يخضع للملاحظات التجريبية ، اى ان يقبل الاختبار ، وبدون هذا الشرط لا نستطيع اعتباره تفسيرا فى اى علم من العلوم • وفى الواقع أن هذا الشرط متضمن فى

(25) Hempel & Oppenheim, op. cit p. 321.

(29) John W. Yolton Explanation Op. Cit. p. 197.

المطلب الذى يقول ان التفسير يجب ان يحدث فى ضوء قانون او قوانين ٠ فالقانون قضية عامة عن كل الأحداث فى مجمو عقما ، واذا كان صالحا بالنسبة لـ (ا) وهو احد اعضاء الطائفة (حدث حاضر) فهو صالح ايضا بالنسبة لـ (ب ، جـ ، د) ، (احداث مستقبلة) ، وطبيعة القانون ذاته انه يفسر اكثر من حدث واحد ، واختبار التفسيرات واضح فى مفهوم القانون ، فالقانون تقرير تجريبى لا طراد فى الطبيعة وباعتباره عارضا فهو يخضع للرفض عن طريق الملاحظة ٠ وعلى الرغم من ذلك فانه دائما من المفيد ان نجعل ما هو مفهوم ضمنا واضحا لبيان كيف ان المطلب الاستنباطى غير كاف ثم لبيان ما هو المطلب الخاص بالتفسير ٠ ان الشرط الثانى الضرورى للتفسير (الأول : المطلب الاستنباطى) هو قدرة التفسير على تغطية مجموعة كبيرة من الظواهر الأخرى بخلاف الظواهر التى استدعت التفسير(٢٧) ٠

ويرى ناجل أن هناك شروط للنمط الاستنباطى للتفسير تصنف تحت ثلاث عناوين : منطقية logical وتحدد المتطلبات الشكلية للمقدمات المفسرة ، ومعرفية epistemic وتشترط العلاقات المعرفية التى يؤخذ بها فى المقدمات ، واخيرا واقعية أو مادية subsantive وتوصى بنوعية المحتوى (تجريبى أو خلافه) الذى يجب أن تحويه المقدمات(٢٨) ٠

بالنسبة لتفسيرات الأحداث الفردية individual events فان المقدمات لابد أن تحوى على قانون عام واحد أو عددا من التقريرات الفريدة التى تؤكد أن احداث معينة وقعت فى أوقات وأماكن محددة أو أن موضوعات معينة لها خصائص محددة ٠ هذه التقريرات الفريدة سوف يشار اليها على انها « تقريرات الشروط الأولية statements of initial conditions أو باختصار (الشروط الأولية) ٠ وتعتبر

(27) Hospers. Op. cit. p. 108.

(28) Nagel. Op. cit. p. 29 - 30.

الشروط الأولية بشكل عام هى الظروف الخاصة التى تنطبق عليها القوانين المتضمنة فى المقدمات المفسرة . الا انه ليس من الممكن أن نذكر فى عبارات عامة أى الظروف سوف تختار لتكون الشروط الأولية لأن هذا يتوقف على المضمون الخاص للقوانين المستخدمة كما يتوقف على المشكلات الخاصة التى وضعت تلك القوانين لحلها . وكثيرا ما يكون من الصعب استخدام القوانين والنظريات لمجرد أن الشروط الأولية اللازمة لتطبيقها صعبة الوصول اليها وبالتالى غير معروفة . ان التفسير الاستنباطى العلمى الذى يقوم بتفسير حدوث حدث ما أو امتلاك شىء ما لخاصية معينة يجب أن يتفق مع شرطين منطقيين : أن تحوى المقدمات قانونا واحدا على الأقل يكون وجوده فى المقدمات ضروريا من أجل استنباط الواقعة التى نفسرها explicandum كما يجب أن تحوى المقدمات عددا مناسبا من الشروط الأولية initial conditions .

بالنسبة لتفسير القوانين فان هناك مطلب منطقى معقول وهو أن تحتوى الافتراضات المفسرة على الأقل على مقدمتين مستقلتين formally independent premises . ومن الواضح اننا نريد فى التفسير السليم ان نؤكد المقدمات على شىء أكثر مما هو مؤكد فى الواقعة المحتاجة الى تفسير أى يجب أن تكون مقدمة واحدة على الأقل قادرة على تفسير قوانين أخرى عند ربطها بافتراضات اضافية مناسبة . ومن جهة أخرى يجب أن يكون واضحا عدم امكان تفسير تلك المقدمة بمساعدة القانون الذى تقوم بتفسيره ، حتى لو أضيف الافتراضات الاضافية الى القانون . وهناك مطلب اضافى فى التفسيرات الصالحة للقوانين وهو أن تكون أى واحدة من المقدمات « أكثر عمومية » من القانون الذى تفسره . فمثلا قانون أرشميدس أكثر عمومية من القانون « الثلج يعوم على سطح الماء » لأن قانون ارشميدس يؤكد على شىء خاص بالسوائل جميعا وليس سائل معين . وكثيرا ما يقال أن الفيزياء علم أعم من البيولوجيا أو أن قانون الروافع أكثر عمومية من قانون الوراثة .

والمقصود بذلك هو أن الظاهرة البيولوجية ممكنة التفسير على أسس قوانين الفيزياء وليس العكس(٢٩) ·

ان عملية التفسير تمضى فى اتجاه واحد دون غيره فى سياق من القضايا المكونة للنمط الاستنباطى ، فاذا كانت القضية التى تفسر تستنبط من القضايا العامة فى ظروف معينة فان القضايا العامة لا يمكن بدورها أن تستنبط من أخرى فى نفس السياق · قد تتحول القضايا العامة الى وقائع تحتاج الى تفسير explicanda ، ولكن هذا يحدث فى نظام استنباطى آخر يحتوى على مزيد من القضايا العامة · ونلاحظ اننا كلما تقدمنا نحو مزيد من القضايا العامة كلما اسرعنا فى الوصول فى وقت ما من تاريخ العلم الى قضايا لا يمكن تفسيرها · ولكن هذه الحالة لا يمكن ان تستمر الى الأبد (مثلا قانون المغناطيسية عند نيوتن ظل غير مفسر لمدة مائتى عام الا نه من الممكن الآن بيان أنه يتبع نظرية النسبية عند اينشتاين) · وهنا يستعمل العلماء كلمة « نظرية » بمعنى واســـع لتعنى مجموعة تفسيرات لظواهر مرتبطة(٣٠) ·

(ب) المتطلبات المعرفية للتفســـير :

بالاضافة الى الشروط المنطقية السابقة هنـــاك متطلبات معرفية epistemic للتفسيرات السليمة · ان أرسطو يرى ان المقـدمات فى التفسير الاستنباطى لابد بالاضافة الى اشياء أخرى أن تكون صادقة أى لا بد أن تكون معروفة الصحة ولا بد أن تكون معروفة اكثر من الواقعة المحتاجة الى تفسير(*) ·

---

(29) Ibid. p. 30 - 40.

(30) Homans, op. cit. p. 25 - 26.

(*) ذكرنا هذا الشرط فى الشروط التى وضعها كل من همبـل واوبنهايم ·

واذا طبقنا مطلب ارسطو (ان المقدمات لا بد أن تكون معروفة الصدق) فان قلة من تفسيرات العلم الحديث سوف تقبل باعتبارها صالحة . وذلك لأننا لا نعلم ما اذا كانت المقدمات المفترضة فى تفسيرات العلوم التجريبية هى حقا صادقة أم لا ؟ وهكذا سوف نستبعد كثيرا من التفسيرات باعتبارها غير صالحة ، لذلك لا داعى لقبول المتطلبات الأرسطية للحكم على صدق التفسيرات . ولكن هناك مطلب ضرورى يخفى الحالة المعرفية للمقدمات المفسرة وهو ان تكون المقدمات المفسرة صالحة لاقامة حقائق تجريبية وتكون ايضا مؤيدة adequately supported او ممكنة made probable عن طريق اثبات قائم على المعلومات المتوفرة وليس عن طريق المادة الملاحظة التى يقوم عليها قبولنا للواقعة المحتاجة الى تفسير(٣١) .

ان الفسير الحالى actual لا بد أن يتفق ليس فقط مع المطلب الشكلى فى أن تكون المقدمات المفسرة ـ اذا اعتبرت فروضا ـ قادرة على جعل النتيجة التفسيرية مؤكدة او محتملة ، وانما لا بد أيضا للتفسير الحالى ان يتفق مع المطلب المادى فى ان تكون تلك المقدمات مؤكدة للواقعة fact-asserting (باعتبارها صادقة أو ذات احتمال مرتفع) وان تكون المقدمات العامة مؤكدة للقانون law assesting وتمثل تعميمات قد اتخذت بعد تاكيد كافى لشكل القانون(٣٢) .

واذا كانت كثير من التفسيرات السببية فى العلوم الطبيعية تتسق مع نموذج التفسير الاستنباطى الا أننا نجد انه كلما تعقد موقف يحتوى على متغيرات تحتاج الى تفسير مثل تطبيق القوانين البسيطة الدقيقة التى تنطبق فى العادة على مواقف مبسطة ومثالية ، **نفضل اعتبار التفسير** الاحتمالى Probabilistic explanation أفضل تفسير ممكن بالنسبة

(31) Nagel . op. cit. p. 42 - 43.

(32) Rescher. op. cit. p. 19.

لموضوعات الدراسة المعقدة سواء كانت طبيعية أم اجتماعية • وذلك حتى، لا تثبط عزيمة علماء النفس والاجتماع للاعتقاد فى أن التفســـير العلمى الوحيد هو التفسير الاستنباطى • الا أنه ينبغى التمييز بين التفســـير الاحتمالى بمعنى قوانين تعبر عن ميول tendency laws وبين التفسير الاحصائى باعتباره يحتوى تضمنيات محتملة رقميا numerical probability implications ولا بد أن نسجل أن التفسير الاحصائى مثل التفسير السببى يجب ان يحتوى على تعميم بمثابة قانون law like generalizations اما كمقدمة أو كمبدأ تبريرى(٣٣) •

ويعنى التفسير الاحصائى باستخدام قانون واحد أو مبدأ منهجى واحد • وهناك نوعان من التفسيرات الاحصائية مختلفان منطقيا :

الأول : هو عبارة عن خضوع استنباطى لاطراد احصائى محدود تحت اطراد أكثر وضوحا : وسمى هذا النوع التفسير الاحصائى الاستنباطى deductive statistical explanation •

والنوع الآخر : هو عبـــارة عن خضوع حـــدث معين تحت قوانين احصائية بطريقة غير استنباطية ويسمى التفســـير الاحصائى الاستقرائى inductive statistical explanation ويتضمن التفسير الاحصائى الاستنباطى استنباطا لتقرير على شكل قانون احصائى من مقدمات تحتوى بالضرورة على قانون واحد أو مبدأ منهجى له شكل احصائى على الأقل • ويتم الاستنباط بواســـطة النظرية الرياضـــية للاحتمال الاحصائى mathematical theory of statistical probability .
هـــذه النظرية تجعل من الممكن حســـاب بعض الاحتمالات الموجودة فى

---

(33) Arthur Pap. An Introduction to the Philosophy of Science. London : Eyre & Spottis woods. 1963. p. 345 - 546 .

الواقعة المفسرة على اساس احتمالات اخرى مذكورة فى المقدمات المفسرة سبق ان تاكدت تجريبيا او مسلم بها فرضا(٣٤) ٠

ان كثير من التفسيرات فى النظام العلمى ليست بالشكل الاستنباطى لان المقدمات المفسرة لا تكشف عن الوقائع المحتاجة الى تفسير الا انه على الرغم من كون تلك المقترحات غير كافية منطقيا لتضمن صـــدق الوقائع الا انها تكفى لتجعلها محتملة ٠

ان التفسيرات الاحتمالية توجد عنـــدما تحوى المقدمات المفسرة افتراضا احصائيا عن مجموعة معينة من العناصر بينما الواقعة المحتاجة الى تفسير هى تقرير متميز singular عن عضو فردى ينتمى الى تلك المجموعة ٠ ومن المهم الا نخلط بين شيئين الأول هو مدى صحة مقدمات التفسير والثانى هو التفسير ذو الصورة الاحتمالية فقد تكون الافتراضات العامة المتضمنة فى المقدمات معروفة الصحة وكل افتراض مع ذلك « محتمل » وهذا لا يقضى على التمييز بين الشكل الاستنباطى والشكل الاحتمالى للتفسير لان التمييز يقوم على الاختلافات فى الطريقة التى ترتبط بها المقدمات بالوقائع المحتاجة الى تفســير ولا يقوم على الاختلافات المتصورة فى ادراكنا للمقدمات(٣٥) ٠

وتقوم التفسيرات المحتملة على قوانين احصائية وليست عامة ٠ ونلاحظ فى حـالة استخدام القوانين غير العـامة ان هيكل التفســـير schema of explanation لا يتغير عما هو عليـه فى حالة استخدام القوانين العامة ٠ فالتفسير يعتبر مقبولا اذا نجح فى جعل الواقعة المحتاجة

(34) C. G. Hempel. Aspects of scientific Explanation New York : The Free Press, 1965 . pp. 380 - 381.

(35) Nagel op. cit. pp. 22 - 23.

الى تفسير صادقة الى درجة كبيرة ، وذلك على الرغم من غياب المنطقى للفرض(٣٦) ٠

وسواء كان التفسير ذا شكل استنباطى او احتمالى فلا بد للتفسير السليم أن يقوم بأربع وظائف :

١ ـ يجب ان يوضح العلاقة او انواع العلاقات التى لابد أن توجد بين الواقعة المفسرة والمقدمات المفسرة ، بين الـ explanandum والـ explanans .

٢ ـ يجب ان يقدم (على الأقل بشكل عام) الاعتبارات التى تؤثر على دقة وقوة التفسيرات وتصلح فى نفس الوقت للتمييز بين التفسيرات القوية والضعيفة ٠

٣ ـ يجب أن يتيح :

(أ) وسائل للتمييز بين الأشكال المختلفة للتفسير ٠

(ب) فروق بين التفسيرات المختلفة ٠

(جـ) طريقة لتصنيف التفسيرات ٠

٤ ـ يجب أن يوضح مكانة التفسير ـ وخاصة التفسير العلمى ـ بالنسبة للنسق العلمى للأشياء ، مبينا مجاله وحدوده وعلاقاته بالعمليات المعرفية الأخرى مثل التنبؤ ومحددا دوره الخاص من خلال المشروع الكلى للفهم العلمى(٣٧) ٠

---

(36) Rescher op. cit. p. 175.

(37) Rescher . op. cit. p. 4.

وتصنف التفسيرات فى ضوء مجموعة مختلفة من المبادىء فهناك :

(ا) تصنيف حسب نوع السؤال الذى تضعه الواقعة المحتاجة الى تفسير explanandum وعلى هذا الأساس نجد التفسيرات توضح كيف نقوم بالفعل (التفسيرات العملية) ، وتفسيرات توضح شكل الشىء أو كيف يعمل (التفسيرات الوضعية) ، وتفسيرات توضح لماذا حدثت واقعة بالذات (التفسيرات النظرية theoretical) .

(ب) تصنيف حسب نوع الموضوعات الموجودة فى الواقعة المحتاجة الى تفسير explanandum واهمها الأحداث المعينة التى قد تصنف بدورها باعتبارها احداثا طبيعية تحدث فى الطبيعة غير الحية أو افعالا انسانية أو قد تكون مجموعة عن الموضوعات (مثل هجرة قبيلة ....) أو قد تكون أشكالا من الاطرادات فى الطبيعة أو فى المجالات الانسانية .

(جـ) تصنيف حسب العملية التصويرية conceptual machinery المستخدمة فى المقدمات المفسرة explanans . ومن اهم انواع التفسير هو التفسير السببى للأحداث ، وتنقسم هذه الفئة الى فئات أخرى اصغر مثل التفسيرات الكيميائية أو التفسيرات الميكانيكية أو التفسيرات النيروفسيولوجية neurophysiological وهناك نوع آخر هو التفسيرات الدافعية motivational للأفعال الانسانية اما فى ضوء الأسباب أو فى ضوء الدوافع .

(د) تصنيف حسب قوة الرابطة التفسيرية بين الواقعة المحتاجة الى تفسير والمقدمات المفسرة ونميز هنا بين تفسيرات استنباطية حيث تتبع الواقعة المفسرة المقدمات باعتبارها نتيجة منطقية وتفسيرات احتمالية حيث تكون المعلومات الموجودة فى المقدمات كافية فقط لكى تجعل الواقعة المفسرة احتمالية اكثر منها مؤكدة فرضا hypothetcically carta'n

ومن العرض السابق نتبين أن التفسيرات لا بد ان يكون لها الخصائص التـالية :

١ ــ انها تضع السؤال « لمـاذا » وهو سؤال يبغى البحث عن سبب وليس مجرد سؤال وصفى عن ما هو what او متى when أو أين where أو كيف how .

٢ ــ ان هذه التفسـيرات تتعامل مع احداث فى العـالم الطبيعى باعتبارها موضوعاتها ، او مع مجموعات من الأحداث أو مع اطرادات.

٣ ــ وباستثناء الواقعة العامة التى تقول ان التفسير هو عملية اندراج تحت قوانين فانه لا يوجد اى تحديدات تفرض على العملية التفسيرية .

٤ ــ ان قوة الرابطة التفسيرية التى تربط المقدمات المفسرة بالنتيجة قد تتغير كثيرا فى التفسير العلمى . فعلى الرغم من تفضيل التفسيرات الأقوى ــ أى الاستنباطية ــ فان العلم يعترف انه فى بعض السياقات لا يستطيع أن يصل الى هذا وبالتالى يكتفى بالتفسيرات الأقل قوة وهى التفسيرات الاحتمالية Probabilistic (٣٨) .

ثالثا : التفسير والعمليات المنهجية الأخرى :

(أ) التفسير والوصف :

ان التفسير والوصف عمليتان هامتان فى المنهج ، كما انهما ترتبطان فى أكثر من موقع فى العلم ، ولكن هل يعنى هذا انهما قابلتان للاندماج بحيث تغنى أيهما عن الأخرى ؟ وفى الواقع ان الآراء قد تعددت حول هذا الموضوع وتفرعت بين دمج للوصف والتفسير فى عملية واحدة وبين تمييز واضح وصريح بينهما يعطى للتفسير مكانة تفوق بكثير ما لمكانة الوصف من أهمية .

---

(38) Rescher. op. cit. p. 15 - 20.

ويرى أصحاب الاتجاه الأول أنه لا يوجد حد فاصل بين التفسير والوصف ، وعلى الرغم من أننا أحيانا نطلب الوصف وأحيانا التفسير الا ان الذى يحدث هو أن نفس العبارات تستخدم لتحقيق الهدفين . ومن الممكن مثلا أن يعتبر التعبير « ذهبت الى الصيدلى لأشترى دواء » وصفا، أى تقريرا لتحركاتى كاجابة عن السؤال « أين ذهبت ؟ » ومن الممكن أن يكون تفسيرا يوضح سبب تأخيرى فى الخارج(٣٩) ... فمن الصعب اذن فصل التفسير عن الوصف لأنه من الواضح فى المثال السابق أن العبارة تفسر وصولى فى ساعة متأخرة بسبب شرائى للدواء من الصيدلى وفى نفس الوقت تصف تحركاتى . وبالتالى فان وظيفة التقرير تعتمد على السؤال الذى يوجه الى . فاذا أخذنا مثالا من العلم فسوف نجد أن وصف ما يحدث فى تجربة كيمائية هو نفسه تفسير لما يحدث فيها . ومن هنا يكون من غير الممكن ــ حسب هذه االوجهة من النظر ــ ان نصنف المفاهيم باعتبارها وصفية أو تفسيرية بدون الرجوع الى سياق استخدامها(٤٠) .

ومن الخطأ الاعتقاد أن العلم يصف فقط ولا يفسر ، فعندما نقوم بالوصف فنحن أيضا نقوم بالتفسير : ان ذكر قوانين الطبيعة هو وصف لعمل الطبيعة وهذا لا يستبعد التفسير . وعندما نحاول الاجابة على السؤال : لماذا يضاء النور عندما نضغط على مفتاح الكهرباء ؟ فاننا نفسر بوصف ما يحدث ، أى أننا نفسر عن طريق الوصف(٤١) .

فاذا ما اتجهنا الى العلوم الاجتماعية فسوف نرى أن أصحاب هذا الرأى يتمسكون بكون الوصف والتفسير عملية واحدة . فاذا ما تناولنا كمثال السؤال : « لماذا يتزايد ادمان المخدرات فى المجتمعات

(39) Theobald op. cit. p. 39.

(40) Ibid. p. 40 .

(41) Hospers. op. cit. p. 118 .

المتقدمة » ؟ وكان جزء من الاجابة هو : « ان الرخاء الاقتصادى يتيح الفرص الاجتماعية والخلقية والمادية للفرار من البيئة التكنولوجية ، ويمثل تعاطى المخدرات احد طرق الفرار » ، فان هذه الاجابة تعتبر تفسيرا ، ولو انه يتصف بالبساطة . وفى نفس الوقت تعتبر هذه الاجابة ردا جزئيا عن السؤال : « ما هو ادمان المخدرات » ؟ وهو سؤال يحتاج الى تقرير وصفى للظاهرة . ومن هنا يسهل ان نلاحظ أن التقرير الوصفى لما يحدث ممكن أن يكون ببساطة تفسيرا لسبب حدوثه . ونستنتج من هذا أن الوضع فى العلوم الاجتماعية لا يختلف عنه فى العلوم الطبيعية : فلا يمكن تصنيف التقرير أو التصورات التى يحتويها باعتبارها وصفية فقط او تفسيرية فقط ، ويتوقف الأمر على السؤال المثار(٤٢) .

أما اصحاب الاتجاه الثانى فيرون أن التفسير عملية هامة تتجاوز مجرد الوصف . ذلك أن مجرد الوصف لا يعنى أكثر من ملاحظة وقائع وتجريب حوادث وظاهرات ، وتسجيلها ، ولكن لن نصل الى قانون علمى أو نظرية علمية بمجرد تسجيل ما يحدث ، لابد من تسجيلها والربط بينها وفهم الطريقة التى حدثت بها هذه الحادثة أو تلك . والربط والفهم انما هو تفسير(٤٣) . ان الوصف مهما كان مسهبا ليس بتفسير ، بل على العكس كلما وصفنا وقائع أكثر كلما تناقص تكوينها لأنماط(٤٤) .

وفى الواقع ان أول خطوة نحو معرفة الطبيعة تتمثل فى وصفها ويوازى هذا بناء الوقائع . وتتضح هذه العملية فى التعبير بواسطة الكلمات والرموز عن كيفية تكوين الوقائع الخاضعة للوصف من عناصر .

---

(42) Theobald op. cit. p. 43.

(٤٣) د. محمود زيدان : الاستقراء والمنهج العلمى ، بيروت ، مكتبة الجامعة الأمريكية ، ١٩٦٦ ، ص ١٤٩

(44) Agassi : Methological Individualism. In British Journal of Sociology Vol XI No 3 sept. 1960, pp. 244 - 270, p. 258.

ويتحدد كل عنصر من هذه العناصر بواسطة رمز مألوف أو متعارف عليه (وهو اسمها) . ولهذا الغرض لابد من بعض الاجراءات للتعرف على كل عنصر باعتباره منتميا الى فئة محددة وله رمز مناسب(٤٥) .

والخطوة التالية لمعرفة الطبيعة هى التفسير . ويتميز باحلال مجموعة مؤتلفة من الرموز التى استخدمت من قبل فى سياق آخر ، محل كل رمز (أو تصور) مستخدم فى وصف الطبيعة . وتمثل هذه العملية تقدما فى المعرفة ، فمثلا اذا وضعنا مكان كلمة « ماء » العبارة « انه خليط من الهيدروجين والأكسجين بنسبة ١ الى ٨ » ، فان هذه العبارة تنم عن كشف كيمائى . واذا انتقلنا من الحديث عن حرارة الجسم الى الحديث عن قوة الحركة energy of motion فى أصغر أجزائها فان هذا يعتبر تفسيرا فيزيائيا . وهكذا يكون من الممكن التنبوء بسلوك الأشياء ، كما يمكن استنباط السلوك الحالى من السلوك المعروف من قبل وهو الخاص بالأشياء التى تحددها التصورات المستخدمة فى التفسير . فاذا استطعنا تفسير الحرارة على أنها شكل من أشكال حركة بعض الجزئيات الصغيرة ، فاننا كنتيجة لذلك نستطيع ان ننسب كل ظواهر الحرارة الى خصائص الحركة غير المرئية للجزئيات الصغيرة . وبالتالى نستطيع أن نتنبىء بظواهر الحرارة التى كنا نجهل كل شىء عنها . ان التفسير ليس الا اكتشاف التشابه فى الأشياء غير المتشابهة the like in unlike أى الهوية فى الاختلاف وكلما قام التفسير برد الأنواع المختلفة الى مجال واحد فان هذه الأنواع تدرج كحالات خاصة فى هذا المجال . ونستطيع أن نقول ان التفسير هو تضمين للخاص داخل العام : فتفسر الحرارة والصوت اذا نظر اليهما على انهما حالات خاصة لحركة جزئيات فى غاية الصغر .

ويعتبر « الوصف العام » مرحلة تمهيدية وقد يطلق عليه اسم

---

(45) Ibid .

قانون ولكنه لا يمثل تفسيرات للعمليات التى يصفها . ويمكننا للوصول الى التفسير أن نوحد عددا من القوانين من نوع محدد فى قانون واحد ، ثم نعتبر هذا القانون حالة خاصة من قانون آخر ، وفى هذه الحالة فان نفس الصيغة سوف تصف عددا من العمليات . فجاليليو يفسر لماذا يقطع الجسم الساقط فى الفضاء مسافة معينة فى فترة محددة ، ونيوتن أيضا يفسر قانون جاليليو عندما يبين انه حالة خاصة لقانون الجاذبية ثم يأتى اينشتاين فيفسر قانون الجاذبية برده الى احد المبادىء العامة للقصور الذاتى . وتنتهى من هذا الى القول بأن تفسير الطبيعة يعنى وصفها بواسطة القوانين(٤٦) .

وهكذا نجد أن التفسير يتجاوز الوصف لأنه يستعين بالوصف بالاضافة الى القوانين لكى يصل الى تحقيق هدفه . ومن هنا يمثل التفسير الاضافة والتقدم فى العلم . ولا يختلف الوضع فى العلوم الاجتماعية كثيرا عن ما هو موجود فى العلوم الطبيعية من حيث الوضع بين الوصف والتفسير . وحتى لو تضمن الوصف الاجتماعى تفسيرات فهناك احتمال كبير أن نكون منهمكين فى بحث تاريخى وليس فى عمل علمى ذلك أن هدف العلم دائما هو تفسير ظاهرة أو حدث ما كنتيجة لتأثير قوانين عامة . ويضع العالم كهدف أبعد ربط وتفسير تلك القوانين بدورها بواسطة النظريات . أما المؤرخ فيهتم بالأحداث نفسها ، انه يرغب فى معرفة كيف اصبحت ما هى عليه فبينما يبحث العالم عن التشابهات بين الأحداث بقصد وضعها تحت تعميم واحد ، يقوم المؤرخ بتحديد الخصائص التى تحدد وتميز كل حدث عن غيره من الأحداث(٤٧) .

---

(46) M. Schlick. Description and Explanation. In p. Wiencr (ed.) Readings in Philosoply of science op. cit. p. 470.

(47) Brown op. cit. p. 27.

(ب) التفسير والتنبؤ :

ان اطلاق صفة العلمية على شكل ما من أشكال الدراسة يعنى أن لتلك الدراسة هدفا أساسيا هو تفسير الظواهر والتنبؤ بها . فمما لا شك فيه أن التفسير والتنبؤ عمليتان على درجة كبيرة من الأهمية فى البحث العلمى الا أن الخلاف قد دار حول موضوعات عدة خاصة بهما . وكان مما اثير حول هذا الموضوع : هل هناك بينهما تشابه أم اختلاف ؟ ، ارتباط أم انفصال ؟ ، بل لقد ذهب البعض الى مناقشة كون التنبؤ مفتقدا تماما فى العلوم الاجتماعية .

ويركز الذين يؤكدون على التشابه بين التفسير والتنبؤ على البناء المنطقى بالدرجة الأولى : فالبناء الصورى للتنبؤ هو نفسه بناء التفسير ، ففى الحالتين لدينا :

(ا) شروط مسبقة .

(ب) تقريرات عامة أو قوانين .

(جـ) نتائج مستنبطة من ا ، ب .

ونحن نقوم بتفسير حدث ما عن طريق بحث الشروط المسبقة ثم التسليم بالتقريرات العامة وتطبيقها . ونفس الشىء يحدث بالنسبة للتنبؤ فنحن نتنبأ بوقوع حادث فى المستقبل عن طريق استدلاله من الشروط المسبقة مع التقريرات العامة . يتوقف اذن الأمر على السؤال المثار : هل نريد أن نقوم بتفسير أم تنبؤ ؟ ويرد فيلسوف العلم « كارل بوبر » على هذا التساؤل : « فاذا كان موضوعنا هو ان نجد الشروط الأولية أو بعض القوانين العامة (أو كليهما) لكى نستنبط منها تكهنا أو تقديرا لما يحتمل أن يحدث ، فمعنى ذلك أننا بصدد البحث عن تفسير وتصبح الواقعة المحتاجة الى تفسير explicandum هى هذا

التكهن أو التقدير المعطى the given prognosis • أما اذا اعتبرنا الشروط الأولية والقوانين معطاة من قبل فلا تحتاج الى بحث وانما تستخدم من اجل استنباط التكهن أو التقدير من أجل الوصول الى معلومات جديدة ، فمعنى ذلك أننا بصدد القيام بتنبؤ(٤٨) • من هذا يتضح لنا اننا فى موقف التفسير نحاول أن نجد المقدمات الصادقة التى نستنبط منها النتيجة التى تم التحقق منها من قبل ، أما فى التنبؤ ، فاننا نتحقق من المقدمات قبل التحقق من النتيجة(٤٩) • ان الاختلاف الوحيد بين التفسير والتنبؤ اذن هو البعد الزمنى فبينما ينظر التنبؤ الى الأمام لما سوف يحدث ، ينظر التفسير الى الخلف ابتداء مما هو موجود حاليا وانتهاء بما حدث من قبل •

ويؤكد « همبل » ايضا على التشابه بين التفسير والتنبؤ ، فشروط قيام التفسير هى نفسها شروط قيام التنبؤ ، ولا يعتبر التفسير مقبولا الا اذا كانت مقدماته صالحة كأساس للتنبؤ بالظاهرة • ان هذه القدرة على التنبؤ هى التى تعطى للتفسير العلمى اهميته ، وبقدر استطاعتنا تفسير الحوادث التجريبية بقدر ما استطعنا الوصول الى الهدف الأساسى للبحث العلمى • ان تسجيل الظاهرة وحده غير كاف ولابد من التوصل الى تعميمات نظرية تسمح لنا بالتنبؤ بأحداث جديدة(٥٠) •

ويقيم بعض فلاسفة العلم الاختلاف بين التفسير والتنبؤ على أساس تباين القوة المنطقية لكل منهما • فبينما على التفسير أن يقوم بتقييم نتائجه عن طريق ابراز السبب القوى الذى دعى الى تفسير ظاهرة

---

(48) Popper Unity of Method in the Natural and Social Scienes op. cit. p. 35.

(49) Pap. op. cit. p. 344.

(50) Hempel and Oppenheim . The Logic of Explanation op. cit. p. 323.

بعينها دون ظاهرة اخرى بديلة ، فان نتائج التنبؤ لا تحتاج الى تقييم بهذا المعنى ويكفى امكان الاحتفاظ بهذه النتيجة دون اى بديل آخر مشابه . ويؤكد « ريكر » ضرورة ادراك اللاتماثل بين التفسير والتنبؤ من أجل اقامة منهج للتنبؤ ـ وهو ما أهمل طويلا من جانب فلاسفة العلم فى رايه . فلابد أذن من البحث عن امكانات العملية التنبؤية بصورة مستقلة عن عمليات التفسير(٥١) .

وقد لا يهتم البعض بالتشابه او الاختلاف بين التفسير والتنبؤ بقدر الاهتمام بتميز العمليتين . فمن الخطأ القول بأن التنبؤ هو نتاج ضرورى للتفسير لأنه كما يوجد تفسير مع تنبؤ فانه يوجد تفسير بدون تنبؤ بالاضافة الى وجود أمثلة لتنبؤ بدون تفسير . ذلك أن التنبؤ ما هو الا احد الوسائل لاقامة الفرض ، ولا يبدأ العلماء فى العادة بفروض وانما ينطلقون ابتداء من معلومات تحتاج الى تفسير ثم يلى ذلك صياغة الفروض كمحاولات لتفسير المعلومات .

ولا تقدم التفسيرات السليمة تنبؤات بالضرورة كما لا تعتبر كل التنبؤات تفسيرات سليمة . فقد يوجد التنبؤ دون وجود التفسير مثل قولنا : « سوف تشرف الشمس غدا » . وقد نقوم بتفسير حدث ما دون أن يعنى ذلك قدرتنا على التنبؤ بحدوثه حاليا أو حتى مستقبلا مثل العبارة : « اعتقد انى اصبت بالمرض بسبب تناولى لحما فاسدا » . ليس المطلوب اذن من التفسيرات ان تملك قدرة تنبؤية حتى تقبل كتفسيرات ونستطيع تفسير القوانين العلمية (عن طريق النظريات) بينما نعجز عن التنبؤ بها . فنقوم مثلا بتفسير القوانين الفنومنولوجية للديناميكا الحرارية بالرجوع الى الميكانيكا الاحصائية ، دون ان يتضمن هذا اى تنبؤ بها لأننا نعرف عنها ما يكفى منذ البداية . واحيانا نكون فى غاية الثقة من تفسيرنا ولكننا نعجز عن التنبؤ اعتمادا عليه ويرجع

---

(51) Rescher Scientific Explanation op. cit. p. 177 - 178.

ذلك الى اننا نحتاج لكى نتحدث عن زمن حدوث الشىء ، وما سوف يحدث (وهو ما يحتاجه التنبؤ) ، نحتاج الى قياس كمى quantification من نوع معين ، وهو ما لا يعتبر ضروريا فى بناء التفسيرات(٥٢) ٠

وكثيرا ما يثار موضوع عدم قدرة العلوم الاجتماعية على التنبؤ الدقيق بسبب تدخل القرارات البشرية التى لا يمكن التنبؤ بها بصورة حاسمة ٠ ويرجع عدم القدرة على التنبؤ بأفعال البشر بالدقة العلمية المطلوبة الى صعوبة قيامنا بتصور مقدم للظروف التى سيوجد فيها هؤلاء البشر ٠ وحتى اذا كنا بصدد مجموعة ظروف حاضرة فاننا لا نملك تأكيدا دقيقا وصادقا لطريقة تفكير أو احساس أو تصرفات البشر ٠ ولا يرجع ذلك الى ان طريقة الفرد فى التفكير أو الاحساس أو الفعل لا تعتمد على أسباب ، أو اننا نشك فى نقص المعلومات ٠ وانما يرجع الى أن الأفعال والمشاعر ليست مجرد نتيجة للظروف الحاضرة ولكنها نتيجة كل من الظروف الحاضرة وصفات الأفراد أنفسهم ٠ وتتأثر صفات الأفراد بمؤثرات عديدة ومتنوعة ، فكل ما حدث للفرد خلال حياته يملك هذا التأثير ٠ وحتى لو بلغت علومنا عن الطبيعة البشرية درجة الكمال من الناحية النظرية أى حتى اذا استطعنا أن نحدد الصفات البشرية من المعلومات المتوفرة كما نحدد مدار الكواكب ، حتى فى هذه الحالة ، فان المعلومات تفتقد التشابه بالنسبة للحالات المختلفة بالاضافة الى عدم توفرها بشكل كاف ٠ لذا فاننا نصل الى القول بأننا لا نستطيع القيام بتنبؤات ايجابية فى هذا المجال(٥١) ٠

ويحذر ريكر العالم الاجتماعى من الوقوع فى متاعب اذا حاول اثناء

---

(52) Theobald op. cit pp. 105 - 106.

(53) J.S. Mill on the Logic of the social sciences in Wiener (ed.) op. cit p. 29.

تفسيره لحدث ما ان يقوم بالتنبؤ بأحداث اخرى شبيهة . ذلك أن هذه الأحداث ، التى يحاول التنبؤ بها ، سوف تقع فى نسق غير معزول عن تأثير العوامل التى لا يستطيع تأكيدها مسبقا . فمثلا يستطيع عالم الفلك ان يعد تقويما almanac متعلقا بالملاحة أو السفن لأنه يستطيع التنبؤ بحركات الأجسام داخل نظام معزول عن اى تأثير خارجى . اما وزير مالية الحكومة البريطانية فلا يستطيع ان يعد تقويما اقتصاديا مماثلا . ذلك أننا لو فرضنا ان لديه معرفة كافية من اجل تفسير كامل لكافة مستويات الأسعار والانتاج والتصدير ورؤس الأموال ... الخ فان تنبؤاته للمستويات المستقبلة ستتأثر بعوامل غير متوقعة ، يحتمل ان تؤدى الى تأثيرات متراكمة تحول دون التنبؤ(٥٤) .

يتضح لنا مما سبق أن تدخل العامل البشرى فى العلوم الاجتماعية ليس قاصرا على الاجراءات السابقة على التنبؤ وانما يؤثر أيضا على الخطوات التالية لها . فقد تؤثر معرفة الناس بالتنبؤ على تصرفاتهم بحيث تجعل التنبؤات تحدث أو تمتنع عن الحدوث ، وفى الحالتين تنتفى الدقة العلمية .

ولكننا نسأل هل تفوق العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية فى هذا الصدد يرجع بالفعل الى العامل البشرى أم أن التفاوت يأتى من خطأ الوقوع فى المقارنة بين عالم المعمل الذى تؤخذ منه تنبؤات الأحداث الطبيعية وعالم الواقع الذى تجرى فيه أحداث بشرية . أليس من الاجحاف أن نقارن بين نسق معزول يمثل عالم المعمل ونسق مفتوح على التأثيرات المتنوعة ويمثل العالم الاجتماعى الواقعى . ألا يجوز اذا قارنا بين العالم الواقعى الذى تجرى فيه الأحداث الطبيعية بالعالم الواقعى للظواهر الاجتماعية ان نجد تساويا فى فرص التوصل الى تنبوءات ؟

---

(54) Watkins op. cit. p. 723 (footnote) .

ومما لا شك فيه ان التنبوءات الخاصة بواقع لا يمكن معالجته او تنظيمه قليــلا ما تصيب • ان عالم الأرصاد الجوية ـ وهو باحث فى المجال الطبيعى ـ يقضى وقتا صعبا فى الوصول الى تنبوء بالجــو لفترة أربعة وعشرين ســاعة قادمة ـ أو لمــدة يومين أو ثلاث • ذلك ان المتغيرات كثيرة ومتداخلة ومن الصعب الحصول على معلومات كاملة عن بعضها • أما العلماء الاقتصاديون فوضعهم افضل قليـــلا لأنهم يستطيعون التنبوء بالعمالة والدخل ، والتصدير وعائد الضرائب خلال ســتة اشــهر قادمة أو عام أو اثنين • واذا فشــلوا فلديهم أعذار قوية ، فقــد يرجع هذا الفشــل الى تدخل من جانب مؤسسات أو جماعات قوى تعمل على ابطال التنبوءات(٥٥) •

يتميز التفسير اذن عن التنبوء سواء من ناحية البناء المنطقى(٥٦) او مجموعة العوامل التى تتدخل فى طريق تحقيق كل منهما ، لذا فان التفسير هو عملية قائمة بذاتها تحتاج الى الدراسة المنفصلة وذلك سواء فى العلوم الطبيعية أو فى العلوم الاجتماعية •

(جـ) التفســير والتعميم :

ان الســير الطبيعى للعلوم يقوم على التوصل الى تعميمات تجريبية كنتيجة مباشرة للوصف ثم تفسير هذه التعميمات فى ضوء نظرية مقبولة • هذه التعميمات هى عبارة عن قوانين مثل قانون بويل فى مجال العلوم الطبيعية أو قانون العرض والطلب فى مجال العلوم الاجتماعية •

ومن الخطأ الخلط بين التفسير والقوانين أو التعميمات • فالقوانين والتعميمات لا تقوم وحدها بالتفسير ، فهى عبارة عن تلخيص لمــا ثم

(55) Machlup op . Cit . p . 173 .

(٥٦) نستطيع القول ان التنبوء يتضمن استبصارا لمــا يأتى ، بينما يشير التفسير الى تراجع بقصد التوصل الى الأسباب •

ملاحظته ، ان النظريات وحدها هى التى تتيح التفسير اى الفهم الكامل لـملاحظاتنا(٥٧) ٠

ويتضمن التفسير القول بانه لا يوجد قانون اولى اى لا يوجد قانون يعتبر مبدأ كل القوانين (ولا يسبقه شىء) ، وانما كل قانون يعتمد على قوانين سابقة ويؤدى بنا الى قوانين تالية ٠ ومن ثم نصـل الى النظرية العلمية ٠ فالنظرية العلمية هى مجموعة قوانين عامـــة يرتبط احدها بالآخر ارتباطا متسقا يعتمد بعضها على بعض وهى جميعا متعلقة بنوع واحد من الظواهر ، وكل قانون فى هذه النظرية العلمية او تلك انما يفسر جانبا معينا من تلك الظواهر ، بحيث ان مجموعة تلك القوانين المؤلفة للنظرية العلميـــة تفسر تلك الظـــواهر من كل جوانبها(٥٨) ٠

ان قانون بويل نفســه لا يفسر تقريبا ، على الرغم من انه يتيح التنبوء بسلوك الغازات ٠ ان التفســير السليم يحتاج الى تفسير لقانون بويل نفســه ٠ اما النظرية فهى تفسير كاف فى العلوم الطبيعية ، فالنظرية الحركيــة Kinetic Theory هى عبارة عن تفســير لسلوك الغازات ، فهى تتيح معرفة ما يحدث : انها تعبر عن وجود اشــياء تسمى جزئيات وتخضع للقوانين العامة للحركة ٠

ويميز د٠ زكى نجيب محمود بين التفســير والقانون كالتالى : حين نصف الطبيعة بقوانينها ، اى حين نصفها بكشفنا عن اوجه الشبه بين ما يبــدو عليــه التباين من ظواهرها ، نكون قد خطونا خطوة وبقيت خطوة ٠ فكما اننا نطوى الحوادث الجزئية المتعددة تحت قانون واحد اذا رايناها تطرد معا على غرار واحد ، فاننا بعــد ذلك نعود فنلتمس

(57) Theobald. op. cit. p. 76.

(٥٨) د٠ محمود زيدان : مرجع ســابق ، ص ١٤٦

اوجه الشبه بين مجموعة القوانين التى انتهينا اليها ، لعلنا نجد بعضها يندمج فى بعضها الآخر ، فاذا عرفنا ان قانونا ما هو فى الحقيقة متفرع من قانون آخر اعم منه ، ادخلنا الأخص فى دائرة الأعم ، وكان ذلك منا بمثابة تفسيره كما كان ادخالنا للحادثة الجزئية الواحدة تحت قانون يشملها هى وغيرها مما يطرد معها فى الحدوث ، تفسيرا لها . فمثلا للحرارة قوانينها الخاصة ـ فى علم الطبيعة ـ وكذلك للضوء قوانينه الخاصة ، لكننا قد نجد بالبحث أن قوانين الحرارة والصوت معا ، تدخل كلها تحت قوانين حركات الذرة ، فاذا وجدنا شيئا كهذا ، كان ذلك بمثابة التفسير لهاتين المجموعتين من القوانين »(٥٩) ان تفسير القوانين العلمية معناه اندماج عدة قوانين من نوع بعينه تحت قانون واحد ، فنحن نفسر القانون العلمى حين ننظر اليه على انه حالة خاصة من حالات قانون آخر أعم »(٦٠) .

وكثيرا ما يثار فى مجال العلوم الاجتماعية امكانية التوصل الى القوانين ، فاذا كانت هذه العلوم تدرس الظواهر الفردية والخاصة فمعنى ذلك فيما يرى البعض اننا لن نصل الى قوانين : ان كل فرد فى هذه الحالة هو ظاهرة فريدة بينما اهتمام القانون منحصر فيما هو عام فى شواهد وأمثلة عديدة . ويغفل هذا الراى كون القانون يتعامل مع ما هو مشترك ، ولا يعنى التفرد فى ظاهرة ما او فرد ما أو مجتمع ما انه لا يشترك مع غيره من الظواهر أو الأفراد أو المجتمعات فى خصائص معينة ، ففى الواقع أن تفرد موضوع الدراسة لا يعنى اكثر من أن هذا الموضوع لا يشترك مع الظواهر الأخرى فى كافة الخصائص .

(٥٩) د. زكى نجيب محمود : المنطق الوضعى ، مرجع سابق ، ص ٢٩٥

(60) M. Schlick philosophy of Nature p. 15 Quotedin .

(٦٠) د. زكى نجيب محمود : المرجع السابق .

ويهتم القانون بالتكرار ، وليس من المهم ان يكون التكرار خاص بالشيء نفسه ويكفى أن ما يحدث يشبه السابق بشكل يخدم أهداف التعميم ، وينطبق هذا الشرط على قوانين البشر كما ينطبق على القوانين الأخرى(٦١) .

ولا يوجد ما يحتم التزام العلوم الاجتماعية بالقوانين العلمية أو السببية ، ومن الممكن اللجوء الى القوانين الاحصائية التى تتحكم فى مجموعة كبيرة من الظواهر . وقد رأى بعض العلماء وفلاسفة العلم امثال ماكس فيبر **M. Weber** ان البحث عن القوانين ليس هدفا فى حد ذاته بقدر ما هو وسيلة لتحقيق أهداف أخرى ، ولا يعنى هذا التخلى عن البحث للوصول الى قوانين . ان التوصل الى الاطرادات (التعميم) هو وسيلة وليس غاية : فنحن نريد كشف ما هو عام ومجرد لكى نفهم ما هو فردى وواقعى ، ولاشك ان أى معرفة عامة هى مساهمة فى كل من الفهم والتفسير(٦٢) .

ويتأثر التفسير بالقانون ، فان تفسر شيئا هو ان نتبين أنه حالة خاصة لما هو معروف بشكل عام . وهنا تختلف التفسيرات باختلاف القضايا العامة التى تقع ، مع الشروط الخاصة ، ضمن مقدمات الاستدلالات التفسيرية . ولا تكمن الضرورة فى مقدمات التفسير وانما فى العلاقة بين المقدمات والنتيجة المترتبة عليها . وليس من الضرورى ان يكون المبدأ العام أو القانون المتضمن فى مقدمات التفسير قانونا علميا او سببيا ، وكل ما نحتاجه هو ضرورة منطقية وليست علمية أو سببية .

* * *

---

(61) A. Kaplan. The conduct of Inquiry : Methodology for Behavioral Science. New York Chandler Publishing Co. 1964. p. 117 .

(62) Ibid p. 115.

الفصل الثالث

« الاتجاه الوضعى »

تمهيد : لمحة تاريخية ٠

اولا : اتجاه أوجست كونت ونظرته الى التفسير ٠

ثانيا : نظرة نقدية الى اتجاه كونت ٠

ثالثا : اتجاه اميل دوركايم ونظرته الى التفسير ٠

رابعا : نظرة نقدية الى اتجاه دوركايم ٠

خامسا : اتجاه الوضعيات المحدثة والسلوكية ونظرتهما الى التفسير ٠

سادسا : نظرة نقدية الى اتجاه الوضعيات المحدثة والسلوكية ٠

تمهيــد :

ذكرنا من قبل أننا سنستعرض الاتجاهات الحاليــة فى العـلوم الاجتماعية ، وقد يتسـاءل البعض هل الوضعية اتجاه معاصر ؟ وما علاقته بالعلوم الاجتماعية ؟ وما قيمته فى هذا المجال ؟ ونبدأ فنقول ان المدرسة الوضعية لم تبدأ فى القرن العشرين وانما تمتلك جذورا وأصولا ممتدة فى المـاضى السحيق . ولم يمنعها هـذا من الاستمرار والتطور حتى اصبحت ما هى عليه الآن على أيدى علماء مبرزين أمثال ناجل وهمبل وبوبر وغيرهم .

وانه لمن المفيـد أن نستعرض بايجاز شـديد تطور هذا الاتجـاه فان المعروف والشـائع هو أن الوضعية بدأت على يد أوجست كونت فى القرن التاسع عشر ، الا أننا لو بحثنا فى المـاضى نجـد أفكارا وضعية ، بعضها لم يرق الى مسـتوى يجعله يصير اتجاها ، وبعضها كان قاب قوسين أو أدنى من ذلك .

ان محاولات القدماء السابقين على سقراط لم يخل بعضها من أفكار وضعية ، ولعل ابرزها تلك التى أوردتها المدرسـة الذرية والسوفسطائيون، بتأكيدهم على الخبرة كطريق الى المعرفة ، والى أهمية الرجـــوع الى الطبيعة . ويقول لقيبوس فى هذه الشـذرة التى تمثـل أيضــا رأى ديمقريطس « لا شىء يحدث للاشىء ولكن يصـدر كل شىء عن سـبب وبالضرورة » ومعنى الضرورة هنا يفيد الارتباط الضرورى أو الحتميـة الطبيعية مما يقترب من فكرة القـــانون الطبيعى(١) . وقــد لخص بروتاجوراس مذهبـه النسبى فى عبارته المشهورة «.الانســان هو مقياس كل شى ، مقياس وجود الموجود منها وما لا يوجد » . وقـد فسرت

---

(١) د. أميره مطر : الفلسفة عند اليونان ، القاهرة ، دار مطابع الشعب ، ١٩٦٥ ، ص ٨٣

نظريته فى المعرفة على ضوء هذه العبارة ، ويظهر منها أنه اعتمد على الخبرة الحسية كطريقة للمعرفة الانسانية(٢) ٠

اما أرسطو فكان وضعيا فيما قدمه لنا من دراسات اجتماعية : يصف ويشرح ويحلل ويقارن ثم يكشف وجود النقص وعلل الفساد فيقرر ما يراه محققا للمعايير السوية والأغراض النبيلة التى يهدف اليها من وراء دراساته النظرية (٣) ٠ لقد تأثر ارسطو بكل من الطبيعيين من جهة وبأستاذه افلاطون من جهة اخرى ، الا أن افلاطون مال بشدة الى الاتجاه العقلى بينما حاول ارسطو اكمال النقص الموجود لدى سابقيه ٠ ان تحليل ارسطو للدساتير المعروفة وانظمة الحكم المختلفة تظهر نزعته الواقعية التحليلية القائمة على استقراء الأحداث التاريخية والاعتماد على المنهج التجريبى بما يتضمنه من خطوات تقوم على الملاحظة والاستقراء ٠

وقد اهتم أرسطو بالتفسير فى كتب الطبيعة أو الفيزيقا ، فقد رأى ان افلاطون والمثاليين لم يعنوا الا بالعلة الصورية والفلاسفة الطبيعيون لم يعنوا الا بالعلة المادية ، أما التفسير الصحيح للطبيعة عنده فهو الذى يضيف ايضا الى هاتين العلتين العلة الفاعلة والغائية(٤) ٠ ان العلل عند أرسطو هى الأسباب فان مهمة علم الطبيعة فى نظرة هى معرفة اسباب ما يحدث فيها من تغير ٠ الا اننا نلاحظ ان المعانى التى قصد اليها بكلمة « علة » أو « سبب » تختلف عما يفهم من هذه الكلمة فى استعمالنا اليومى وفى استعمالنا العلمى اليوم على السواء ٠ وليست الغاية المقصودة جزءا من العلة فى لغة العلم ولا الماهية التى

---

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠

(٣) د٠ مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الأول : تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره ٠ القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٥٦

(٤) د٠ أميرة مطر : مرجع سابق ، ص ١٧١

تجعل من الشىء ما هو ، جزءا من العلة ، فلا يجوز ـ مثلا ـ اذا أردت أن أعلل كسوف الشمس أو فيضان النهر أن أسأل ما الغاية المقصودة من هذه الظاهرة أو تلك ، ولا أن أسأل على أى صورة تكون ماهية الظاهرة ، بل السؤال ينصرف الى ما قد حدث قبل حدوث الظاهرة بحيث يكون حدوثه دائما مع حدوثها(٥) ٠

واننا لنجد فى العصور الوسطى بعض الأفكار الوضعية المعبرة عن اهتمام متزايد بدراسة الطبيعة والبحث الكونى والفيزياء وذلك بهدف استبعاد المقولات الأرسطية من وصف الطبيعة ٠ الا أن هذه الأفكار لم ترق الى درجة تمثل وجهة نظر متميزة ومؤثرة ٠ فمثلا وضع ويليام أوكام مبدأ سمى باسم « نصل أوكام « Ockham's Razor » يقوم على القول بأن الخبرة وحدها هى المحك ٠ وقد قام أوكام برد مقولات أرسطو الى اثنين المادة والكيف substance and quality على أساس أن تلك المقولتين تشيران وحدهما الى حقائق فى عالمنا ٠ وقد كان هدف تفكير أوكام هو استبعاد التصورات المقولية من الفلسفة على أساس أن المعرفة ليست الا مجموعة المعلومات التى تؤكدها الخبرة(٦) ٠

وقد بدأ الموقف الوضعى يتضح مع مولد الميكانيكا الحديثة فى القرن السابع عشر ٠ وعلى الرغم من أن فكر جاليليوليس وضعى فى جملته الا أنه أقام تصورا للعلم يمكن أن نسميه وضعيا ٠ فيمكن أن نقول ان جاليليو هو أول من صاغ بشكل مميز ما يمكن أن نسميه مذهب الظواهر phenomenalism معارضا به التأويل التقليدى للعالم فى ضوء الأشكال المادية substantial ٠ لقد كان الوصف السابق للواقع يقوم

---

(٥) د٠ زكى نجيب محمود : نحو فلسفة علمية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢

(6) L. Kolakowski . Positivist philosophy . Translated by Norbert Guterman . Middlessex : Pelican Books 1972 p. 22 .

على رد الأسباب فى الظواهر الملاحظة الى طبيعة غير تجريبية (مثلا اعتبار الثقل سببا فى سقوط الأجسام) ، ثم بدأ يتضح أن هذه الطريقة فى التفكير لا تمثل معرفة ذات قيمة ، وأن الطبائع لا تفسر شيئا . وأصبحت مهمة العلم ان يقدم وصفا كميا للظواهر القابلة للقياس .

وعلى الرغم من ان ديكارت وليبنز لا يمكن ايضا اعتبارهما من الفلاسفة الوضعيين الا أن كلاهما شارك فى الرأى الوضعى الذى يرى أن تفسير العالم فى ضوء قوى غير مرئية لا يمكن اخضاعها للتحقق التجريبى ، وهو تفسير لا معنى له . لقد آمن كلاهما بالعلم وبدوره فى كشف الألغاز وملأ الثغرات بالمعرفة الحقيقية بدلا من تلك الأشكال المزيفة من الصياغات اللفظية .

أما باركلى فقد استبعد أى عنصر غير ضرورى من التفسيرات ، ودعا الى التخلص من النظرة الالحادية الى العالم التى ترى أن القوى الطبيعية بذاتها هى المسئولة عن كل العالم المرئى . ان باركلى وان كان اسميا فى نزعته من حيث أنه لم يقبل المعانى المجردة أو الأسماء الكلية فى معناها الميتافزيقى ، الا أنه لم يتطرف فى هذه النزعة الاسمية كما تطرف الوضعيون المناطقة(٧) الا أن باركلى حين رد الأشياء الى الأفكار واعتبر المحسوسات مجرد صور عقلية ، قد أخفق فى تفسير اتفاق الناس فى معرفتها ، لأن ارجاع الأفكار الى الله لا يحل هذا الاشكال(٨) .

ويعتبر دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) أول من نستطيع أن نصفه بأنه وضعى بدون تحفظات كالتى أوردناها بالنسبة للمفكرين السابقين ، حتى أنه قيل عنه « انه أول فيلسوف وضعى بالمعنى الشامل

---

(٧) د. يحيى هويدى : باركلى ، القاهرة . دار المعارف (نوابغ الفكر الغربى) ، ١٩٦٠ ، ص ٢٧

(٨) د. زكى نجيب محمود : مرجع سابق ، ص ٣١

الدقيق »(٩) ، كما قيل عنـه أنه جد الوضعية المنطقية بغير منازع(١٠) ٠ وهذا لاتجاهه التجريبى المنطقى ورفضه للتفكير القبلى من أجل الكشف عن أسرار الكون ٠ لقد قام هيوم بتقسيم ادراكات العقل الى مجموعتين متميزتين :

الأولى : تضم الانطباعات الحسية **impressions** التى تتمثل فى كل ادراكاتنا عندما نسـمع ، أو نرى ، أو نحس ، أو نحب ، أو نكره ، أو نتمنى ، أو نريد ٠

الثانية : هى « الأفكار » وهى الادراكات القائمة فى الذاكرة وفى ملكة الخيـال ، وتشتق هذه الأفكار بالكامل من الانطباعات الحسية ٠

وقد رأى هيوم أن عملية الفهم تتعامل اما مع علاقات بين أفكار واما مع وقائع ، فاما عن العلاقات بين الافكار فيمكن دراستها دون الرجوع الى شىء خارجها أى دون الرجوع الى الملاحظة : ويتمثل هذا فى علاقات التشابه ، والتقابل ، ودرجة الصفات المنسوبة ونسبها الكمية ٠ وتعتبر دراسة هذه العلاقات موضوعا للعلوم الرياضية التى تؤدى الى معرفة مؤكدة تماما الا انها لا تخبرنا بشىء عما تشير اليه ٠ واما عن الأحكام الخاصـة بالوقائع فان هيوم يراها على عكس القضايا الرياضية تنبئنا عن أشياء خاصة بالوجود : فهى تؤكد على وجود حدث ما ، الا انها فى نفس الوقت لا تشـير الى أى نوع من الضرورة ٠ وقد أدى هذا النوع من التحليل لدى هيوم الى نتائج هامة ، فمن القضايا السببية نستطيع التنبوء أن حدثا ما سوف يقـع وذلك بناء على حدث آخر ٠ ولم تكتسب هـذه المعرفة بين السبب والنتيجة عن طريق مجرد تحليل للعبارات ،

---

(٩) د٠ توفيق الطويل : أسس الفلسفة ٠ القاهرة ٠ دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ ، ص ٢٥٦

(١٠) المرجع لمنسـابق ، ص ٢٧٩

ولا هى أولية أو قبلية ، وانما نصل اليها عن طريق الخبرة والتجربة ٠ وقد عاب النقاد على تفسيرات هيوم اثارتها لمبدأ السببية الذى اعتبره هو نفسه غير قابل للتحقق ٠

وقبل أن ننتقل للحديث عن ممثلى الوضعية التقليدية والوضعية بصورتها المعاصرة ، يجدر بنا أن نشير الى جهود فيلسوف وعالم اجتماع عربى كبير هو ابن خلدون ٠ لقد كان ابن خلدون المتوفى سنة ١٤٠٦ مؤسسا لعلم الاجتماع بحق قبل فيكو وكونت ودوركايم بمئات السنين ٠ وقد أطلق ابن خلدون على هذا العلم اسم « علم العمران والاجتماع البشرى » ٠ وكان ابن خلدون وضعيا فى نظرته الى الوقائع الاجتماعية ، فقد اعتبر الظواهر الاجتماعية غير منفصلة عن الظواهر الطبيعية من جهة وعن الظواهر الاجتماعية الأخرى من جهة ثانية ٠ وقد عنى ابن خلدون بتفسير الظواهر الاجتماعية فلم يردها الى قوى غير طبيعية أو ارادات الأفراد وانما أرجعها الى قوانين مستخدما فى ذلك منطق التعليل ٠ وفى هذا الصدد يقول : « انا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من التركيب والاحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض لا تنقضى عجائبه فى ذلك ولا تنتهى غاياته »(١١) ٠

لقد حرص ابن خلدون على فهم الحوادث وتفسيرها عن طريق الكشف عن القوانين والأسباب ٠ أما الطريقة العلمية التى يوصى ابن خلدون باتباعها فهى طريقة مبتكرة تعتمد على دراسة القوانين التى يخضع لها المجتمع ، وعلى المقارنة بين أنواع المجتمعات ومختلف الشعوب ٠ وهى الطريقة التى يشير اليها بقوله « وسلكت فى ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا أو طريقة مبتدعة وأسلوبا ،وشرحت فيه من أحوال

---

(١١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٨٠ ـ ٨١ مأخوذة عن كتاب د٠ مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ، ص ١٥٠

العمران ما يمتعك بعلل الكوائن واسبابها ، ويعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على أحوال من قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك(١٢) وهنا نرى أنه يريد منهجا علميا بمعنى الكلمة ، لأنه يهدف الى الكشف عن القوانين التى يمكن استخدامها فى تفسير الماضى والتنبوء بالمستقبل(١٣) .

اولا : اتجاه اوجست كونت ونظرته الى التفسير

ان اهتمامنا بكونت(١٤) (١٧٩٨ - ١٨٥٧) وتمييزنا له من بين الوضعيين للحديث عنه بتفصيل لا يرجع الى كونه مؤسسا لعلم الاجتماع ، أو رائدا فى هذا المجال فحسب وانما لأنه من اهم الشخصيات فى تاريخ العلوم الاجتماعية ، وفهمنا له يساعدنا ولا شك على فهم ما نملكه حاليا من تراث علمى ومنهجى .

كان كونت أول من قدم بوضوح تام نسقا من التحليل المتعلق بالعلم الجديد وموضوعه . وقد تضمنت أعماله توضيحات لأشياء عديدة ، هى فى واقع الأمر موضوعات أساسية خاصة بالنظرية والمنهج معا : مثل الحذر فى ذكر الفروض التى تخضع للاختبار ، واستخدام المنهج المقارن .

---

(١٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤ ، مأخوذة من كتاب د. محمود قاسم . المنطق الحديث ومناهج البحث . القاهرة . مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٣ . ص ٢٩٧

(١٣) د. قاسم : مرجع سابق ، ص ٢٩٧

(١٤) لكونت مؤلفين رئيسيين :

1 — « Cours de philosophie positive » (professes a partir de 1826 , publiesde (1830 à 42) , 6 Volumes, 6o leçons.

2 — « Systémes de politique positive instituant la Religion de l'humanité » entrepris vers 1845 publié en 1854, 4 Volumes.

والتصنيف الدقيق للمجتمعات ، والطريقة الجديدة فى ادراك العلاقة بين علم النفس وعلم الاجتماع ، والاتجاه المنظم فى دراســة التــاريخ . وفى الواقع ان كثيرا من الموضوعات التى اثارها اصبحت نقطة البداية التى ســار على دربها العلماء ما يقرب من مائة وخمسين عاما . وكمثال لهذه الموضوعات نذكر تحليل طبيعة المجتمع الأساسية ــ مؤسســاته الرئيسية ، والتغيرات ، والتطورات التاريخية التى طرأت عليها كالأساس المــادى للمجتمع (تكوين رأس المــال وتراكمه وتركيزه وانتقاله) ، وتقسيم العمل ، واللغة ، والأسرة ، والدين ، والعلاقة بين البروتستانتية والعلم ، والتطور الجديد فى اشــكال الملكية المتبدى فى تطور الراسمالية الصناعية . كل هذا ظهر فى مؤلفاته الهامة الأولى . مثل مؤلفه « دروس فى الفلسفة الوضعية » وبصورة اكثر تطورا فى مؤلفة « انساق علم السياسة الوضعى »(١٥) . وفى الواقع ان كونت يمثل حدا فاصلا بين الفلسفة التأملية وبين الفكر الوضعى أو العلمى .

واذا تأملنا فكر كونت وفلسفته نجد ان هدفه الأول كان التفسير . ولم يكن المنهج الذى ســار عليه الا وسيلة للوصول الى تلك الغاية . لقد نظر كونت الى العلم على انه واقعة اجتماعية ، ومن هذا المنظور يمكن وصف مراحله المــاضية وتقدير احتمالات المستقبل ، فالعلم ليس الا اداة لزيادة تحكم الانسان فى ظروف حياته الطبيعية والاجتماعية .

ولا يمكن فهم « قانون كونت للحالات الثلاث » الا اذا وضعنا نصب اعيننا انه يصف حقائق اجتماعية ويتعامل مع مضمون المعرفة الانسانية كاحدى مكونات الحياة الاجتماعية . ان الانسانية قد مرت بمراحــل ثلاث تتميز كل منها بخصائص معينة . وقد أفرد كونت درســه الأول

(15) K. Thompson « Auguste Compte : The Foundation of Sociology » . New York , John Willy and Sons 1975. (Introduction by R . Fletcher PIX) .

فى مجموعة «دروس عن الفلسفة الوضعية» للحديث عن هذا القانون ، محددا أطواره السابقة ، مركزا على مرحلته الحالية وهى الوضعية .

وتعبر المرحلة الأولى ، وهى المرحلة اللاهوتية أو الدينية ، عن تطور البشرية ابتداء من عبادة الصنم fetechism مارة بالشرك (تعدد الالهة) polytheism منتهية بالتوحيد monotheism وتوافق هذه المرحلة اكثر فترات الحياة بداءة وهى الثيوقراطية أو الحكومة الدينية Theocracy ويمر كل علم بهذا الطور ، فهو لا زال فى مرحلة البحث عن الطبيعة المختلفة للأشياء لذلك يتساءل « لماذا تحدث الأشياء ؟ » . وتأتى الاجابة عن طريق بناء كائنات الهية قائمة داخل التصور الذاتى للانسان . ويبدو الطريق الذى تسلكه الطبيعة كسلسلة من المعجزات تقوم بها قوى عليا تحكم العالم المرئى .

ولا شك أن العقل فى هذا الطور الأول يحاول تفسير الكون ، الا انه يعجز عن الفكاك من قوى المطلق حيث يفسر كل شىء بواسطة رده الى ارادات متعسفة مملوكة لكائنات تتعالى عن الطبيعة surnatural (١٦) . فالعقل يفسر الظواهر بنسبتها الى قوى مشخصة فريدة خارجة عن نطاق الظاهرة كالآلهة والأرواح والشياطين وما اليها كان يفسر الظواهر بنسبتها الى الله عز وجل أو الى أرواح النبات(١٧) . وهذه هى الطريقة العقلية البدائية فى تفسير الكون . واذن فليس المراد بها البحوث النظرية فى المسائل الالهية على النحو المعروف فى العصر الحاضر . واذن يكون التفسير اللاهوتى البدائى تفسيرا خرافيا أو اسطوريا(١٨) .

---

(16) Auguste Compte. Cours de Philosophie Positive (lere et 2eme lecons) . Introduction et notes par Ch. Lal o . Lib-a-irie Hachette, 1931 PXVI.

(١٧) د. الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٢٣٨.

(١٨) د. قاسم ، مرجع سابق ، ص ٣١٧

واذا انتقلنا الى الطور الثانى وهى الحالة الميتافيزيقية أو المجردة ، فسنجد ان العقل اصبح أكثر نضجا عن ذى قبل ، فلم يعد يبحث عن أسباب تتعالى عن طبيعة الأحداث . الا ان العقل فى هذه المرحلة لا زال يجد فى طلب « طبيعة الأشياء » ولا زال يريد التوصل الى « سبب » الظواهر . الا ان نظرة العقل هنـا مخالفة لمـا كانت عليه فى المرحلة الأولى ، فهو وان كان يخلق آلهة ولكنها غير دينية ، هى آلهة طبيعية : حيث يكون المسـئول عن الوقائع المـلاحظة « قوى مجردة » أو «صفات» أو « كليات لفظية » يعتقد أنها حقيقية .

ان العقل فى المرحلة الثانية يطلب أيضا التفسير . وهو يفسر الظواهر بنسبتها الى معان مجردة أو قوى ميتافيزيقية وعلل أولى لا يقوى على اثباتها . كأن يفسر ظاهرة النمو فى النبات بنسبتها الى قوة النبات(١٩).

وقد أدت الحالة الميتافيزيقية وظيفة كبرى وهى النقد والهدم للفلسفة البدائية ، وذلك عندما استغاضت عن الارادات الالهية بالقوى الطبيعية .

وتتميز المرحلة الثالثة والأخيرة ، وهى الحالة الوضعية أو العلمية ، فى كونها لا تحاول ان تجيب على أسـئلة شبيهة بالأسئلة المشـارة فى المرحلتين السـابقتين ، بل وتستبعدها وتكشف تفاهتها وطابعها اللفظى . ان العقل الوضعى يكف عن البحث وراء الطبيعة المختفية للأشياء فهو يرفض التعرف على المطلق وعلى منشأ وهدف العلم .

ان العقل الوضعى فى الطور الثالث يسأل كيف تحدث الظواهر ، وما الطريق الذى تسـير فيه ، انه يجمع الوقائع ويبدأ فى دراسـة قوانين الظواهر أى العلاقات بين الظواهر المتتابعة والعلاقات بين الظواهر المتشابهة . ولا يسمح العقل فى هـذه الحالة للتفكير الاستنباطى أن يمضى

---

(١٩) د. الخشاب ، مرجع سـابق ، ص ٢٣٨

بعيدا وانما يخضعه للتحكم الدائم للوقائع « الموضوعية »(٢٠) ، انه يكف عن استخدام تعبيرات ليس لها مقابل فى الواقع ٠

واذا كان العقل فى المرحلتين السابقتين قد حاول التفسير سـواء بالرجوع الى قوى متعالية عن الطبيعة أو الى قوى مجردة ، فهـو فى المرحلة الثالثة يطمح أيضـا الى التفسير ٠ ويقول كونت فى هذا الصدد « ان تفسـير الوقائع فى شـكلها الحقيقى ليس اكثر من الربط القائم بين مختلف الظواهر المحددة **phénoménes particuliers** وبين بعض الوقائع العـامة ٠٠٠٠٠٠ **faits généraux** التى يحاول التقـدم العلمى جاهدا أن ينقص من عددها»(٢١) ان العقل قد توصل أخيرا الى المنهج الذى يفسر جميع الظواهر طبيعيـة كانت أم اجتماعيـة تفسيرا علميا ٠

ان كونت يرد التفسير هنا الى وقائع والى علاقات ضرورية بين الوقائع ، والى قوانين ٠ فلا رجعة اذن الى الخيال او التجريد ، ولا يوجد بعد اليوم الا وقائع خاصة وعامة ٠ ان التطور الداخلى لكل طور أدى الى التوصل الى مبدأ واحد للتفسـير ، بعد أن كان يوجد مبادىء متعددة : فقـد اصبح هناك اله واحد ، وطبيعة واحدة ، وقانون واحد للعالم بأسره ٠ ان الفكر الوضعى يسعى الى اليقين ، وفى سعيه هذا يهدم اليقين الزائف ٠ انه يفترض تفسيرا حتميا للظواهر ـ ولا يعنى هذا وجود أسباب « ميتافيزيقية » ـ ولكن بمعنى أنه يبحث عن ادخال كافة الظواهر المـلاحظة فى قوانين عامة ٠ وتشمل هذه القوانين أو الاطرادات المـلاحظة فى الظواهر مجموعة الأحداث ٠ كان العقل فى هذه المرحلة يفسر ظاهرة النمو بنسبتها الى العوامل الطبيعية والكيمائية والقوانين المؤلفة لهذه الظاهرة(٢١) ٠

---

(20) Kolakowski op. cit. p. 70.

(٢١) د٠ الخشـاب ، مرجع سـابق ، ص ٢٣٩

ومادام الهدف الأول للعقل هو الكشف عن القوانين العامة الثابتة التى تحكم الظواهر فلا بد له من اصطناع منهج يتلائم مع هـذا الهدف ، منهج يقوم على استخدام الملاحظة والتجربة والمقارنة ٠

بعد أن فرغ كونت من الحديث عن « قانون » الحالات الثلاث يمضى الى تعريف الفلسفة الوضعية مبرزا دور القانون فيها ٠ فقد حلت فكرة القانون محل فكرة العلل الأولى أو العلل الغائية ، وأصبح هدف العقل الوضعى فى ضوء ماضيه وحاضره هـو تكوين فيزياء اجتماعية (أى علم الاجتماع) من جهة ، تصنيف مجموعة العلوم من جهة أخرى ٠ ويقول كونت « ان الطابع الأساسى للفلسفة الوضعية هـو النظر الى الظواهر كافة باعتبارها خاضعة لقوانين طبيعية ثابتة ، ويعتبر الكشف عنها وردها الى اقل عدد ممكن ، هدفا لكل جهودنا »(٢٢) ٠

لقد اراد كونت ان يضع منهجا يتفق مع موضوع دراسته ، أى متلائما مع علم الاجتماع باعتباره يشغل مكانه خاصة فى سلسلة العلوم ، وهذه المكانة هى التى تحدد لعلم الاجتماع منهجه ٠ لقد صنف كونت العلوم فى الدرس الثانى من (دروس الفلسفة الوضعية) الا ان هذا التصنيف ينصب فقط على العلم النظرية ، اما العلوم التطبيقية فهى توابع لها ٠ ان العلوم العامة أو المجردة هى الأساسية بينما العلوم الواقعية لا تملك استقلالا ذاتيا ، ولا يمكن رد العلوم الأساسية الى اى علم آخر أو ردها الى بعضها البعض ٠ ويرى كونت أن هذه العلوم تمر بمراحل تطور الا أن معدل تطورها يختلف من علم الى آخر ، وانتقال علم ما من مرحلة الى مرحلة اخرى أعلى من الأولى لا يحدث صدفة وانما بفضل بحوثها وبفضل علاقاتها بالاحتياجات الاجتماعية ٠ وبالتالى تكون العلوم نظاما او تدرجا طبيعيا حسب أربعة معايير هى :

١ ـ العمومية أو البساطة فى الموضوع ٠

(22) Compte . op. cit. p. 17.

٢ ـ الاعتماد المنطقى أو التسلسل العقلى ٠

٣ ـ السـهولة فى التدريس ٠

٤ ـ التطور التاريخى(٢٣) ٠

فيكون النظام على الشكل التالى : اكثر العلوم بساطة فى الموضوع واكثرها عمومية فى الصدق هى العلوم الرياضية التى تتعامل مع جميع اشكال العلاقات الخاضعة للقياس بين الظواهر ، بعدها يأتى علم الفلك ثم الفيزياء ثم الكيمياء فالبيولوجيا واخيرا علم الاجتماع ٠ وقد اقام كونت الرياضة على راس العلوم لانها علم متخصص ومنهج عام فى الوقت نفســه كما انها لا تملك موضوعات واقعية فى الطبيعة ولكنها اداة نستطيع تطبيقها بدرجات متفاوته فى بقيــة العلوم ٠

ولـما كان علم الاجتماع يقع بعد البيولوجيا فى التصنيف فانه ولا شك قــد تأثر بها ، وبالتالى فانه ســوف ينبنى على كل ما اقيم حول طبيعة الانســان من حيث التشريح والفسيولوجيا (التى كانت تضم ما نسميه اليوم بعلم النفس) ٠ ويقوم علم الاجتماع بتحديد المســار العام ومراحل تطور الحضارة ٠ ان منهج كونت العام القائم على المقارنات التاريخية كنقطة بداية يهدف الى تحديد الاتجاه العام للتطور البشرى فى علاقته بالتصورات الرئيسية للانســان تجاه النظام الطبيعى والاجتماعى(٢٤) ٠

ويعتبر كونت التاريخ منهجا رابعا للبحث فى علم الاجتماع الى جانب المـلاحظة والتجربة والمقارنة ٠ ان خطط كونت من اجل الاصلاح الاجتماعى ترتبط بصورة ما بتاريخ العالم حيث توجد فكرة ســائدة اخذها كونت عن ســان سيمون ٠ هذه الصورة تقسم التاريخ الانسانى

---

(23) Compte. op. cit. p. XIX .

(24) Thompson. op. Cit. p. 17.

الى فترات متتالية بعضها « عضوى Organic » وبعضها نقدى Critical . وخلال الفترات العضوية ، حيث تعتبر الاختلافات الاجتماعية تقسيمات طبيعية للوظائف الاجتماعية الضرورية ، تحاول المجتمعات المحافظة على النظام الموروث . فى هذه المرحلة الزمنية يعامل المجتمع باعتباره كيانا متعاليا عن الفرد Supra individual entity له قيم خاصة به تفوق قيم الفرد الذى هو جزء منه . وفى الفترات النقدية التى تحاول تحطيم النظام الموجود ، يرى المجتمع نفسه على عكس الصورة السابقة كمجموع لأفراد منفصلين ، وهكذا يفتقد الوجود المستقل وتصبح قيمة هى قيم الأفراد باعتبارهم افرادا . ولا يحدث هذا التعاقب بين المرحلتين العضوية والنقدية بشكل متتال وانما يمضى فى خط صاعد يمكن أن ننظر اليه على أنه تقدم . لقد آمن كونت بالخصائص الضرورية والطبيعية للحياة الاجتماعية ، وبأن المجتمع ليس أداة لبعض الصراعات بين الأفراد ولكنه « كل عضوى » . ونحن جزء منه لأن لدينا ميل الى الحياة معا وهذا يعتبر مستقلا عن المصالح الفردية . وبشكل أكثر عمومية ، لا يوجد تطور اجتماعى قادر على تغير الخصائص البنائية الدائمة للحياة الجمعية . ان قوانين تطور المعرفة الانسانية هى قوانين تاريخية بالدرجة الأولى(٢٥) .

ويبين علم الاجتماع الوضعى أن الفرد ليس الا بناء عقليا بينما المجتمع يمثل الحقيقة الأصلية . وهكذا تكون الحياة الاجتماعية « طبيعية » مثل وظائف الجنس البشرى ، والناس يعيشون فى المجتمع لأن هذه هى طبيعة الأجناس وليس لأن الناس يعتقدون انهم بحياتهم معا سوف يتمتعون بمزايا لن يجدوها اذا عاشوا متفردين .

ولما كان منهج كل العلوم واحدا ، ولما كان منهج علم الاجتماع متاثرا بالوضع المترتب على كونه جاء متاخرا فى سلسلة العلوم –

(25) Kolakowski op. cit. p. 64 - 6.

وبالتالى سـوف يعتمد على التطورات المستمرة فى العلوم الأخرى ـ لـا كان الوضع على هذا الشكل فان مناهج علم الاجتماع تحتاج الى التفرع قسـمين :

الأول : خاص بالعلم وحده ويسمى « طرقا مباشرة » ٠

والثانى : ينشـأ عن الاتصـال بين علم الاجتماع والعلم الأخـرى ويسمى « طرقا غير مباشرة » ٠

فتعتبر المـلاحظة والتجربة والمقارنة طرقا مباشرة ، ويقول كونت « ان اى ملاحظة لأى شكل من الظواهر مستحيلة ما لم توجه منـذ البداية وتفسر فى النهاية فى ضـوء نظرية ما »(٢٦) ٠ لقد اقترح كونت قواعد المنهج الاجتماعى فى الدرس الثـامن والأربعين من دروس الفلسـفة الوضعية ٠ ولذلك عندما اكد على ضرورة الاهتمام بدراسـة الوقائع الاجتماعيـة مثلما ندرس الظـواهر الفلكية والفيزيائيـة والكيمائيـة والفسيولوجية ٠

ولم يفت كونت ان يدرس الناحية الدينية فى المجتمع ، لأن الأفراد فى مسيس الحاجة الى مجموعة منظمة من العقائد ، يتفق عليها الأفراد جميعا ٠ وهذا لا يتأتى الا اذا الغينا الديانات القائمة وصهرناها فى دين جديد ٠ وهذا ما حدا به أن يضع لنا بجانب النظم السابقة نظاما دينيا جديدا هو « الدين الوضعى » ٠ ويدور هذا الدين حول عبارة الانسـانية كفكرة ٠ أى أن فكرة الانسـانية تحل فى نظره محل فكرة « اللـه » فى الديانات الراقية المعروفة ٠ ووظيفة هذه الديانات كما يراها كونت هى تحقيـق وحـدة دينية فى العـالم بأسره ، لأن جميع الأفـراد سيتجهون بقلوبهم وعقولهم نحو فكرة واحدة ومركز واحد فتبطل الشرور والآثام وتنتفى المنازعات والحروب وتعيش الأجناس البشرية الثلاثة ،

(26) Quoted in Tompson op. cit. p. 21.

الجنس الأبيض والأصفر والأسود التى تمثل فى الانسانية الذكاء والعمل والعاطفة فى عصر ذهبى(٢٧) ٠

ان الوضعية فى تحطيمها للأديان القديمة القائمة على المعتقدات اللاهوتية أو الدينية لم تحطم الدين نفسه ، لأنه عنصر دائم فى البناء الاجتماعى ٠ فهو الرابطة الضرورية التى تجعل هذا البناء متماسكا ، وتحل الانسانية محل تلك الآلهة اللاهوتية ، فهى تعلو على الفرد لأنها تتكون من كل الأفراد ، الأحياء منهم والأموات والذين لم يولدوا بعد ٠

وتأتى فكرة الانسانية فى نهاية سلسلة يبدأها كونت بدراسة النظام فى حالة استقراره أو الاستاتيكا الاجتماعية ، حيث المجتمع ليس مجرد مجموعة افراد قادرين على الحياة بمفردهم وانما هو واقع مستقل وتلقائى réalité spontanee ، يتميز أساسا بأنه كلى ، والمعطى الأساسى والبسيط فيه ليس هو الانسان ولكنه الأسرة ٠ ويعتبر كونت هنا أن البشرية بأكملها تتمثل فى مجتمع واحد بحيث تلعب كل جماعة دورا تاريخيا خاصا وضروريا الا أنه تابع ولا يملك معنى كاملا خاصا به الا فى داخل الكل ٠ وتأتى الديناميكا الاجتماعية كحلقة أساسية فى علم الاجتماع لأن المنهج الخاص به يقوم على الملاحظة التاريخية ٠ ويمكن حينئذ دراسة أى كائن حى فى ظواهره المتعددة فى ضوء بعدين أساسيين : فى ضوء البعد الاستاتيكى وفى ضوء البعد الديناميكى ، أى كمتحفز للاقدام على الفعل وكفاعل بحق(٢٨) ٠ ويعرض كونت فى الديناميكا الاجتماعية فكرته عن التقدم ورده على الاعتراضات التى وجهت الى هذه الفكرة ٠ وهو لديه أكثر أهمية من الفرع السابق ، لأنه اهتدى اليه

---

(٢٧) أوجست كونت : الانجيل الوضعى ، د٠ الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٢٤٧

(28) Compte op. cit. p. 35.

عندما كشف عن قانون الحالات الثلاث ، ولأنه يفسر طبيعة الظاهرة الاجتماعيـــة كما كان يفهمها ، وهى انتقال التقاليد من جيـــل الى جيـــل(٢٩) ٠

أما بالنسبة لعلم النفس ، فلم يتحدث عنه كونت كعلم مستقل الالمـــاما ، وفى اغلب الأحيان كان يضمن اجزاء منه فى كل من الفسيولوجيا والبيولوجيا ٠ فكان يمكن عن طريقه تفسير بعض مظاهر السلوك الانسانى٠ اى أن علم النفس يحتاج دائما الى استكمال من جانب علم اجتماع التفاعل وبواسطة التطور التاريخى ، وذلك لكى يتصدى لتفســير الظواهر الاجتماعية ٠ ويقول كونت فى هذا الصدد : « فى وسعنا أن ندرك فى كافة الظواهر الاجتماعيــة ، القوانين الفسيولوجية للفرد ، ثم يأتى شىء آخر فيعدل من تاثير تلك القوانين وهو تأثير الأفراد على بعضهم البعض ، ويزيد الأمر تعقيدا بالنسبة للجنس البشرى تاثير الأجيال الســابقة على الأجيال اللاحقة »(٣٠) ٠

ثانيا : نظرية نقدية الى اتجاه كونت

اختلفت الآراء من فلسفة كونت ومنهجه ، ومما لا شك فيــه أن ما نادى به كونت قد استمر وازدهر وتبلور فى صورة ناضجة ، مع من جاء بعده من المفكرين الذين تتبعوا خطاه وساروا فى نفس الاتجاه ٠ الا أن هذا لا يمنع من أن يكون فى منهجه بعض القصور ، ولا يعنى هذا أن كل نقــد وجه اليه سليما ، فأحيانا نجــد فى آراء كونت نفســه ردا على كثير من الانتقادات التى اثيرت ٠

وقد واجه « قانون الحالات الثلاث » انتقادات كثيرة : ويقــول

---

(٢٩) د٠ قاســم ، مرجع سابق ، ص ٣٢٤

(30) The Positive Philosophy of Auguste Compte , trans. by H. Martineao Vol. 1. Quoted in Thompson op. cit. p. 29.

د. الخشـاب فى هذا الصـدد : « ان قانون الحالات الثلاث الذى يعبر عن التطور الفكرى هو نفسه القانون العام الذى يفسر جميع مظاهر التطور الاجتماعى . غير أنه من الواضح أن كونت يحمل قانونه فوق ما ينبغى ويخرج به عن نطاق التطور العقلى الى تطور الانسـانية بالاجمال . وهو فوق ذلك بين الفسـاد من وجوه أخرى »(٣١) . الا أنه فى واقع الأمر ان كونت قد وصف القوانين بأنها مؤقته ونسبية . وحتى تقسيم الدراسـة فى علم الاجتماع الى استاتيكا اجتماعية وديناميكا اجتماعية هو تقسيم مؤقت . ويقول كونت : « ان هذا التقسيم ضرورى لاغراض البحث ، الا انه يجب الا يتجاوز هـذا الاستخدام . فكما راينا فى البيولوجيا ، لقد أصبح التمييز ضعيفا مع تقدم العلم ، وعندما يتكون نهائيا علم الفيزياء الاجتماعية فاننا سوف نرى أن هـذا التقسـيم سوف يستمر فقط لأغراض تحليلية ولكن ليس باعتباره وسيلة لتقسـيم العلم »(٣٢) .

وفى الحقيقة ان المبادىء المنهجية العامة التى وضعها كونت لتفسير الظواهر الاجتماعية لازالت مستمرة الى الآن وكأنها معاصرة . لقد رأى كونت ان الوقائع السياسية والاجتماعية ليست موضوعا لأحكام القيمـة وانما يجب تفسـيرها عن طريق اكتشـاف العلاقات العـامة التى تربط الظواهرة فى نسـق معين ، وايضا عن طريق ارتباط تلك الظـواهر ، موضع الدراسـة ، بظواهر أخرى موجودة معها او سابقة عليها .

وقد اصطنع كونت طرائق بحث متنوعة لأنه رأى أن موضوعات الدراسـة فى علم الاجتماع معقدة . لذا قال بالملاحظة والتجربة والمقارنة والمنهج التاريخى . ويعتبر منهج التاريخ الذى نادى به ايجابيا ، فهو

(٣١) د. الخشاب ، مرجع سـابق ، ص ٢٣٩

(32) Compte Positive Philosophy Vol . 2 p . 218 . Quoted in Thompson Op .Cit. p. 19.

لم يكتف بالمنهج المنصب على الواقع الملموس فحسب وانما امتد به ليشمل الماضى والمستقبل ، فلم يهمل كونت تأثير الأجيال على الدراسات الانسانية . الا أننا يجب أن نلاحظ أن ما ناقشه كونت فى هذا الموضوع يختلف عما نسميه اليوم بالتاريخ ، فقد قصد بمنهجه التاريخى مجرد البحث عن متتاليات اجتماعية متطورة مجردة لا تزيد عن كونها مجموعات من الأحداث والاتجاهات تقوم بوضع خطط حدسية عن التغير التاريخى . معنى ذلك أنه لم يهتم بالبحث فى المعلومات التاريخية ذاتها .

ومما لا شك فيه أن كونت قد اعجب بمنهج العلوم الطبيعية وبالذات بنظرية الجاذبية الأرضية لنيوتن ، حتى انه رأى أن كافة الظواهر العامة تفسر بواسطتها ، لأنها تربط كافة الظواهر الفلكية ، معا . لذا جعل كافة الظواهر تابعة للقوانين الطبيعية . ويتمثل دور الباحث فى البحث عن القوانين وليس فى البحث عن الأسباب ، وذلك بهدف ردها الى أقل عدد ممكن . أى أن دور الباحث يقتصر على تحليل الشروط المتعلقة بالظواهر والربط بينها بواسطة علاقات تتابع وتشابه طبيعية . واذا كنا نتعجب لهذا الربط بين القوانين الطبيعية والاجتماعية فان ما يغتفر لكونت هذه الوجهة من النظر ان القانون فى رأيه ليس حتميا كما تصور البعض ، كما أن وضع علم الاجتماع فى سلسلة العلوم يجعله متأثرا بتلك العلوم . بيد أن اضفاء الطابع العلمى على علم الاجتماع لا يعنى ضرورة استعارة نماذج ومناهج العلوم الطبيعية ، فهو وان كان قد جعل هذا العلم متأثرا بالعلوم التى سبقته الا أنه ميز بين المجال الانسانى والمجال اللا انسانى كما أنه تفادى كل من التفسيرات المادية والتفسيرات العقلية(٣٣) .

ان تصنيف العلوم الذى وضعه كونت قد ترك الباب مفتوحا أمام

---

(33) Thompson op. cit. p. 27.

علوم اخرى تضاف اليه على أن تثبت جدارتها ، ويمكن اعتبار لجوء كونت الى المنهج التاريخى محاولة للتفسير خارج التفسيرات المادية الصرفة ٠

الا ان علينا أن نعترف بأن تعليقات كونت حول فائدة العلوم ، جعلته يقع فى نوع من الجمود جعله يرفض مجالات واسعة ، ويقوم باستبعادها على أساس أنها غير ذات قيمة او على اساس انها « ميتافيزيقية » ٠ وبهذا الشكل تخلص من نظرية الاحتمالات ، وعلم الفيزياء الفلكية ، وبحوث عن بناء المادة ، ونظرية التطور (النشوء والارتقاء) وحتى دراسات عن أصل المجتمع (٣٤) ٠

ولم يكتف بالتاكيد على القوانين لأن الوضعية تركز على أكثر من هذا ، تركز على وجود علاقات بين المعرفة والتنبوء والفعل ٠ اى ان اهتمام كونت بالتنبوء مرتبط بمستقبل علم الاجتماع ذاته باعتباره جزءا من نمط محدد للتغير الاجتماعى ٠

أما نظرة كونت الى علم النفس فهى قاصرة لأنه حصر اهتمامه فى الظواهر الاجتماعية وأهمل الاهتمام بعلم النفس ٠ فقد تغاضى عن كون البشر لديهم معرفة داخلية بأنفسهم تختلف عن معرفتهم بالأشياء الخارجة ٠ وترد نظرة كونت الناقصة تجاه علم النفس الى وضع هذا العلم فى العصر الذى عاش فيه كونت وما شاب هذا العلم من تأخر ٠

* * *

ثالثا : اتجاه أميل دوركايم ونظرته الى التفسير

اذا كنا قد تحدثنا عن « كونت » باعتباره مؤسسا لعلم الاجتماع فان حديثنا عن دوركايم (١٨٥٨ ــ ١٩١٧) لا يقل أهمية وذلك باعتباره

(34) Kolakowski op . cit. p. 67.

أول من وضع علم الاجتماع على اسس علمية ٠ وكان هدف دوركايم هو التوصل الى علم اجتماع موضوعى ومنهجى ، لذا سبق غيره من المفكرين فى تعريف الظاهرة الاجتماعية ثم تحديد اسس الدراسة العلمية للوصول الى نتائج يعتد بها ٠ ولم يكتف بهذا القدر فحسب. وانما مضى الى تطبيق منهجه فى دراسة الظواهر الاجتماعية مستخدما لأول مرة المناهج الاحصائية فى البحث الاجتماعى ٠

وكان دوركايم أول من وضع قواعد لتفسير الوقائع الاجتماعية ، مفردا لها الفصل الخامس من كتاب « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » ٠ ولا شك اننا سوف نشعر أثناء استعراضنا لآراء دوركايم فى هذا الموضوع بالذات بقيمة العمل الذى قام به ، ومما يؤكد هذا الشعور استمرارية اعماله كنموذج لأحد الانجازات الهامة فى تاريخ الفكر الاجتماعى من ناحية وكانتاج له معنى وأهمية فى ضوء الاتجاهات الفكرية المعاصرة من ناحية ثانية ٠

ان علم الاجتماع كما يتصوره دوركايم ليس الا دراسة لوقائع اجتماعية أساسا ، وتفسيرا لهذه الوقائع بطريقة اجتماعية ٠ وقد استهدف دوركايم فى كتاب « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » أن يدلل على انه يوجد أو لا بد ان يوجد علم اجتماع موضوعى يتوافق مع نموذج العلوم الأخرى ، موضوعه هو الواقعة الاجتماعية ٠ ويحتاج مثل هذا العلم الى شيئين :

اولا : لابد ان يكون موضوعه محددا أى متميزا عن موضوعات العلوم الأخرى ٠

ثانيا : لابد ان يوجد هذا الموضوع على نحو يتيح ملاحظته وتفسيره

بطريقة شبيهة بملاحظة وتفسير وقائع العلوم الأخرى(٣٥) .

وقد اكد دوركايم فى مقدمة الطبعة الثانية من الكتاب المذكور ان المنهج الذى يقترحه للدراسة ليس الا عملا مؤقتا لأن المناهج تتغير مع تقدم العلم ، فعلى اساس هذا الراى ينبغى علينا أن ننظر الى منهجه .

ولقد دافع دور كايم عن تعريفه للوقائع الاجتماعية بأنها «أشياء» مؤكدا على اختلافها عن الأشياء المادية من نواحى عدة على الرغم من وقوعها معها على نفس المستوى . ويعرف دور كايم هذا « الشىء » الذى جعله محمولا للوقائع الاجتماعية بأنه : ذلك الموضوع للمعرفة الذى لا يمكن ادراكه بوضوح بمجرد القيام بعملية تحليل عقلى ، ذلك أنه يمثل كل ما لا يستطيع العقل فهمه الا اذا انتقل خارج ذاته بواسطة الملاحظات والتجارب ، ويكون هذا عن طريق السير التدريجى من الخصائص الخارجية القابلة للادراك بشكل مباشر الى الخصائص الأقل وضوحا والأكثر عمقا . ولا يعنى تناول الوقائع كأشياء تصنيفها فى مقولة من مقولات الواقع وانما يعنى ملاحظتها فى ضوء اتجاه عقلى معين ، أى القيام بدراستها متمسكين بمبدأ معين يقوم على كوننا نجهل تماما طبيعة هذه الوقائع وعلى كون خصائصها المميزة واسبابها المجهولة لا يمكن كشفها بسهولة عن طريق منهج الاستبطان introspection مهما كان دقيقا . وقد اعتبر دور كايم كل موضوعات العلم اشياء ، باستثناء موضوعات العلوم الرياضية . وحتى علم النفس اصبح علما

---

(35) R. Aron. Main Currents in Sociological Thought 2 trans. by Richard Howard and Helen Weaver. Mid. : Penguin Books Inc. 1972 p. 70.

موضوعيا ، تقوم قاعدته الأساسية على دراسة الوقائع العقلية من الخارج اى كاشياء(٣٦) .

ولا يستدعى القول بهذه القاعدة (دراسة الوقائع كاشياء) اى تصور ميتافيزيقى ، أو اى تأمل نظرى داخل الفرد . وانما تطالب هـذه القاعدة الباحث الاجتماعى ان يعيش فى حالة ذهنية شبيهة بالتى يعيشها العلماء الفيزيائيون والكيمائيون والفسيولوجيون عندما ينطلقون الى كشف منطقة لم يطرقوها من قبل فى مجالهم العلمى . واذا ما وصل الباحث الى العالم الاجتماعى المنشود فعليه ان يتزود بالوعى بكونه ينفذ الى المجهول ، وعليه أن يشعر انه فى حضرة وقائع لا زالت قوانينها مجهولة بالنسبة له مثلما كانت وقائع الحياة مجهولة قبل قيام علم البيولوجيا . يجب اذن على الباحث الاجتماعى أن يكون مستعدا ومهيأ للوصول الى كشوف سـوف تعتبر مفاجئة بالنسبة له وقد تصيبه بخيبة امل(٣٧) .

ويبرر دوركايم نظرته ومنهجه بالرجوع الى القصور فى الموقف العلمى المعاصر له ، الذى لا يوضح للعلمـاء أهم النظم الاجتماعية كالدولة ، والأسرة ، وحق الملكيـة ، والعقـد ، والعقاب والمسئولية ، فهناك جهل شبه تام بالأسباب التى تعتمد عليها النظم ، والوظائف التى تقوم بها ، والقوانين المتعلقة بتطورها . ان الفكرة التى لدينا عن الأعمال الجمعية ، من حيث ماهيتها وكيف يجب أن تكون ، هى عامل من عوامل تطورها . الا أن هذه الفكرة ذاتها ليست الا واقعة تحتاج لكى تتحدد أن تخضـع للدراسة من الخارج . ويعتبر موضوع المعرفة هو ذلك التصور الذى يملكه المجموع ، وليس الطريقة التى يتمثل بواسطتها مفكر معين النظم بطرق فردية . ان تصـور المجموع ، فى راى دور كايم ، هو وحـــدة

---

(36) E. Durkeim, Les régles de la Méthode Sociologique. Paris Presse Universitaire de France 1949. p. XIII.

(37) Ibid. p. XIV.

التصور الفعال ، ولا يمكن الوصول اليــه بمجرد ملاحظة داخلية لذا وجب البحث عن رموز خارجيــــة Signes exterieurs لتجعله محسوسا . وبالاضــافة الى ذلك نجد ان هــذا التصور لم ينشأ من فراغ وانما هو نتيجة اسباب خارجية ، علينا ان نعلمها لكى نستطيع تقدير دورها فى المستقبل . ويعتبر دور كايم هذا المنهج وحده هو الفعال ومهما فعلنا فاننا ولابد ان نرجع دائما اليه(٣٨) .

لقد اعتبر دور كايم الظواهر الاجتماعية خارجية بالنسبة للفرد . واذا كان من الصحيح ان الخلية الحية لا تملك اى شىء خارج مكوناتها المعدنية minerals وان المجتمع لا يحوى شيئا خلاف الأفراد ، فان هذا لا يمنع من القول بأنه من المستحيل أن تكون ظواهر الحياة كامنة فى ذرات غاز الهيدروجين والأكسجين والكربون والأزوت ، لأننا فى هـذه الحالة لن نستطيع تفسير حدوث الحركة الحية داخل العناصر غير الحية ، فالحياة واحدة لا تتقســم . ان سيولة المــاء وخواصه لا تكمن فى الغازات المكونة له ، مأخوذة كل على حدة وانما ترجع الى المــادة المعقــدة المركبة من اجتماع الغازات . فاذا طبقنا هذا المبدأ على علم الاجتماع ، فسوف نجد اننا اذا افترضنا ان التركيب المكون لأى مجتمــع من نوع خاص suigeneris مولد لظواهر جديدة مختلفة عن الظواهر التى تحدث فى الوعى الفردى ، فلا بد حينئذ ان نقبل القول بأن هـــذه الوقائع المعينة تكمن فى المجتمع نفســه الذى ينتجها وليس فى اجزاء المجتمع اى اعضائه . وبهذا المعنى تكون الوقائع خارجة عن الوعى الفردى للأفراد ، تماما مثل كون خصائص الحياة خارجة عن المــواد المعدنية التى تكون الكائن الحى(٣٩) .

---

(38) Ibid p. XV.

(39) Ibid p. XVI.

ويستغل دور كايم هذه النتيجة التى توصل اليها لكى يبرر فصله بين علم النفس وعلم الاجتماع . فالوقائع الاجتماعية لا تختلف عن الوقائع النفسية من حيث النوع qualité فحسب وانما هى تملك ايضا أساسا مختلفا ، فالمجموعتان (الوقائع الاجتماعية والنفسية) تتحركان فى نفس الوسط ولا ترتبطان بنفس الشروط . ان فكر الجماعة ليس هو فكر الأفراد ، ولكل منهما قوانينه الخاصة . ومن هنا نقول أن كل علم منهما يتميز تماما عن الآخر . ومن المؤكد تماما أن مادة الحياة الاجتماعية لا يمكن ان تفسر بواسطة عوامل نفسية خالصة أى عن طريق حالات الوعى الفردى . ولكى نفهم الطريقة التى يتمثل بها مجتمع ذاته والعالم من حوله ، لابد ان نضع فى الاعتبار طبيعة المجتمع وليس الأفراد(٤٠) .

ويؤكد دوركايم على وجود رموز خارجية ترد اليها الوقائع ، على الباحث أن يتعرف عليها ويعرف مكانها ولا يخلطها بوقائع أخرى . ان المفروض فى البحث هو تحديده بقدر الامكان فان ما نحتاجه فى حالة التعريف الأولى هو توضيح خصائص الظاهرة وملاحظتها قبل البحث(٤١) .

لقد اعتقد دور كايم فى كل من العقل والعلم وبنى منهجه على تأكيد مذهب السببية أو العلية وانطباقه على الظواهر الاجتماعية ، وقد حدد دور كايم هدفه فى قوله : « العمل على مد العقلية العلمية لتشمل السلوك الانسانى وذلك عن طريق بيان أن النظر الى الماضى قد يرد الى علاقات عله ومعلول ، ثم ادخال عملية أخرى عقلية قد تحول السلوك الانسانى الى قواعد للفعل فى المستقبل(٤٢) . وقد رأى دور كايم أن طبيعة

---

(40) Ibid. p. XVII.

(41) Ibid. p. XX.

(42) Ibid. p. IX.

الدراســة الاجتماعية ســوف تتيح للفلسفة ان تفهم الطبيعة بشكل افضــل ، فان العلم ولا شك سوف يكون ذا فائدة للبشرية ، وباعتبار علم الاجتماع علما فلابد له ان يجمع بين الاهتمامات النظرية والاهتمامات العمليــة . ويقوم العلم الاجتماعى فيما يرى دوركايم على ثلاث افتراضات رئيسية :

الأولى : ان هناك وحدة فى الطبيعة .

والثانية : ان الظواهر الاجتماعية جزء من عالم الطبيعة الموضوعى (اى انها واقعية) .

والثالثة : ان الظواهر الطبيعية تخضع لقوانينها ومبادئها الخاصة ، وهى قوانين ومبادىء طبيعية . ويتبع ذلك ان تصبح الظواهر الاجتماعية صالحة للدراســة العملية(٤٣) .

لقد قام دور كايم بابراز العامل الاجتماعى المحدد الذى يمثــل موضوع دراســة علم الاجتماع ويقول دور كايم فى هذا الصدد : « عندما اقوم بمسئولياتى كاخ او زوج او مواطن ، وعندما التزم بعقودى ، فانى اقوم بواجبات تتحدد خارج ذاتى . وحتى لو اتفقت مع احساساتى واحسست ان واقعها ذاتى فان هذا الواقع لا زال موضوعيا لانى لم اخلقه بنفسى »(٤٤) . وهكذا يمكن عزل المسئوليات والاتفاقات والواجبــات والقوانين والعادات باعتبارها موضوعات خاصة للدراســة ، تتمثــل ملامحها البارزة فى كونها « خارجية » بالنسبة لاى فرد وتمارس فى نفس الوقت ضغطا عليه . فاذا ما وقعت هذه الموضوعات فى مجال اهتمامنا فان هذا يعنى اننا فى مجال علم الاجتماع .

---

(43) E. A. Tiryakian, Sociologism and Existentialism. Enflwood Cliffs : Prentice Hall Inc. 1962, p. 14.

(44) E. Durkeim « Régles de la Méthode Sociologique » in J. Rex , Emile Durkeim in The Founding Fathers of Social Science ed . by T. Raison, London : Penguin Books 1969 p. 129.

لقد رأى دور كايم أن الظاهرة الاجتماعية حتى ولو لم تملك وجودا مستقلا خاصا بها فان من صميم عمل عالم الاجتماع أو الباحث الاجتماعى أن ينسب لها مثل هذا الوجود . وذلك عن طريق التوصل الى معدلات احصائية تعتبر مؤشرات للتيارات الاجتماعية وليس مجرد حصر لظواهر فردية منفصلة . وسوف نرى كيف طبق دوركايم تجريبيا تلك الافكار فى كتاباته الاخرى خاصة فى مؤلفيه «تقسيم العمل الاجتماعى» ، «والانتحار» .

لقد اكد دوركايم على خضوع المجتمع لقوانين ، بدونها يصبح العلم الاجتماعى مستحيلا . فهو يرى أن مبدأ ارتباط الظواهر فى الطبيعة ارتباطا صميما لم يفشل فى أى مجال من مجالات الطبيعة ، ولما كانت المجتمعات الانسانية جزءا من الطبيعة فلا شك أن هذا المبدأ يصدق عليها بالضرورة . واذا كان دوركايم قد أخضع المجتمعات للقوانين فمعنى ذلك انه يستبعد كل ما هو حادث ويركز على الاطرادات والتكرارات فى السلوك الانسانى . ويقول دوركايم فى هذا الصدد : « اذا أردنا لعلم الاجتماع أن تقوم له قائمة ، فلا بد من افتراض طبيعة خاصة للمجتمعات تكون نتيجة لطبيعة العناصر المكونة لها ، وترتيب هذه العناصر . هذه الطبيعة الخاصة للمجتمعات هى منبع الظواهر الاجتماعية »(٤٥) .

ويؤكد دوركايم على أهمية وجود منهج علمى ملائم لطبيعة الأشياء المدروسة ولمتطلبات العلم . فلا يكفى أن نملك موضوعا محددا علميا لكى نكشف الاطرادات والأنماط والقوانين فى المجتمع ، وانما لابد من منهج علمى يؤدى الى نتائج يعتد بها .

ان موضوع علم الاجتماع ، حسبما يرى دوركايم ، هو بناء نظريات عن السلوك الانسانى استقرائيا ، على أساس ملاحظات سابقة لهذا

---

(45) E. Durkeim . Montesquieu and Rousseau, transl. by R. Manheim , Michigan : University of Michigan Press 1960 p. 13.

السلوك . ولابد لهذه الملاحظات التى نجريها على الخصائص الخارجية الظاهرة للسلوك أن تكون سابقة على النظرية Pre - theoretical ما دامت النظرية تشتق منها . وتتميز هذه الملاحظات بابتعادها عن افكار القائمين بالفعل Actors تجاه افعالهم الخاصة أو افعال الآخرين . فعلى الملاحظ ان يحاول بكل الطرق ان يفصل نفسه عن افكار الحس الشائع ، الموجودة لدى القائمين بالفعل لأن هذه الأفكار ، فى العادة ، ليس لها اساس فى الواقع . فعلى البـاحث الاجتماعى اذن ان يكون تصوراته خارج اطار بحثه وأن يبتعد عن تصورات الحياة اليومية لأنها ليست الا تعبيرا عن انطباعات مشوشة موجودة لدى العامة . كما أن عليه ان يهتم بالوقائع القابلة للمقارنة . ويقول دوركايم : « لابد ان نلاحظ الواقعة الاجتماعية مثلما نلاحظ اشياء العالم الخارجى ، أى من الخارج ، ومن الضرورى اجراء التجربة والقيـام بالاستقراء ، اما اذا استحالت التجربة فعلى الباحث أن يجد وسيلة لكى يقوم بمقارنات موضوعية تقوم بنفس الوظيفـة »(٤٦) .

وقد اهتم دوركايم أساسا بالتوصل الى التفسير ، واغلب ما كتبه لم يكن الا تحقيقا لهذه الغاية ، ونذكر فى هذا الصدد مؤلفاته الهـامة مثل « تقسـيم العمل الاجتماعى » و « الانتحار » و « الأشكال الأولية للحياة الدينية » الذى كتب فيه يقول : « ان الهدف النهائى لعلم الاجتماع هو تفسير الواقع وهذا الواقع ليس الا الانسان خاصة انســـان العصر الحديث »(٤٧) . اما فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » ، فقد افرد به فصلا خاصا للحديث عن « قواعد تفسير الوقائع الاجتماعية » .

---

(46) E. Durkeim, L'évolution Pédagogique en France, II Paris : Librairie Felix Alcan 1912 p. 217.

(47) E. Durkeim. Les Formes élementaries de la vie religieuse . Paris : Felix Alcan 1912 p. 2.

ان كل العلوم الاجتماعية تعتمد أولا على كشف المعلومات وثانيا على تفسيرها . واننا لنجد لدى دوركايم منهجا واسعا لتفسير الوقائع الاجتماعية . واذا كنا قد رأينا خلال عرضنا لوجهة نظره عن الوقائع الاجتماعية اصراره على الطابع الاجتماعى لظواهر مثل العادات والتقاليد والقوانين والمجتمعات ... الخ ، فاننا لنجد اصرارا مشابها بالنسبة لتفسير تلك الظواهر . أى اننا منذ البداية نواجه بتصميم دوركايم على التفسير الاجتماعى للظواهر الاجتماعية ، وفى الفصل الخامس من كتاب القواعد نجد تفرقة حاسمة بين الفردى والاجتماعى وتفرقة اخرى بين النفسى والاجتماعى . ان دوركايم لم يقلل من قيمة علم النفس . فلم يشكك فى كون الانسان يفكر ويحس ويمتلك وعيا ، الا أن هـذا لا يعنى اشتقاق الظواهر الاجتماعية من الحالات غير الاجتماعية . وانما على عكس ذلك ، تشتق خصائص الانسان من المجتمع ، بل لقد اعتبر أن المجتمع والحياة الاجتماعية ضروريين بالنسبة للانسان الحديث . ومن هذا المنطلق ادان محاولات السـابقين عليه .

لقد أخذ دروكايم على السابقين تقديم الظواهر فى ضوء النفع العائد منها والدور الذى تلعبه . فهكذا أرجع كونت قوى الجنس البشري المتطورة الى الميل الأساسى الذى يدفع الانسان بشكل مباشر الى تحسين وضعه بصفة مستمرة وفى ضوء أى ظرف موجود(٤٨) . كما أرجع سبنسر هذه القوى الى أكبر قدر من السعادة . وفى ضوء هذا المبدأ فسر تكوين المجتمع بواسطة الفوائد العائدة من التعاون ، وفسر قيام الحكومة بواسطة الفائدة الناجمة عن تنظيم التعاون العسكرى(٤٩) .

(48) Compte , Cours de Philosophie Positive, IV p. 262 in Durkeim « Régles de la méthode sociologique » op . cit. p. 89.

(49) Spencer. Sociologie III p. 336 in Durkeim Ibid. p. 89.

وقد رأى دوركايم ان المنهج السابق ذكره يخلط بين موضوعين مختلفين تمام الاختلاف ، فبيان ان واقعة ما ذات نفع لا يعنى تفسير نشأتها أو كيف أصبحت ما هى عليه . وذلك لأن الاستخدامات التى يتضح فيها نفع الواقعة ، وان كانت تفترض الخصائص المحددة التى تتصف بها الواقعة ، الا أنها لا تخلقها . ان الحاجة besoin التى نشعر بها تجاه الأشياء لا تكفى لكى تحدد شكلها وبالتالى فانه لا يمكنها أن تنتزع الأشياء من اللا وجود لكى تضفى عليها وجودا . فوجودها يرجع الى أسباب ذات طبيعة مخالفة . ويعطى دوركايم مثالا على ذلك : فاذا أردنا أن نضفى على حكومة ما السلطة التى تحتاجها ، فلا يكفينا أن نستشعر الحاجة الى ذلك بل علينا أن نتوجه الى المصادر التى يشتق منها وحدها كل سلطة ، أى نقوم بتكوين عادات وتقاليد وفكر مشترك ... الخ ، ومن أجل ذلك لابد من المضى فى سلسلة الأسباب والنتائج حتى نصل الى نقطة يمكن فيها للفعل الانسانى أن يؤثر بفعالية . ان الواقعة اذن غير مرتبطة بالفائدة ، وقد توجد دون أن يكون لها أى نفع سواء كان ذلك على شكل عدم ارتباطها بهدف أساسى أو كانت الواقعة تملك فائدة فى الماضى ثم فقدتها واستمرت فى الوجود بحكم العادة . بدليل أن هناك حالات تتغير فيها وظيفة بعض الأنظمة الاجتماعية دون أن يكون فى هذا ما يبرر أن تغير من طبيعتها . ان الوضع اذن شبيه بما هو موجود فى البيولوجيا : فالعضو مستقل عن الوظيفة التى يؤديها أى أنه قد يستخدم فى الأغراض المختلفة على الرغم من استمراره كما هو ، ومعنى هذا أن الأسباب التى تؤدى الى وجوده تستقل تماما عن الأهداف التى يستخدم فيها(٥٠) .

ويعتبر دوركايم أن الوقائع الاجتماعية مطردة ، فى حالة توافر الظروف المتماثلة . وعلى هذا الأساس يقيم القاعدة الأساسية فى التفسير

(50) Durkeim, Les régles de la méthode sociologique op cit. p. 89 - 91 .

التى يقول فيها : « عندما نكون بصدد تفسير ظاهرة اجتماعية معينة ، فعلينا أن نبحث عن كل من السبب الفعـال الذى ادى اليها ، والوظيفة التى تقوم بها ، على ان يقوم كل بحث منها على حده »(٥١) · ويؤكد دوركايم على تفضيله للتعبير « وظيفة » عن التعبير « غاية » أو «هدف» ، ذلك أن الظواهر الاجتماعية لا توجد فى ضوء النتائج المفيدة التى تنتجها · إن مهمة الباحث تنحصر فى تحديد التوافق بين الظاهرة موضع البحث والحاجات العامة للكائن الاجتماعى ، دون الاهتمام بمعرفة ما اذا كانت الظواهر هادفة أم لا ، لأن الموضوعات المرتبطة بالغايات والأهداف تكون ذاتية ولا يمكن التعامل معها بطريقة علمية · وتوضح القاعدة أن السبب وحـده غير كاف فى تفسـير واقعـة حيوية ولابد من أن نحدد الوظيفـة أى الـدور الذى تقـوم به الواقعـة فى تحقيـق الانسـجام العـام harmonie générale (٥٢) ·

ان تفسير دوركايم للواقعة الاجتماعية يقوم على فكرة أساسية هى إن للوقائع الاجتماعية وجودا موضوعيا · وبالتالى فهى لا ترد ولا تفسر بواسـطة وقائع أو ظواهر أخرى اقل تعقيدا أى غير اجتماعية · وكما لا يمكن تفسـير الظواهر النفسـية للوعى أو الشعور بردها الى الخواص الفسيولوجية للخلايا العصبية ، وكما لا يمكن تفسير الظواهر الفسيولوجية والبيولوجية بردها الى الخواص الفيزيائية ، كذلك يجب علينا ، فيما يرى دوركايم ، أن نتفادى النزعة الردية فى تفسير طبيعة العنصر الاجتماعى والطريقة التى يعمل بها(٥٣) ·

وقبل أن نتحدث تفصيلا عن مفهوم « مجتمع » فى فكر دوركايم والدور الذى يلعبه فى التفسير يحسن بنا أن نستعرض الأدلة التى أوردها

---

(51) Ibid. p. 95 .

(52) Ibid. p. 97.

(53) E. Durkeim, Sociologie et philosophie , Paris : Presse Universitaire de France 1951 p. 33.

دوركايم للتدليل على فساد مناهج التفسير السابقة عليه . فكما استبعد النزعة النفعية فى تفسير الظواهر الاجتماعية كان لابد أن يرفض أيضا النزعة النفسية . فهو يرى أن السابقين قد نظروا الى المجتمع على أنه نسقا من الوسائل التى اقامها الانسان من أجل بعض الأهداف ، وهذه الأهداف لا يمكن الا أن تكون فردية مادام وجود الأفراد سابق على وجود المجتمع . ويترتب على هذا الرأى أن تنبع من الفرد كافة الأفكار والاحتياجات التى حددت تكوين المجتمع . وما دام كل شىء قد أتى من الانسان فلا بد أن يفسر عن طريقه . وبالاضافة الى ذلك فان المجتمع لا يحوى الا أشكالا من الوعى الفردى واليها يرجع كل تطور اجتماعى . ومن الطبيعى أن يترتب على ذلك أن تكوين القوانين الاجتماعية توابع لقوانين أعم هى قوانين علم النفس(٥٤) . ومن ثم أخذ دوركايم على كونت انسياقه فى هذا الاتجاه ، واستشهد بأفكار كونت نفسه فى كتابه « دروس فى الفلسفة الوضعية » ليبين أن الواقعة المسيطرة على الحياة الاجتماعية فى نظر كونت هى التقدم ، والتقدم يعتمد على عامل نفسى هو الميل الذى يدفع الانسان أن يطور من طبيعته الخاصة . والوقائع الاجتماعية عند كونت قد تشتق مباشرة من الطبيعة الانسانية ، ونستطيع استنتاجها بشكل مباشر من المراحل الأولى فى التاريخ بدون الحاجة الى الملاحظة . ويعترف دوركايم بأن كونت لم يتمسك بهذا التفسير فى المراحل المتقدمة من التطور الا أن هذه الاستحالة فى رأيه هى مجرد استحالة عملية ، والعلاقة بين القوانين الأساسية للطبيعة الانسانية وبين النتائج المترتبة على التقدم لا تتيح التحليل ، ما دامت أكثر الأشكال تعقيدا فى الحضارة لا تخرج عن كونها الحياة النفسية المتطورة . ان علم النفس اذن له الكلمة الأخيرة عند كونت ، ويستدل على ذلك بقول كونت نفسه : « لا يمكن قبول أى قانون للتتابع الاجتماعى – ويشير بذلك الى المنهج

(54) Durkeim . Les régles de la méthode sociologique op. cit. p. 97 .

التاريخى ـ الا بعد أن يرتبط عقليا سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالنظرية الوضعية للطبيعة الانسانية »(٥٥) ٠

وقد رأى دوركايم أن سبنسر اتبع نفس الطريقة فى التفسير ، فقد قال بعاملين أساسين مؤثرين على الظواهر الاجتماعية هما : « الوسط الكونى » ، « والتكوين الفيزيائى والأخلاقى للفرد » ٠ الا أن الأول لا يستطيع التأثير فى المجتمع الا من خلال الثانى الذى يعتبر دافعا الى التطور الاجتماعى ٠ فاذا كانت المجتمعات تتكون فلكى تسمح للفرد بتحقيق طبيعته الخاصة ، وكل تطور فى المجتمع ليس له هدفا الا الوصول الى ذلك ٠ وقد خصص سبنسر فيما يرى دوركايم كتابه الأول فى مؤلفه « مبادىء علم الاجتماع Principes de sociologie » لدراسة الانسان البدائى من النواحى الفيزيقية والانفعالية والفكرية ٠ ومعنى ذلك أن كل شىء يخرج عن الطبيعة الانسانية(٥٦) ٠

وقد ترتب على تلك الاتجاهات السابقة ، فيما يرى دوركايم ، شيوع التفسير النفسى فى الدراسات الاجتماعية ٠ ففسر النظام الأسرى بواسطة المشاعر التى يحملها كل من الأهل نحو الأطفال ، والأطفال نحو الأهل ٠ وفسر الزواج عن طريق المزايا التى تتاح لكل من الزوجين وذريتهما ، وفسر الألم عن طريق الغضب الذى يثيره أى ضرر كبير فى مصالح الفرد ٠ وهكذا أمكن تفسير كل الحياة الاقتصادية فى ضوء هذا العامل الذاتى الفردى(٥٧) ٠

---

(55) Compte . Cours de philosphie positive p. 335 Quoted in Durkeim Les regles de la méthode sociologique op. cit. p.98.

(56) E. Durkeim . Les régles de la méthode soctologique op. cit. p. 99. .

(57) Ibid p. 100.

ويؤكد دوركايم على عدم صلاحية هذه الطريقة فى تفسير الظواهر الاجتماعية لأن علم الاجتماع ليس أحد لوازم علم النفس والا كيف نفسر تسلل العنصر الاجتماعى الى الفرد واجتياحه الجارف له . ان هناك ولا شك سلطة ينحنى أمامها الفرد عندما يقوم بالفعل أو الشعور أو التفكير الاجتماعى ، وعبثا يحاول ادراكها . ان هذه الدفعة الخارجية التى يشعر بها الفرد لا تأتى منه ، ويعجز ما يجرى بداخله عن تفسيرها . حقيقة اننا نستطيع التحكم فى أنفسنا ، فنحن نستطيع أن نحتوى ميولنا وعاداتنا وحتى غرائزنا ونوقف نموها بواسطة فعل قائم على الكبت . الا أن حركات الكبت هذه لا يمكن أن تختلط مع افعال القهر الاجتماعى . ان عمليات الكبت طاردة **centrifuge** بينما عمليات القهر الاجتماعى جاذبة . الأولى : تتكون من الوعى الفردى وتحاول بعد ذلك الانطلاق الى الخارج ، والثانية : تبدأ خارج الفرد ثم تحاول ان تجعله يبدو من الخارج على شاكلها . ان الكبت هو الوسيلة التى يحاول بها القهر والالزام الاجتماعى التأثير نفسيا الا انه ليس فى حد ذاته قهرا أو الزاما (٥٨) .

ويصل دوركايم بعد أن استبعد العنصر الفردى الى طبيعة المجتمع لكى يفسر عن طريقها الظواهر الاجتماعية . ان المجتمع يفرض على الفرد طرقا للفعل والتفكير ، وهذا الضغط الذى يمارسه « الكل » **le tout** على الفرد ليس الا الرمز المميز للوقائع الاجتماعية . هذا « الكل » الذى يتحدث عنه ليس مجموع أجزاءه وانما هو شىء آخر مختلف وله خصائص تتميز عن خصائص العناصر المكونة له . فالمجتمع اذن ليس مجموع أفراده وانما هو النسق المكون من ارتباط الأفراد ، وهو يمثل واقعة محددة لها خصائصها الذاتية . واذا كان المجتمع يحتاج للوعى الفردى كشرط ضرورى الا أن هذا الشرط ليس بكاف ، ولابد بالاضافة

---

(58) Ibid p. 101.

الى ذلك أن يرتبط كل وعى فردى بوعى فردى آخر بطريقة معينة ، ومن هـذا الارتباط تنتج الحياة الاجتماعية ومن هنـا فان هـذا الارتباط يفسرها . وتندمج النفوس الفردية وتتداخل وتتحد لكى تعطى كائنا نفسـيا له طبيعة جديدة وهـــو « الوعى الجمعى » المتميز عن وعى الأفراد . فعلينا أن نحصر بحثنا فى طبيعة هـذا الوعى ، وليس فى الوحدات المكونة له ، لكى نتوصل الى الأسـباب القريبة والمحددة للوقائع التى تحدث . ان المجموع يفكر ، ويحس ويفعل بطريقة تخالف تماما أعضاءه اذا عزل كل منهم عن الآخر . فاذا بدانا بالأفراد فلن نستطيع أن نفهم ماذا يدرو فى الجماعة ، وبالتالى كلما فسرنا ظاهرة اجتماعية بواسطة ظاهرة نفسية فهذا التفسير باطل بالضرورة(٥٩) .

ان هذا الارتباط هو مصدر كل جبرية : فبسبب مولدى ، أنا مرتبط قسرا بشعب معين ، وحتى لو قبلت هذا الارتباط فان جنسيتى تظل قسرا حتى لو كان مقبولا ، وكل ما هو اجبارى يستمد مصدره من خارج الفرد . وما دمنا لم نخرج من التاريخ فان واقعة الترابط لها نفس خصائص الوقائع الأخرى ، وبالتالى تفسر بنفس الطريقة . ولـما كانت كل المجتمعات قد صـدرت عن مجتمعات أخرى يمكننا أن نتأكد انه لم توجد لحظة واحدة ، فى سلسلة التطور الاجتماعى ، كان على الأفراد خلالها أن يفكروا اذا ما كانوا جزءا من الحياة الجمعية أم لا . ان التماثلات والانفعالات والميول الجمعية لا ترجع ابدا الى أسباب متماثلة فى بعض حالات الوعى ولكنها ترجع الى الظروف التى وجد فيها الجسم الاجتماعى فى شموله أو كليته(٦٠) .

ويبلور دوركايم خلاصة مناقشـته فى القاعدة التى تقول : « يجب علينا البحث عن السبب المحدد للواقعة الاجتماعية فى الوقائع الاجتماعية

---

(59) Ibid. p. 102.

(60) Ibid. p. 104.

السابقة وليس فى حالات الوعى الفردى » . وما ينطبق على « السبب » ينطبق ايضا على « الوظيفة » ، فوظيفة الواقع الاجتماعى لا يمكن الا ان تكون اجتماعية . ثم يضيف دوركايم الغاية الى الوظيفة فيقول : « يجب ان نبحث عن وظيفة اى واقعة اجتماعية فى علاقتها بالغاية او الهدف الاجتماعى fin social »(٦١) . وعلى الرغم من ان دوركايم جعل للمجتمع دورا رئيسيا واساسيا فى تفسير الوقائع الاجتماعية ، الا انه لم يستبعد الوقائع النفسية تماما من التفسير . لقد راى انها اساسية لارتباطها بالوقائع الاجتماعية ، وانتهى الى ان الوقائع النفسية لا تستطيع ان تفسر الحياة الجمعية ولكنها تستطيع ان تساعد على تفسيرها ، على ان يكون واضحا ان الحياة الجمعية لا تشتق اطلاقا من الحياة الفردية .

واذا استعرضنا آراء دوركايم فى التفسير من خلال مؤلفاته الرئيسية فسوف نجد انه فى كتابه الاول « تقسيم العمل الاجتماعى » « De la disision du travail social » وهو رسالته للدكتوراه ، ان دوركايم مازال متأثرا بآراء كونت . فدار اهتمامه فى هذه المرحلة حول العلاقة بين الافراد والمجموع . ويمكن التعبير عن هذا الموضوع على النحو التالى : كيف يستطيع التعدد بين الافراد ان يكون مجتمعا ؟ اى كيف يستطيع الافراد تحقيق شرط الوجود الاجتماعى عن طريق التوصل الى اتفاق على راى واحد ؟ وتتحدد اجابة دوركايم على هذا السؤال عن طريق تفريقه بين نوعين من التماسك : التماسك الآلى والتماسك العضوى .

ان النظام الاجتماعى لا يمكن تفسيره كما يفعل البعض فى ضوء المنفعة الذاتية للافراد . فلا بد من وجود شىء مختلف عن الميول الفردية

---

(61) Ibid. p. 109.

الخالصة يربط بين الأفراد فى كليات اجتماعية . هذا « الشىء » هو نوع من التماسك الاجتماعى . فى المجتمعات البسيطة يسمى « بالتماسك الآلى » ، ويقوم على التشابه : فالأفراد هنا يشبهون بعضهم البعض ، والأفكار والاحساسات والقيم المشتركة تجمع الكل . ان التماسك فى هذه المجتمعات يرجع الى كون الأفراد ليسوا مختلفين .

اما فى المجتمعات المتقدمة فيسمى التماسك « بالتماسك العضوى » الذى يقوم على تقسيم العمل . ان الاتفاق فى هذا النمط من التماسك ليس الا نتيجة للاختلاف بين الأفراد ، أى أن الأفراد لم يعدوا متشابهين وانما حدث بينهم اختلاف ، وهذا الاختلاف هو السبب فى وحدة المجموع . وترجع تسمية هذا التماسك بالعضوى الى أن أجزاء الكائن الحى تشبه بعضها البعض : فكل عضو فيه يقوم بوظيفة ، للقلب والرئتان وظيفة تختلف عن وظيفة العقل ، ولهذا السبب لا يمكن الاستغناء عن أى منهم فى الحياة . وهذا ما يحدث بالضبط فى المجتمع(٦٢) . فتقسيم العمل فى هذه المجتمعات ليس وسيلة لمضاعفة السعادة البشرية ولكنه واقعة خلقية واجتماعية هدفها تماسك المجتمع .

ويعرف دوركايم الوعى الجمعى collective consciousness فى هذا الكتاب « بأنه نسق من المعتقدات والمشاعر العامة الموجودة لدى متوسط أعضاء جماعة ما »(٦٣) . ويعتبر دوركايم هذا النسق كيانا قائما بذاته ، فالوعى الجمعى الذى يعتمد وجوده على المشاعر والمعتقدات الموجودة لدى الوعى الفردى يعتبر مستقلا ، على الأقل من الناحية التحليلية ، عن الوعى الفردى ، أنه يتطور حسب قوانينه الخاصة وليس كنتيجة للوعى الفردى . ان الفرد قد نشأ عن المجتمع ، فيما

---

(62) Aron op cit. p. 21.

(63) Ibid. p. 24.

يرى دوركايم ، ولم ينشأ المجتمع عن افراد ٠ وتمثل هذه الفكرة جوهر العلم الاجتماعى لديه ٠ وتتضمن هذه الفكرة معنيين غير متعارضين :

المعنى الأول : يتمثل فى السبق التاريخى للمجتمعات التى يتشابه فيها الأفراد ، وحيث يضيع الفرد فى وسط المجموع ، على المجتمعات التى اكتسب افرادها وعيا بفرديتهم وبقدرتهم على التعبير عنها ٠ ان المجتمعات الجمعيــة ، حيث يشبه كل فرد الآخر ، تأتى فى المقدمة زمنيا ، ومن هذا التقديم التاريخى يأتى تقديم منطقى فى تفسير الظواهر الاجتماعية ٠ ان القول بأن البشر قد قسموا العمل بينهم من اجل زيادة الناتج الجمعى يصدم دوركايم لأنه يقوم على افتراض أن الأفراد يختلفون ويعون هذا الاختلاف قبل ان يحدث الاختلاف الاجتماعى ٠ ان هذا الوعى بالفردية لا يمكن ان يوجد قبل التماسك الاجتماعى فى ضوء الرغبة فى زيادة الناتج الجمعى ٠

أما المعنى الثانى : المشتق من نشأة الفرد من المجتمع فهى تتمثل فى الفكرة الأساسية التى لازمت دوركايم فى كافة كتــاباته والتى يفسر بواسطتها علم الاجتماع ، وهى أسبقية الكل على الأجزاء ، اى استحالة رد الكل الاجتماعى الى مجموع عناصره ٠ ويعنى ذلك تفسير العناصر بواسطة الكل وليس العكس ٠ ومن هنا تفسر الظواهر الفردية بواسطة الظواهر الجمعية ولا تفسر الظواهر الجمعية اطلاقا فى ضوء الظواهر الفردية(٦٤) ٠

ان الظاهرة التى يحاول دوركايم تفسيرها ، وهى تقسيم العمل ، تختلف فى مفهومها عن المفهوم الموجود لدى رجال الاقتصاد ٠ ان تقسيم العمل الذى يتحدث عنه دوركايم هو بناء structure للمجتمع ككل ،

---

(64) Ibid. p. 26 - 27.

معبرا عنه فى شكل تقسيم فنى أو اقتصادى للعمالة . وقد حاول دوركايم أن يدرس هذه الظاهرة بالطريقة الموضوعية التى قال بها وهى الدراسة من الخارج . ولذا حاول أن يجد طريقة لدراسة هذه الظواهر التى لا يمكن ادراكها بشكل مباشر . وقد وجد أن الظواهر فى تقسيم العمل معبر عنها فى صورة ظواهر قانونية . لذا ميز بين نوعين من القوانين يختص كل منها بأحد انواع التماسك : اولها هو القانون القمعى الذى يعاقب الآثام والجرائم ، وثانيها هو القانون الرجعى restitutive أو التعاونى الذى لا يختص بالعقاب وانما باعادة الأشياء الى النظام اذا وقع جرم ما أو بتنظيم التعاون بين الأفراد(٦٥) .

ويرفض دوركايم هنا أيضا تفسير تقسيم العمل برده الى اتفاق الأفراد العقلانى من أجل زيادة الناتج العام عن طريق تقسيم المهام بينهم . ان المجتمع الحديث فى رأيه لا يقوم على العقد كما قال أصحاب نظرية العقد من أمثال هربرت سبنسر . ان دوركايم يعترف بتزايد دور العقود فى المجتمعات الحديثة ، تلك العقود التى تبرم بحرية بين الأفراد . ولكن يجب ان نلاحظ أن هذا العنصر العقدى هو أحد مشتقات البنـــاء الاجتماعى أو أحد مشتقات الوعى الجمعى فى المجتمع الحديث . وهكذا نعود مرة ثانية الى أولوية البناء على الفرد وأسبقية النمط الاجتماعى على الظواهر الفردية .

ان دوركايم فى تفسيره لظاهرة تقسيم العمل يهدف الى تحديد سبب الظاهرة ، وما دامت ظاهرة اجتماعية أساسا ، فلا مندوحة أن يكون سبب الظاهرة اجتماعيا أيضا ، وذلك تمشيا مع مبدأ التجانس بين العلة والمعلول . تفسر اذن ظاهرة تقسيم العمل بواسطة ظاهرة اجتماعيـــة أخرى تتمثل فى مجموعة مؤتلفة من عدة أشـياء هى حجم المجتمع وكثافته

---

(65) Ibid. p. 27.

المـادية بالاضافة الى كثافته الخلقية(٦٦) • وهنا تتضح احدى المبادىء التى قررها دوركايم بعد ذلك فى كتاب القواعد وهو تفسير الظـاهرة الاجتماعية عن طريق ظاهرة اجتماعية أخرى • وهكذا تتحدد الفكرة الرئيسية لدى دوركايم وهى أن الفرد ليس الا تعبيرا عن الظاهـرة الجمعيـة •

واذا كان دوركايم قد حدد بجلاء مبادىء التفسير السـليم فى كتاب القواعد فانه مضى فى كتاب التالى عليه وهو « الانتحار ، دراسـة اجتماعية » Le Suicide , étude sociologique الى اختبار مبادئه • ففى هذا الكتاب تتضح بجلاء كافة مبادىء التفسير الرئيسية : النظرة الواقعية الى المجتمع باعتباره « ظاهرة كلية » تعلو على مجمـوع عناصرها ، والتصورات الخاصة بالتمثلات الجمعية والوعى الجمعى ، وأخيرا استخدام منهج المقارنة بين مختلف الجماعات والمجتمعات وقد عبر عن أهمية المقارنة بقوله : ان المقارنة وحدها تتيح التوصـل الى التفسـير ، ومن هنا اذا كنا بصدد وقائع قابلة للمقارنة فاننا نستطيع القيام ببحث علمى ، ويزيد من فرص نجاح البحث امتلاك الوقائع لكل ما يمكن أن نقارنه بنجاح »(٦٧) •

لقد اختار دوركايم موضوع الانتحار كظاهرة تستحق الدراسة نتيجة لاهتمامه بمحنة المجتمع الحديث المتبدية فى التفكك الاجتماعى وضعف العلاقات بين الأفراد • وقد اختار دوركايم استخدام الطريقة الاحصائية فى الدراسـة لأنه وجد أن التجربة غير صالحة بسبب تميز الطابع العام

---

(66) Ibid. 31.

(67) E. Durkeim. Suicide . a study in sociology . trans. by J. A. Spaulding and G. Sympson . London : Routledge and Kegan Paul 1952, p. 41.

على حساب الخاص فى تلك الواقعة الاجتماعية • وميزة الاحصاء انه يركز على المظاهر الجماعية للسلوك لأنه يقدم علاقة بين واقعتين اجتماعيتين وهكذا درس دوركايم الانتحار كواقعة اجتماعية من أجل التوصل الى العلاقة بين نسبة المنتحرين وكل من الدولة المدنية ، والدين ، وأسلوب الحياة • هذه الطريقة تتجاهل بشكل آلى المظاهر الفردية لكل انتحار ، ذلك انه وجد ان الاحصاءات المتاحة لا تدعم اى افتراض قائم على ارجاع تفسير معدلات الانتحار الى اسباب فردية •

وقد توصل دوركايم الى أن العزاب ينتحرون فى المتوسط بنسبة اكبر من المتزوجين ، والمتزوجون بدون اطفال اكثر من المتزوجين بأطفال ، والبروتستانت ينتحرون بنسبة أكبر من الكاثوليك ، والكاثوليك اكثر من اليهود • وترتفع نسب الانتحار فى زمن الهدوء السياسى والسلام اكثر من زمن الأزمات السياسية أو الدبلوماسية أو الحروب •

وقد بين دوركايم أن هناك انواعا من الانتحار ، فبالاضافة الى الانتحار من خلال الأنانية والانتحار من خلال الغيرية يوجد الانتحار اللامعيارى suicide anomic ، وهو الذى يصيب الفرد نتيجة وجوده فى المجتمعات الحديثة • وهنا لا يخضع الوجود الاجتماعى للتقاليد ، فالأفراد فى تنافس ، ينتظرون الكثير من الحياة ويطالبون بالكثير • وهم فى خطر مستمر من الشعور بالألم نتيجة عدم التناسب بين ما يطمعون اليه وما قد تحقق منه • وقد ساعد هذا الجو من القلق وعدم الرضاء على نمو الدافع الانتحارى(٦٨) • ويقول دوركايم فى هذا الصدد : « ان اللامعيارية • او اختلال المعايير an_mic هى عامل محدد ومطرد للانتحار فى مجتماعاتنا الحديثة • ويختلف هذا النوع من الانتحار عن الأنواع الأخرى لا لمجرد اعتماده على الربط بين الفرد والمجتمع

---

(68) Aron op. cit. p. 43.

ولكن لصلته بالطريقة التى ينظم بها المجتمع نفسه • ان الانتحار الأنانى ينتج عن شعور الانسان بأنه لا يوجد ما يربطه بالحياة ، والانتحار الغيرى يرجع اى أن أساس الوجود يبدو للفرد خارج نطاق الحياة ذاتها • أما النوع الثالث فيحدث نتيجة اختلال نشاط الانسان وما ينتج عنه من معاناة ، وبسبب نشأة هذا النوع من الانتحار نطلق عليه اسم انتحار لا معيارى ، .... suicide anomic (٦٩) •

ويمكن تلخيص نظرية دوركايم انه نظر الى الانتحار كظاهرة فردية ترجع اساسا الى أسباب اجتماعية • فتوجد قوى اجتماعية يسميها دوركايم دوافع انتحارية تخترق المجتمع ، يكون منشأها جمعيا وليس فرديا • هذه القوى هى السبب الحقيقى للانتحار • ان هذه الدوافع الانتحارية لا توجد ممثلة فى شخص نكون قد اخترناه للدراسة ، بناء على اختيار عشوائى ، لأن اقدام شخص ما على الانتحار يرجع ولا شك الى أنه كان لديه استعدادا مشتقا من تكوينه النفسى ، أو ضعفه العصبى أو اضطرابه العقلى • الا أن نفس الظروف التى تخلق الدوافع الانتحارية هى نفسها التى تخلق الاستعداد النفسى ، وذلك لأن الأفراد الذين يعيشون فى المجتمعات الحديثة يتصفون بحساسية مرهفة وبالتالى يكونوا سريعى التأثر • ان الأسباب الحقيقية اذن هى القوى الاجتماعية • وهى تختلف من مجتمع الى آخر ومن ديانة الى أخرى ، كما انها تنشأ من الجماعة وليس من الأفراد مأخوذين كل على حدة • وهذا يعود بنا الى الموضوع الرئيسى وهو أن المجتمع بطبيعته غير متجانس فى علاقته بالأفراد ، وأن هناك ظواهر اى قوى تنبع عن الشكل الجمعى وليس من مجموع الأفراد • ويمكن أكثر من ذلك القول أن الأفراد معاقد يصدر عنهم ظواهر لا يمكن تفسيرها الا اذا أخذت ككل واحد • وينتج عن ذلك وجود ظواهر اجتماعية معينة تسيطر على الظواهر الفردية ، واقوى مثال على ذلك

---

(96) E. Durkeim . Suicide op . cit. p. 258 .

هى القوى الاجتماعية التى تدفع بالأفراد الى حتفهم . بينما يعتقد كل فرد منهم أنه يطيع نفسه فقط(٧٠) .

واكد دوركايم على اهمية النظام discipline فى كتـــابه « الأشكال الأولى للحياة الدينية Les formes élementaires de la religion ويخضع الانسان للنظام بواســـطة قوة عليا ليســت الا المجتمع نفسه . وقد بين دوركايم فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ان السببية أو العلية تأتى من المجتمع وحده . ومن هنا فان النزعة التجريبية غير سليمة لأنها لا تستطيع ان تفسر كيف تظهر التصورات أو المقولات . والنزعة العقلية القبلية apriorism ايضا غير سليمة لأنها لا تفسر شــيئا ، فهى تضع فى العقل البشرى ، على شــكل معطيات لا تتغير ، نفس الشىء الذى يحتاج الى تفسير . أن ما فهمته النزعــة القبلية هو ان الحس لا يمكن أن يعطى تصورات او مقولات وان هناك فى العقل شىء آخر خلاف معطيات الحس . ولكن ما لم يفهمه كلاهما ـ النزعة الحسية والنزعة القبلية ـ هو أن هذا الشىء اكثر من مجرد معطيات حسية وان له منشأ origin ، وهذا المنشــأ هو تفسير له . وتعتبر الحياة الجمعية هى المنشأ والأصل والتفسير للتصورات والمقولات . ان المجتمع فى راى دوركايم هو العملية التى بواسطتها تصل الأفكار الى التعميم وفى نفس الوقت الى السلطة التى تحدد كل من التصــورات والمقولات(٧١) .

وقد اضفى دوركايم على الدين مكانة مؤثرة فى تكوين الحضارة ، لأنه راى فى تفسيره له انه باعتباره ، أعلى تعبير عن القوى الجمعية قد صدر عن تفاعلات الأفراد فى داخل الجماعة الاجتماعية . وليست المعتقدات والطقوس الدينية الا تعبيرا رمزيا عن القوة الخلقية للمجتمع نفســه .

---

(70) Aron op. cit. p. 44.

(71) Aron op. cit. p. 65.

وقد ادى به هـــذا الى النظر الى كل من الدين والمجتمع باعتبارهما مرتبطان مصائريا(٧٢) ٠

ان التفســير الاجتماعى للدين هو من ناحية تعبير جمعى راجع الى تجمع الأفراد فى نفس المكان ، ومن ناحية اخرى يستدعى القــول بأن المجتمع نفســه هــو موضــوع عبادة الفرد من حيث لا يدرى(٧٣) ٠

وقد ميز دوركايم بين علم الاجتماع والتاريخ ، فبينما يكون التاريخ وصفيا فان علم الاجتماع يكون تفسيريا ٠ وقد اعتبر دوركايم أن وصف فكرة أو نظام ما لا يعتبر تفسيرا له(٧٤) ٠ ان التحليلات التاريخية فى رايه لا تكشف عن أسباب أو وظائف نظام ما على الرغم من تناولها لمراحــل النظام ٠ فالمؤرخ فى اهتمامه بالحدث الفريد يهمل كل ما هو مشترك بين الأحداث ، لذا يعجز عن عقد المقارنات فى تحليلاته التاريخية ٠

لقد راى دوركايم ان التفسير التاريخى الذى يعتمد على المــاضى لا يعتبر تفسيرا علميــا صادقا ، فالظاهرة الاجتماعية تفسر فى ضـــوء الظروف المصاحبة لها عن طريق العلاقة السببية ٠ وقد وضع قاعدة تقول : « يجب علينا ان نبحث عن الأصل الأول لكل عملية اجتماعية ذات أهمية معينة فى تكوين الوسط الاجتماعى الداخلى »(٧٥) ذلك ان الظاهرة الاجتماعية تتأثر بواقعة الترابط ، اى الطريقة التى تتجمع حسبها الاجزاء المكونة للمجتمع ، وتتحد هذه الأجزاء لتكون « كلا محددا » هو الوسط الداخلى ٠ وقد اعتبر دوركايم هذه العناصر المكونة للوسط نوعين : أشياء

---

(72) Tiryakian op. cit. p. 42.

(73) Aron op. cit. p. 69.

(74) E. Durkeim. La science positive de la morale en Allemagne. Revue Philosophique XXIV (1887) p. 282.

(75) E. Durkeim, Les régles de méthode sociologique op. Cit. p. 111.

واشخاص وتشير الأشـياء ، بالاضافة الى الموضوعات المـادية الموجودة فى المجتمع ، الى نتاج النشاط الاجتماعى الســابق ، والقانون السائد ، والعادات القائمة ، والأعمال الأدبية والفنية ... الخ . ولكن ما يحدد التغيرات الاجتماعية لا يصدر عن هذه الأشـياء لأنها لا تنتج اى قوة محركة ، فهى المـادة التى تنطبق عليها القوى الحية فى المجتمع دون ان تصدر عنها اى قوة حيـة . فيتبقى اذن كعامل نشـط ، العنصر الانسانى وحـده . ومن واجب عالم الاجتماع أن يحاول كشف الخصائص المتعددة لهذا الوســط فهى الكفيلة بأن تؤثر على مجرى الظواهر الاجتماعية . ويخبرنا دوركايم أنه قد أمكنه التوصل الى مجموعتين من الخصـائص هى : عدد الوحدات الاجتماعية أو حجم المجتمع ، ثم درجـة تركيز الحجم le degré de la concentration de la masse التى أسماها « الكثافة الديناميكية » ، ويعرفها بأنها اى حجم فى تناسبه مع عـــدد الأفراد المرتبطين بعلاقات . هذه العلاقات ليست فقط علاقات تجارية وانما اخلاقية أيضـا اى أن الأفراد يتبادلون الخـدمات كما يعيشـون حيــاة مشتركة ، ولذ فان ما يعبر بجدارة عن الكثافة الديناميكية لشعب ما هو درجـة التحام coalescence القطاعات الاجتماعية(٧٦) .

وقد أضفى دوركايم على المفهوم الخاص بالوسط الاجتماعى أهمية عظمى كعامل محدد للتطور الجمعى . فاذا ما استبعد فان علم الاجتماع يصبح عاجزا عن اقامة اى علاقة سببية . وقد انتهى دوركايم الى النتيجة التى تقول « ان الأحداث الحالية فى الحياة الاجتماعية لا تشق من الوضع الحالى للمجتمع ، ولكن من الحوادث الســـابقة اى من الســـوابق التاريخية ، وســوف تنحصر التفســـيرات الاجتماعية فى ربط الحاضر بالمــاضى »(٧٧) .

---

(76) Ibid. p. 112.

(77) Ibid. p. 116.

وقد انتهى دوركايم الى تقرير اهمية التاريخ بالنسبة للانســـان فى علاقاته بالآخرين . فقد اعتبر دوركايم ان الطبيعة الانســانية متغيرة وان التاريخ ليس مجرد اطار تدور بداخله حياة الانسان بل انه يشكل ويغير ويخلق الانسان . فالانســان ليس الانتاج التاريخ ، والطريقة التى يرتبط بها العالم ـ متضمنة الطريقة التى يدرك بها علاقاته بالآخرين ـ تختلف من زمن الى آخر ، ومن مكان الى آخر . وهذه التغيرات فى طبيعــة الانســان ليست بتغيرات ثانوية ، وانما لها دلالة كبيرة(٧٨) . ان هذه الفكرة التى طورها دوركايم فى أواخر اعماله تدل على اهتمام متزايد بتقبل النزعة الفردية . ونستطيع بناء على ذلك القول أن منطق التفسير عند دوركايم كان اجتماعيا وتاريخيا فى الوقت ذاته(٧٩) .



رابعا : نظرة نقدية الى اتجاه دوركايم

نتبين من العرض الســابق لفكر دوركايم انه كان فيلسوفا وضعيا مؤمنا بالتفكير العلمى وهذا ما حدا به الى النظر الى الوقائع الاجتماعية كاشياء ، فالوقائع الاجتماعية فى نظرة حقيقية ومتميزة تماما مثل الوقائع الطبيعية ، ولا يمكن فهمها فى ضوء اى شىء خارجها . وقد حدد دوركايم خاصيتين اساسيتين تتميز بهما الواقعة الاجتماعية : أولهما ، انها خارجية بالنسبة للفرد ، وثانيهما ، أنها تمارس ضغطا عليه . ويعنى النظر الى

---

(78) E. Durkeim . Introduction à la morale ed . by M. Mauss. Revue philosoliquė LXXXIX - XC 1920 pp. 79 - 97 p. 88 Quoted in Tiryakian op. cit. p. 51.

(٧٩) د . محمد عارف : المنهج فى علم الاجتماع ، الجزء الأول : المنهج الكيفى والمنهج الكمى فى علم الاجتماع ، القاهرة ، دار الثقــافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ ، ص ٣٠

الوقائع كأشياء خارجية التخلص من التصورات المسبقة والأحكام السبقية التى تجعلنا عاجزين عن معرفة الوقائع بطريقة علمية • والقسر والالزام المصاحبان للواقعة الاجتماعية نابع من كونها تفرض نفسها على الأفراد وتجبرهم على ملاحظتها • فاذا نظرنا من هـذا المنطلق الى المعنى الشيىء والخارجى الذى ينسبه دوركايم الى الظواهر فسوف ينتفى ولا شك النقد الذى وجه اليه باعتباره اراد تفسير الوقائع الاجتماعية فى ضـوء العوامل الطبيعية ، ففى واقع الأمر أن دوركايم قد استعار من العلوم الطبيعية المنهج أو الشكل دون المضمون •

وقد اعتبر دوركايم ان الوقائع تمثل الطريقة التى يرى بها المجتمع نفسه وما يحيط به • والتعبيرات النمطية الشائعة للحياة الجمعية هى كل من المبادىء الأخـلاقية ، والمعتقدات والممارسـات الدينية ، والرموز القانونية والأساطير ، والفلكلور والأمثال ، والحكم ، وأخيرا اللغة وهى اكثر الطرق تعبيرا عن الجماعة أو المجتمع فى علاقته بالعالم(٨٠) •

ولقد رأى دوركايم أن التفسير يمثل هدف علم الاجتماع ودليـــلا على قدرته العلمية ، وقد حاول أن يبين فى مؤلفاته ما ينبغى أن يكون عليه التفسير • لقد شـــعر دوركايم أن عليه ان يقدم أدلة على رايه هذا ، ويرجع هذا الى عدة اسـباب :

أولا : وجود النزعة العقلية لذيه وبالتالى الاتجاه الفلسفى فى طابعه الفكرى ، ويدعوه هذا الاتجاه الى مناقشة ما يستحق التثبت منه ، مناقشة تتفحص الافتراضات والتأثيرات التى يستدعيها الموقف المتخذ •

ثانيا : كان لدى دوركايم الرغبة القوية فى اقناع الراى المعارض والراى الشاك فلم يكن ليريد أن يتابع طريقة فى استقلال عن وجهات نظر

(80) Tiryakian op. cit. p. 17.

الآخرين . وقد رأى ان الاراء المقاومة لدعاوى علم الاجتماع هى آراء غير مسئولة ، وأحيانا خطره وكان لديه الاحساس بانه يعيش مرحلة ازمة اجتماعية .

ثالثا : كان دوركايم يهدف الى تأسيس مدرسة ، اى مجموعة من الباحثين يساهمون فى بحث مشترك بحيث يحولون كافة الدراسات الاجتماعية الى فروع لعلم موحد هو العلم الاجتماعى . لذا استشعر دوركايم الحاجة الى وضع برنامج ناجح من المبادىء ينير طريق البحث فى المستقبل . ومن هنا كان كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع »(٨١)

لقد جعل دوركايم من المفهوم « مجتمع » النقطة المركزية فى فكره وهذه الكلمة هى أكثر الكلمات شيوعا وتعقيدا فى كتاباته . وقد تجاوز تصور دوركايم للمجتمع مجموع الأفراد المكونين له ليمثل نسقا أو واقعا محددا . لقد اعتبر دوركايم الواقع الاجتماعى منفصلا عن الواقع الفردى ، وفسر الظواهر الجتماعية سواء الفردية أو الجمعية بواسطة الظواهر الاجتماعية .

ولقد تضاربت الآراء حول تصور دوركايم للمجتمع . فقد اعتبر البعض هذه النظرة اتجاه سوسيولوجى ولكنه ليس مطلق ما دام لم يعتبر الفرد مجرد نتيجة للمجتمع وانما فصل بينهما كمجرد خطوة لازمة لتصور المجتمع نفسه ، ثم اعتبر التفاعل بين التنظيم الاجتماعى والاحتياجات البشرية أهم نقطة فى تفسير التطور من شكل معين الى شكل آخر(٨٢) . بينما اعتبرت نظرة دور كايم من جانب مفكرين آخرين بأنها اقامت تفرقة حاسمة بين الفرد والمجتمع(٨٣) .

---

(81) S. Lukes . Emile Durkeim . New York: Harper and Row Publishers 1972 p. 226.

(82) P. Q. Hirst . Durkeim, Bernard and Epistemology. London : Routledge and Kegan Paul 1975 p. 146.

(٨٣) د . قاسم ، مرجع سابق ، ص ٣٤٠

وفى الواقع أن مفهوم او تصور دوركايم « للمجتمع » هو ، من وجهة نظره ، الكلمة الأخيرة التى ترد اليها التفسيرات فى كافة المجالات ونحن وان كنا قد تعرضنا لتصور دوركايم للمجتمع فى كتاباته الرئيسية الا انه أيضا تحدث عنها فى مؤلفاته الأخرى . وفى كتابه المشترك مع مارسيل موس M. Mauss تحت عنوان « التصنيف البدائى » نجده ، قد اهتم بالتصنيفات الرمزية ذات الطبيعة الخلقية أو الدينية وميزها عن التصنيفات ذات النسق التى اسماها تصنيفات تكنونلوجية . وقد اعتقد دوركايم وموس ان العقل الانسانى يفتقد القدرة على بناء انساق معقدة للتصنيف الذى نجده فى كل المجتمعات والذى يعتبر نتاج حضارى غير موجود فى الطبيعة . ويتساءل المفكران عن النموذج الذى اشتقت منه هذه التصنيفات للأفكار وتجىء الاجابة مؤكدة على ان هذا النموذج لا يمكن الا ان يكون المجتمع نفسه . ان المقولات المنطقية هى المقولات الاجتماعية ، وأول مجموعة للأشياء كانت مجموعة البشر ، ليس فقط كشكل خارجى وانما كعلاقات لها طبيعة اجتماعية واذا نظرنا الى مجموع الأشياء كنسق واجد فسبب ذلك أن المجتمع نفسه يخضع لهذه النظرة ، وبالتالى فان السلسلة المنطقية ليست الا مظهرا آخر من السلسلة الاجتماعية ووحدة المعرفة ليست الا وحدة الكل الاجتماعى التى امتدت لتشمل الكون باسره(٨٤) .

وفى مقالة كتبها دوركايم قرب آخريات حياته « Le dualisme de la nature humaine et ses conditions sociales ». اهتم بالتركيز على ثنائية الروح والجسم . وقد تناول دوركايم هذه الثنائية كتعبير جمعى يحتاج الى تفسير اجتماعى يظهر الواقعية خلف

(84) E. Durkeim , M. Mauss. Primitive Classification, trans. & ed . by Rodney Needham . Chicago. The University of Chicago Press 1963 , p. 8 , 9 .

هذا المفهوم الثنائى للطبيعة البشرية . لذا رفض الحلول التجريبية والحلول المثالية لتفسير هـــذه الثنائية لأن الاتجاه الأول انكر وجود ثنائية حقيقية فى الانسان بناء على أن الأنشطة العقلية والخلقية لا تختلف عن الأنشطة والاحساسات الجسمية الأخرى . اما الاتجاه المثالى فقد راى الواقع مكونا من افكارا (تصورات) ولا يوجد بالتالى صراع حقيقى بين الانسان والعالم او بداخل الانسان ذاته . ويعتبر دوركايم أن النزعتين عاجزتان عن تفسير سبب احساس الانسان على مر التاريخ بتعارض داخلى .. ويرى دوركايم ان فكرة كون الروح غير فان وأن الحياة مستقلة عن الوجود الغائى للجسم هى فكرة واقعية . فان حياة المجتمع اطول من حياة الفرد ، فالافراد يولدون ويفنون بينما يستمر المجتمع . ان فكرة الروح باعتباره افضل جزء فينا واسمى من الجسم ، هذه الفكرة تتضمن عنصرا مقدســا يفرض على الفرد ، وهو انعكاس لتفوق المجتمع على الفرد وتاثيره الخلقى عليه . ويقول دوركايم فى هذا الصدد : « ان كل واحد منا يعيش حياة مزدوجة : احداهما فردية خالصة ذات اصل نفسى ، والثانية خارجة عنها extraindividual باعتبارنا امتدادا للمجتمع »(٨٥) . والصراع الذى نشعر به بين مطالب الروح ومطالب الجسم ليس الا انعكاسا للواقعة فى كون مطالب المجتمع تختلف تماما عن المطـــالب التى تفرزهـــا الطبيعـــة الفـــردية (البيوفيزيائيـــة Byophysical) . ان المجتمع اذن يعتبر قوة خلقية متقدمة على الفرد ، فهو واقع نفسى اكثر ثراء وتعقيدا من اى فرد لانه يستفيد من مساهمات كل اعضاءه . الا أن المجتمع يعتمد على وعى الأفراد لأنه لا يوجد الا اذا فكر فيه الأشخاص ، وبالتالى فانه يملك طابعا مزدوجا فهو مباطن ومتعال معا . انه يوجد لدى الفرد ولكنه فى نفس الوقت يتجاوزه . ان

(85) E. Durkeim. « Le dualisme de la nature humaine et ses conditions soctales » Scientia XV (1914) pp. 206 - 221 , p. 216 Quited in Tiryakian op. cit. p. 49.

المجتمع هو الذى حرر الانسان من الطبيعة الحيوانية ، وأعطاه الشخصية ، وجعل منه انسانا اى كائنا اخلاقيا . وباختصار فان المجتمع هو الذى جعل منا بشرا ، فان لم نكن اجتماعيين فمن المستحيل أن نكون متحضرين(٨٦) .

لقد افرد دوركايم لعلم الاجتماع مكانة بارزة تفوق المجالات الأخرى ، وهو يقول : « ان المجتمع اقوى شبكة من القوى المادية والخلقية موجودة فى الطبيعة . واننا لا نرى فى أى مجال آخر مثل هذا الثراء فى المعطيات المختلفة بهذه الكثافة المرتفعة »(٨٧) وقد اعتبرت هذه النظرة ميتافيزيقية وانعكاس لموقف كونت من علم الاجتماع حينما افرد له مكانة رفيعة على أساس أنه يدرس الظواهر الأكثر تعقيدا .

ويقوم التفسير فى فكر دوركايم على مبادىء رئيسية ثلاث : انه تفسير سببى يقوم على الوظيفة التى تؤديها الواقعة الاجتماعية ، وهذا يتأتى بفضل **الطبيعة القابلة للمقارنة** التى تتميز بها العلوم الاجتماعية . وقد قام دوركايم بنقد « قانون الحالات الثلاث » عند كونت لافتقاده الى العلاقة السببية واعتبره قانونا تجريبيا أو نظرة شاملة الى التاريخ الماضى للجنس البشرى ، كما أنه تساءل عن امكانية ظهور « حالة » رابعة جديدة فى المستقبل(٨٨) .

ويعتبر دوركايم ان أسباب الظواهر الاجتماعية داخلية بالنسبة للمجتمع ، وعلى هذا الأساس رفض النظرية التى تجعل المجتمع يشتق

---

(86) Tiryakian , op. cit. p. 64.

(87) E. Durkeim. Les formes élémentaires de la vie religieuse p. 637. Quoted in Tiryakian op. cit. p.

(88) Durkeim. Les régles de la méthode sociologique op. cit. p. 117.

من الفرد . ويأخذ عليها انها تبحث لاخراج الداخل الى الخارج لأنها تفسر الكائن الاجتماعى بواسطة شىء آخر مختلف عنــه ، فهى تحاول استنتاج الكل من الجزء(٨٩) ان تفسير الظاهرة الاجتماعيـــة فى رأى دوركايم تعنى البحث عن السبب وهذا يعنى البحث فى الظواهر السابقة التى أدت اليها . وقد وجد دوركايم أن التفسير السببى هو خاصية كافة العلوم ولا بد بالتالى أن يكون أيضا الطريق الطبيعى لعلم الاجتماع .

وبعد التوصل الى السبب يحتاج التفسير الى البحث عن الوظيفة التى تؤديها الظاهرة الاجتماعية . وفى الواقع ان هــذا الاتجاه لدى دوركايم كان مصـــــدرا لكثير من النزعات الوظيفيـــة المعــاصرة Functionalism فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، ان دوركايم وجد استحالة فهم أى شكل من أشكال السلوك الاجتماعى من مجرد وصف شكله أو استخدامه لأن هذا ينتهى بنا الى مجرد نظرية وصفية ذرية وهى القطب المقابل للتفسير . وما نحتاجه بالفعل هو تحديد وظيفة الواقعة فى المجتمع . وقد أعطى كمثال على ذلك : العقوبة . وتساءل ما هو سبب العقوبة ؟ وقد تكون الاجابة المباشرة هى أن سببها الجريمة أو العدوان المعين الذى نتجت عنــه العقوبة . الا أن هذه الاجابة لا تنبئنا عن وظيفة العقوبة التى يلاحظ دوركايم انها لا تفهم الا فى علاقتها ، ليس فقط بعدوان معين أو عقوبة معينة ، وانما فى علاقتها بنظام اجتماعى أوسع تعتبر العقوبة جزءا منه . ان وظيفة العقوبة بنائية ، أى انها تشارك فى العمليات المؤثرة فى تدعيم نظام اجتماعى معين . ان ما يؤكد عليه دوركايم هو أن معالجة طبيعة الواقعة الاجتماعية لا تكون تامة حتى نتوصــل الى الوظيفة التى تلعبها ، آخذين فى الاعتبار بقيـــة المجتمع . وقد تكون الواقعة مبتذلة أمام الوعى أو لا عقلية أو متطرفة فى الخرافة ، الا أن هــذا لا يمنع دراستها على شريطة ان تكون مستمرة

(89) Ibid. p. 112.

زمنيا . ولا يمكن فهم هذا الاستمرار الزمنى الا فى ضوء الوظيفة التى تلعبها الواقعة بالنسبة للأفراد المؤمنين بها أو الجماعة التى تقبلها . وبهذا الشكل بين دوركايم ان وظيفة الدين اجتماعية وليست فلسفية أو عقائدية أو كونية . وقد اعتبر مؤلفه « الأشكال الأولية للحياة الدينية » من اكثر أعماله اثارة لاهتمام الباحثين المعاصرين خاصة ما كتبه عن المظاهر الوظيفية للظواهر الاجتتماعية(٩٠) .

وقد رأى دوركايم أن الطريقة الوحيدة للوصول الى فهم للعملية السببية فى اى علاقة ، هو من خلال مقارنتها بعمليات أخرى بواسطة علاقات معرفية ، هذه المقارنة تهدف أساسا الى التوصل ، من خلال الملاحظات المقارنة ومن خلال التحليل ، الى العوامل السببية أو الأساسية فى العملية الاجتماعية . ويشترط دوركايم على المقارنة ، لكى تكون منهجا علميا صالحا للدراسة ، أن تقوم بين أبنية وعمليات اى « انماط اجتماعية » أو اشكال السلوك بحيث يؤخذ فى الاعتبار كل من الوظيفة ، والمغزى السياقى ، والمعنى ، مثلما يؤخذ فى الاعتبار السلوك الواضح الصريح . فيقول دوركايم « تختلف الوقائع الاجتماعية باختلاف النسق الاجتماعى التى هى جزء منه ، ولا يمكن فهمها الا اذا فصلت عنه . لذلك لا يمكن مقارنة واقعتين مختلفتين لمجرد انهما تظهران متشابهتان ، فلا بد أن يكون المجتمعان أساسا يشبهان بعضهما البعض . ويكون المنهج مستحيلا اذا لم توجد الأنماط الاجتماعية ، ولا يمكن تطبيق هذا المنهج بنجاح الا من خلال نمط واحد »(٩١) .

ولا شك أن نزعة دوركايم الوضعية ، وأخذه بالتفكير العلمى ، مع ادخاله لمناهج جديدة فى الدراسة الاجتماعية قد أدى به الى وضع أسس

(90) Nisbet op. cit. p. 67, 68.

(91) E. Durkeim. Elementary Forms of Religious Life. Trans. by Swain, J. W . Quoted in Nisbet Ibid. p. 69.

علمية للتفسير سبق بها المفكرين فى عصره . وقد اثر دوركايم بشكل لم يسبق له مثيل فى الاتجاه الفكرى والاجتماعى التالى له ونذكر منه الوضعيات المحدثة والوظيفية ، بالاضافة الى المدارس الفكرية الأخرى التى قامت لتعارضه .

* * *

خامسا : اتجاه الوضعيات المحدثة والسلوكية ونظرتهما الى التفسير

قامت الاتجاهات الوضعية المعاصرة كامتداد لأعمال كل من ماخ وبوانكاريه وفريجه وفنجشتين ومل وكونت ، وتشكلت فى مدارس عديدة تتجمع حول مجموعة مبادىء أساسية . ولقد مرت الاتجاهات الوضعية المعاصرة فى عدة تطورات بادئة من دائرة فينا مع الوضعية المنطقية المكونة من شليك وكارناب وويسمان وفيجل ونوراث وفرانك وفون ميزس وآخرين منتهية بالوضعية المحدثة او التجريبية المنطقية مع رايشنباخ وهمبل وناجل وبردجمان وآخرين .

ويتفاوت تأييد الاتجاهات الوضعية للمبادىء المشتركة التى تجمع بينها . فمنها ما يؤكد بصفة خاصة على النزعة الفيزيائية Physicalism التى ترد العلم الى تقريرات تعبر عن وقائع قابلة للملاحظة بشكل مباشر . ومنها ما يؤكد على النزعة الذرائعية Instrumentalism التى تنظر الى الفكر باعتباره ذريعة أو وسيلة للوصول الى الهدف . ومنها ما يؤكد على النزعة الطبيعية naturalism التى ترى أن العلوم الاجتماعية لها نفس أهداف ومناهج العلوم الطبيعية .

ولا شك ان الوضعية موقف فلسفى من المعرفة الانسانية ، موقف يقوم على عدم مناقشة أسئلة معينة مثل : كيف وصل الانسان الى

المعرفة ؟ أو ما هى الأسس النفسية والتاريخية للمعرفة ؟ وانما هو موقف متمثل فى مجموعة مبادىء ومعايير تقديرية تشير الى المعرفة الانسانية ٠ فهى تقوم بالتمييز بين المضامين الموجودة فى تصوراتنا عن العـالم ، فتركز على المضامين التى تستحق ان تسمى معرفة وتتيح معايير لمعرفة ما ينبغى أن يكون موضـع السؤال ٠ وهكذا تصل الى الموضوعات الفلسفية والعلمية التى يجوز الخوض فيها والموضوعات التى لا تستحق ذلك ٠ ومن هنا وجهت الوضعية نقدها الى التأويلات الدينية للعالم والى الميتافيزيقا وذلك بهـدف اقامـة موقف تجريبى حـر من الافتراضـات الدينيـة والميتافيزيقية ٠ وهكذا قـام موقفها الفلسفى على رفض قيام اى نظرية أو فلسفة ، وعلى التأكيد على الحذر والدقة والوضوح ، وعلى تفضيل المسائل الممكنة الحل علميا والمفيدة عمليا ، واخيرا على البعد عن أى اتجاه تأملى ٠

وتتجه الوضعية المحدثة الى اخطر قرار لها وهو تحديد الفلسـفة على مستوى اللغة ، فالعلم فى رأيها يهتم بالأشياء الموجودة فى العـالم بما فيها الانسـان ، والفلسفة تهتم باللغة التى يعبر عنها هذا العلم ٠ ولقد زعموا ــ على حـد قول د٠ الطويل ــ ان كل ما نستطيع معرفته عن العالم وعن الانسان ومكانه منه ، يمكننا ان نستقيه من العلوم الطبيعية التى تدرس الكون والعلوم الانسـانية (الاجتماعيـة) التى تدرس الانسان ، وليس للفلسفة بعدهما مجال ! انها مجرد منهج للبحث هدفه التحليل المنطقى للغة التى نستخدمها فى حياتنا اليومية أو يصطنعها العلماء فى مباحثهم العلمية(٩٢) ٠

ويتمثل الجانب الوضعى من الفلسـفة التحليلية فى « التجريبية المنطقية » التى اعتبرها راسل اساسا هاما فى المدرسة التحليلية ٠ وهى

---

(٩٢) د٠ توفيق الطويل : اسس الفلسفة ، مرجع سابق ، ص ٥٩

تقوم على تطبيق واسع للمناهج الرياضية ، فقد كانت هناك قبل ذلك فرقة تقليدية بين المنهج الرياضى للتثبت والمنهج التجريبى للبحث ، وقد ادى هذا الى تصورين للمعرفة : احدهما الاتجاه العقلى ، والثانى الاتجاه التجريبى . وقد حاول التجريبيون المناطقة التخلص من هذا التقسيم ، فهم يرون أن الخبرة experience هى الوسيلة الوحيدة لمعرفة اى شيء عن العالم الواقعى . والرياضيات بذاتها لا يمكن ان تصف العالم الا انها تتيح طريقة ضرورية للتفكير . ولقد تطور المنطق الصورى فاصبح اداة ساهمت فى توسيع العلم التجريبى ، وذلك عن طريق التخلص من الموضوعات الزائفة مما جعله قادرا على حل المسائل الانطولوجية . ومن هنا ساهم كل من المنطق والرياضيات فى فعالية الرموز اللغوية وفعالية التفكير .

وتقوم الفلسفة التجريبية المنطقية على مجموعة من الأسس تتمثل فى التـــالى :

اولا : هى اتجاه عقلى قائم على فكرة انه لا يمكن التوصل الى معرفة فى العـالم الا بالطريق المستخدمة فى العلوم الطبيعية والرياضيات.

ثانيا : أنها تدعم النزعة الاسمية nominalism فى نظرية المعرفة، وفى نظرياتها عن المعنى وعن الموضوعات الرياضية وعن القيم . وتقوم النزعة الاسمية على القول بانه من الخطأ أن نفترض أن اى استبصار Insight مصاغ فى عبارات عامة يمكن له مدلولات أخرى خلاف ما هو موجود فى الواقع . فنحن نعترف بوجود الأشياء عندما تجبرنا الخبرة على القيام بذلك .

ثالثا : انها موقف معارض للميتافيزيقا على اساس ان التقريرات الميتافيزيقية لا تقبل متطلبات التحكم التجريبى والسبب فى ذلك كونهـا تتعامل مع ظواهر خاصة ، ولا تتعامل مع العالم ككل ومن هنا عدم امكان استخدام منهج معين للتأكد منها .

رابعا : انها تتبنى الاتجاه العلمى Scientism اى انها تؤكد على الوحدة الضرورية للمنهج العلمى .

والاختلاف الحالى بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ليس الا نتيجة كون العلوم الاجتماعية لم تنضج بعد ، وهذا الوضع مؤقت ، ومن المنتظر فى المستقبل ان توضع العلوم الاجتماعية على صورة العلوم الطبيعية (٩٣) .

ويرى الوضعيون المناطقة أن المهمـــة الأولى للفلسفة هى تحليل التصورات والنظريات والمناهج فى مختلف فروع البحث العلمى ، مبتدأه من المنطق والرياضيات مجتازة الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا الى علم النفس والعلوم الاجتماعية وعلم التاريخ . وقد بـدأ الاتجـــاه المسمى بالفيزيائى Physicalism على يد الوضعية المنطقية عندما نظرت الى كافة القضايا العلمية باعتبارها قابلة للترجمة الى لغة الفيزياء . وتميز نوراث Otto Neurath بين الوضعيين المناطقه باهتمامه الخـاص بالعلوم الاجتماعية ، فقد كان عالم اجتماع واقتصاد ، وبالتالى تركزت اغلب كتاباته حول موضوعات ومناهج ونظريات اجتماعية ، بالاضافة الى اهتمامه بتاريخ العلوم الاجتماعية .

وقد رفض نوراث فكرة وجود اى اختلافات جوهرية بين العلوم الطبيعية من جهة والأنظمة الاجتماعية والتاريخية من جهة اخرى . فلا يوجد اختلاف بين موضوعات الدراسة لأن الأفراد من البشر وكذلك المجتمعات لا تزيد عن كونها انسـقة فيزيائية Physical systems يقل أو يزيد تعقدها . وقد قام نوراث بوضع قائمة من التعبيرات الخاصة بالعمليات العقلية التى قد تؤدى الى اخطاء ميتافيزيقية والى خلط مثل : عقل mind وعقلى mental ودافع motive ، ومعنى meaning وأخرى مثل مادة matter وعلة ومعلول cause and effect

(93) Kolakowski. op. cit. p. 206.

وواقعة fact . وقد اعترض بشـــدة على القول بأن التقريرات statements تعبر عن وقائع واعتبر أن افكار فنجشتين الأولى عن بنــاء تعبيرات القضايا التى تعكس الوقائع التى تلائمها ، اعتبرها افكارا ميتافيزيقية . فقد رأى نوارث أن التقريرات النفسية والاجتماعية التى تحتوى تعبيرات عقلية اما انها تمتلك معنا علميا أو موضوعيا أولا تمتكله فاذا كانت بالفعل تمتلك هذا المعنى فان من الممكن تغييرها واحـــلال تقريرات ذات طابع فيزيائى مكانها(٩٤) .

ودعى نوارث الى العلم الموحد unified science الذى لا تقوم بجانبه « فلسفة أو ميتافيزيقا » . ولن يكون هذا العلم الموحد انجازا لفرد أو افراد وانما لجيل بأكمله . ولا بد أن يكون فى مقدور كل قانون فى العلم الموحد أن يرتبط فى ظروف محددة مع القوانين الأخرى ، وذلك بقصد التوصل الى صياغات جديدة . وكل القوانين سواء كانت كيمائية أم متعلقة بعلم المناخ Climatogical مثلا أو اجتماعية تمثل مكونات نسق ما هو العلم المحد(٩٥) .

ويذهب نوارث ابعد من ذلك فى نزعته الفيزيائية مطالبا بلغة موحدة، أى لغة فيزيائية موحدة Physicalostic unitary language من أجــل تكوين كافة التقريرات العلمية . واننا لنجد فى علم السلوك ، عند نوارث، أن التقريرات المتعلقة بظواهر الوعى والعملياتن العقلية قد تركت مكانها

(94) C. G. Hempel, Logical positivism in the social Sciences. in The Legacy of Logical positivism, ed . by p. Achnistein, and S. F. barker, Baltimore : The John Hopkins Press 1969 pp. 162 - 209. p. 169 .

(95) O. Neurath . Sociology and Physicalism in Logical Positivism . ed. by A. J. Ayer, Glencoe. The Free Press 195 pp. 282 - 317 p. 283 , 4 .

لكل من تقريرات الأحداث المحددة مكانيا وزمانيا مثل السلوك الواسع المدى Macrcscopic (متضمنا لأفعال الحركة والكلام) ، وتقريرات العمليات الفسيولوجية أو الفسيوكيمائية التى تحدث فى العقل وفى الجهاز العصبى . ويطالب نوارث باستبعاد التعبيرات العقلية أو الغائية أو أى تعبير غير فيزيائى . ويتمشى موقفه هذا مع تصوره للعلم باعتباره يهدف الى التنبؤ بأحداث جديدة قابلة للملاحظة استنادا الى تقريرات عن ملاحظات متاحة . وبناء على هذا يرى نوارث اعادة صياغة كافة العلوم التجريبية فى لغة فيزيائية موحدة . فمثلا علم النفس يتضمن نظريات هامة مثل النظرية الجشتالطية ونظرية التحليل النفسى ، والنظريات السلوكية الا أن وضعها الحالى لا يتيح المقارنة فيما بينها أو الاتحاد معا وذلك بسبب استخدام كل منها للغة مختلفة وغير قابلة للربط . فاذا أمكن اعادة صياغة المعلومات التجريبية لهذه النظريات فى لغة فيزيائية موحدة فان ذلك سوف يؤدى الى تقوية النظريات ويمكنها من تطوير قدراتها التنبؤية(٩٦).

وقد اكد نوراث على امكانية التنبوء بالظواهر الاجتماعية بطريقة لا تقل فاعلية عما هو موجود فى العلوم الأخرى . ويتم ذلك اذا استطعنا تسجيل مختلف الأنماط الثابته للسلوك ثم الكشف عن الشروط التى تحدد ظهورها وانتشارها ثم انهيارها . ولن يتأثر هذا الا اذا رفضنا النظر الى العلوم الاجتماعية باعتبارها تتعامل مع اهداف او غايات انسانية أو خبرات أو تطلعات أو شخصيات ، وانما هى تتعامل فقط مع سلوك الأجسام البشرية Human organisms . ومن هنا فعلى هذه العلوم أن نستبعد كافة التصورات المرتبطة بالوعى وما يشتق عنه وتقوم فقط بدراسة الاطرادات الملاحظة للسلوك الانسانى مؤكدة على العلاقات القابلة للقياس بين مختلف ابعاد السلوك(٩٧) .

---

(96) Hempel. op. cit. pp. 170 - 72.

(97) Kolakowski op. cit. p. 221 .

وقد شاب تصور نوراث للنظام العلمى رنه برجماتية ذرائعية ، فكثيرا ما ذكر التنبوء بالظواهر التجريبية فى كتاباته باعتباره الهدف الأساسى للنظام العلمى ، مستبعدا كهدف فهم العالم فى حد ذاته . ولحرصه على سلامة التنبوء اكد على اهمية دمج مختلف الأنظمة فى نسق واحد ، فلكى نتنبىء باحداث فريدة ، نحتاج الى تجميع معلومات مستقاة من فروع عدة فى العلم التجريبى : الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ، وكذلك علم النفس وعلم الاجتماع(٩٨) .

وقد اتفقت آراء رودلف كارناب **Rudolf Carnap** مع الأفكار الرئيسية للاتجاه الفيزيائى كما تبلور لدى نوراث ، الا انه عدل من هذه الأفكار لتتمشى مع طابعه الفلسفى الخاص المتميز عن نوراث . لقد كان كارناب دقيقا فى صياغة افكاره الفلسفية وفى تقديم أدلة لتأكيدها ، لذا طالب بتعريف كافة التعبيرات العلمية بواسطة تعبيرات فيزيائية ، وبترجمة كل الجمل العلمية الى جمل فيزيائية ، على ان يؤخذ فى الاعتبار ان التعريفات والترجمات ليست قائمة فقط على حقائق منطقية او تحليلية وانما تقوم فى بعض نواحيها على قوانين تجريبية .

ثم غدل كارناب من آرائه بالنسبة للاتجاه الفيزيائى فجعل تعبيرات العلم التجريبى ترتبط بمفردات لغة الفيزياء بواسطة جمل الرد أو الاختزال **reduction** وليس بواسطة التعريفات . ثم تراجع كارناب اكثر من ذلك عندما تنازل عن رد كل التقريرات أو القضايا العلمية الى لغة الفيزياء . وقد ادى به هذا الى اضعاف الاتجاه الفيزيائى وجعله قائما على مجرد رد التعبيرات العلمية الى تعبيرات الفيزياء ثم الاكتفاء بردها الى محمولات الأشياء الملاحظة **observational thing predicates**

(98) Hempel op. cit. p. 173.

(99) Ibid. p. 182, 3.

واعتبرت النزعة الفيزيائية أن الظواهر التى تفسر فى ضوء القوانين البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية قابلة للتفسير فى ضـــوء القوانين الفيزيائية وحدها • وهكذا توصلوا الى القول بامكانية استنباط كافة القوانين البيولوجية والنفسـية والاجتماعية من القوانين الفيزيائيـــة ـ ان لم يكن هــذا ممكنا الآن فسوف يتم فى المستقبل • ويرى فيجل اننا لا نستطيع أن نكون جامدين بازاء هذا الموضوع ، فاذا كانت العلوم البيولوجية والنفسية والاجتماعية قد توصلت الى نظريات ناجحـــة فى مجالها فليس علينا أن نفرض رد هذه النظريات فى الوقت الحالى الى نظريات الفيزياء • الا أن علينـــا أن ندرك أن هنـــاك أدلة تاريخيـــة وتجريبية ونظرية تؤيد الاتجاه الفيزيائى ، بدليل الدراسات العديدة عن مســـتويات التفســـير (مثل مســـتويات الوصف والقوانين التجريبيـــة والنظريات) فى مختلف فروع العلم • وتكشف هذه المستويات عن اتجاه النظريات للتلاقى فى مخطط موحـــد **Unitary scheme** • والدليل على ذلك هو تحقيق قـــدر من الوحدة بين كل من الميكانيكا والفـــلك والسمعيات **acoustics** والديناميكا الحرارية **Thermdynamics** والبصريات **optics** والكهرباء المغناطيسية والكيمياء متمثلة فى نظريات النسبية والكم **Quanta** • وتبدو البيولوجيا من خلال الفيزياء البيولوجية ، وكل من البيوكيمياء وعلم النفس من خلال الفسيولوجيا متابعين لنفس الاتجاه ، وهو تحقيق قدر من الوحدة(١٠٠) •

واذا كانت الوضعية متمثلة فى الاتجاه الفيزيائى قد طالبت بوحدة اللغة ووحدة القوانين فان النتيجة الطبيعية لذلك هى القول بوحدة المنهج

---

(100) H. Feigl . Unity of Science and Unitary Sciance. in Readings in the Philosophy of Science, ed . by H. Feigl and M. Brodbeck, 1953 pp. 382 - 384, p. 383.

بين مختلف العلوم . وقد ظهر هذا الاتجاه ليعارض من يقولون باختلاف الأنظمة العقلية والثقافية عن العلوم الطبيعية استنادا الى وجود اختلافات أساسية بينها فى المناهج اللازمة لتأكيد وتفسير الوقائع موضع الدراسة : ان التجريبية المنطقية أو الوضعية المحدثة ترفض وجود مثل هذا الاختلاف وترى أن تفسير الظواهر الاجتماعية لا يختلف عن تفسير الظواهر المادية .

وقد شاب الفلسفة البراجماتية العملية جانبا وضعيا تمثل فى الاتجاه الذرائعى . فبدأ شارلز ساندرس بيرس (١٨٣٨ ـ ١٩١٤) بالتمييز بين المسائل المصاغة بعناية والمسائل الخيالية ، وبين الاجابات ذات القيمة والاجابات الخالية من القيمة ، وبين الموضوعات الواقعية والموضوعات اللفظية . لقد بين بيرس فى احدى مقالاته الهامة وهى « كيف نجعل افكارنا واضحة » سنة ١٨٧٨ :- ان العلم له قواعد منهجية مشتركة تتمثل فى قواعد الوضوح والنقد والقابلية للتثبت والموضوعية ويمكن للفلسفة ان تصل الى مكانة العلم اذا تخلصت من التعبيرات التى لا معنى لها ، والموضوعات المصاغة صياغة زائفة .

ان معنى أى تقرير نقبله ـ فى رأى بيرس ـ يكمن فى سلوكنا العملى او فى استعدادنا للسلوك بطريقة معينة . ولكى نجد معنا لهذا التقرير لا بد أن نتساءل عما اذا كان هذا التقرير يؤثر على افعالنا وتوقعاتنا . ولكى نصل الى ذلك يكفى أن ننظر الى النتائج العملية المترتبة على قبوله . والهدف من هذا يكمن فى التوصل الى معيار يمكننا من التعامل مع الموضوعات التى تحتمل الاجابة ، وذلك بدلا من تبديد الجهود فى موضوعات لا تستحق البحث وليس لها حلولا ، كما فعل البعض لقد رأى بيرس ان افضل معيار للتمييز بين الموضوعات الواقعية وغير الواقعية يكمن فى التطبيق العملى Practical applicability (١٠١) .

(101) Kolakowski Op. cit. p. 184.

لقد أراد بيرس باتجاهه الوضعى التخلص من القول بوجــود اختلافات بين العالم كما نلاحظه وصفات ذلك العالم الذى يدعى البعض أنها مختفية ، فالعالم فى نظره لا يحتوى على اسرار وانما على مشاكل قابلة للحل • أما القول بوجود اختلافات بين الظاهرة والجوهر ، بين الصفات التجريبية وطبيعة الأشياء فهى لا تزيد عن كونها تفرقة لفظية • والممارسة هى المحك للكشف عن الطابع الزائف لهذه التفرقة التى اذا أخذ بها فانها ســوف تؤدى الى تدمير التفكير الانسانى بل والحياة نفسها وكذا عالم القيم • اذن يمكن النظر الى بيرس كرائد للنزعة العلميـــة scientism وهى النزعة التى ترى ان اى سؤال غير قابل للاجابة بواســطة مناهج العلوم الطبيعية والاستنباطية هو سؤال غير شرعى ، وكل اجابة على مثل هذا الســؤال تفتقد أيضــا الشرعية واكثر من ذلك تكون خالية من المعنى(١٠٢) • ويمكن من هنا ان ندرك أن بيرس قد اعتبر العلوم الاجتماعية جزءا من العلم الطبيعى والا لمــا استحقت الدراسة •

واذا كان بيرس قد وضع العلوم الطبيعية فى مكانة متميزة باعتبارها تقــوم بالبحث عن الحقائق العلمية المستقلة عن ذواتنـــا ، فان وليم جيمس (١٨٤٢ ـ ١٩١٠) قد اعتبرها موجودة لتبرير التفسير البيولوجى للانسان ، ليس فقط فى وجوده المــادى وانما أيضا فى سلوكه الفكرى ، وفى انجازه العلمى والمنطقى ، وفى داخل الضرورة البيولوجية • لذا قال بالنفع الذى يعود على أفعالنا من وراء حكم أو تقرير معين • وعلى حين رأى بيرس أن الأحكام والتقريرات الصادقة تكشف عن صدقها بواسطة الأفعال الفعالة التى تفترض صــدق الأحكام أو التقريرات ، فقــد أكـد جيمس أن الشىء الصــادق هو الذى يعود علينا بالنفع بطريقة ما ، وأى تصورات أخرى للحقيقة أو للصدق لا معنى لها • وقد أدى هذا الرأى بجيمس الى القول بأن الحقيقة لا تكمن فى اتساق تقريراتنا مع وضــع

---

(102) Ibid. p. 187.

الأشياء وانما فى اتســاق تقريراتنا مع الفائدة العائدة علينا اذا قبلنا هذه التقريرات : وهذا هو التأويل البيولوجى · ويؤدى هذا المنهج الى النسبية الشـاملة ، فان حكما واحدا قد يصبح صادقا او كاذبا حسب الموقف الذى يصاغ فيه · ان العلم فى نظر جيمس ليس مجموعة حقائق بالمعنى التقليدى الميتافيزيقى وهو ليس بمتعال ، وانما هو عبارة عن مؤشرات عمليـة يكون لها معنى اذا نفذت ، وتكون صـادقة اذا ساهمت فى تدعيم الحياة ومضاعفة الطاقة واتاحة الاشباع(١٠٣) ·

وقد رأى ديوى (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) ان المنظور الذرائعى مفيـد بالنسبة لأفكارنا عن العالم وعن القيم وعن انظمتنا الاجتماعية والسياسية · ومعنى ذلك أن الأسئلة التى نثيرها ، قبل رفضنا او قبولنـــا لحكم أو تقرير ما ، هى أسئلة عن هدف بعض الأنشطة الاجتماعية · وبالتالى فان أحكامنا تنقسم الى أحكام سليمة **satisfactory** وأحكام غير سليمة **unsatisfactory** وذلك بازاء الهدف المراد تحقيقه أى أنها أما أن تؤيد الأفعال المؤدية الى هذا الهدف أو ترفضها · ويمثل هـذا ، الصدق والكذب بالمفهوم الذرائعى · الا أن اهتمام ديوى انصب أسـاسـا على الحياة العامة وليس على الفرد ، ولذلك فقد أيد المعيار او المحك المرتبط بالحاجة الجمعية الذى يتيح لنا التوصل الى معيار للاختيـار الجمعى ·

ولم يرى ديوى اى اختلاف بين المعرفة والتقييم ، فالمعرفة ككل ليست الا تقييما ، اى محاولة لاعطاء وصف « جيد » للواقع من وجهة نظر السلوك العملى · ولمـا كان النفع فى نظره هو نفع اجتماعى فان الصـدق يصبح وسيلة او ذريعة لتحقيق الفعل الاجتماعى وليس وسـيلة لبلوغ غاية الفرد(١٠٤) ·

---

(103) Kolakowski op. cit. p. 190.
(104) Ibid. p. 188 - 189.

لقد حاول البرجماتيون مثل التجريبيين أن يربطوا التفكير فى العالم بتصور الخبرة التى تسبق الكليات كلها . لذا قاموا باستبعاد الأسئلة التى لا اجابة لها . الا أن وليم جيمس كان يذهب أحيانا الى القول بوجود معلومات صادقة قد لا يكون لها وظيفة فى الوقت الذى توجد فيه وانما تستأهل الاحتفاظ بها لحين الانتفاع بها فى المستقبل . ولم يذهب أصحاب المذهب العملى الى القول بصدق الأحكام بناء على اختبارها بواسطة نجاح أو فشل التنبوءات كما يقول التجريبيون ، وانما اكتفوا باعتبار الحكم ذو معنى اذا استطعنا أن نفعل « شيئا »(١٠٥) .

وتضع الوضعية متمثلة فى الاتجاه الطبيعى naturalism مسلمات عن الواقع وعن المعرفة تنطبق على كافة العلوم . وتقوم المسلمة الأولى على أن المعلومات أو الخبرات التى تهم الانسان تتكون فى استجابات الأجسام فى البيئة . وتقوم المسلمة الثانية على أن الرموز symbols تخترع من أجل التعبير عن تلك الاستجابات ، وهى فى العادة لفظية . وتقوم المسلمة الثالثة على القول بأن تلك الرموز هى معلومات علمية متاحة أمام كل معرفة وبالتالى لكل العلوم . وتقوم المسلمة الرابعة على أن كل قضايا أو مسلمات الوقائع الأساسية تتكون من استدلالات inferences ، وتعميمات generalizations وتجريدات abstractions مستنتجة من الرموز أو من الاستجابات التى تمثلها الرموز . وتقوم المسلمة الخامسة على أن هذه الاستنتجات بدورها تمثل رمزيا ، وعلى أننا نستجيب لها كما نستجيب للظواهر الأخرى التى تستدعى السلوك(١٠٦) .

ومن هذا المنطق وضع الطبيعيون مبادىء التفسير السليم ، وهو

---

(105) Ibid. p. 184.

(106) Lundberg op. cit. p. 40 - 41.

يبدأ من ملاحظة الباحثين لما يحدث ، واذا أمكن فانهم يتحكمون تجريبيا للوصول الى ملاحظات افضل للحدث موضع الدراسة ٠ ويساعد هذا على صياغة النظريات التى تتيح التنبؤ بالأحداث المستقبلة ٠ الا أنه لا يمكن التنبؤ أو التحكم الا اذا حدث فهم شامل للظاهرة موضع الدراسة ٠ ويعنى هذا الفهم ادراك حدوث الظاهرة على أساس من القوانين والنظريات وتتميز التفسيرات العلمية فى أنها لا تقبل على أساس من السلطة أو التقاليد ولا تقيم فى ضوء شعبيتها أو مكانة المؤيدين لها ، وانما تقبل ، حسب متطلبات العلم ، على أساس النفع البراجماتى أو العملى ، اى تأثيرها فى المساعدة على التنبؤ والتحكم ٠ ان من خصائص التفسيرات العلمية ان دعواها تتجاوز المعلومات الملاحظة من قبل ، وهدفها هو التنبؤ بملاحظات لم تحدث من قبل أكثر منها وصف لاحداث الماضى(١٠٧) ٠

ان الاختلافات المدعى وجودها بين طرق التفسير فى كل من العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية زائفة فيما يرى همبل C. G. Hempel ان تفسير حدث فردى فى العلوم الطبيعية يعنى تفسير تكرار حدوث خاصية معينة (مثل ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاض ضغط الدم ... الخ) وذلك فى مكان محدد وفى وقت معين أو فى خلال فترة زمنية معينة ٠ وهذا التفسير لا يعنى مراعاة كافة الخصائص المتكررة للواقعة المحددة ولنسمها (ع) ، لاننا لو فسرنا كل المظاهر العامة للواقعة (ع) كان معنى ذلك هو تفسير كل واقعة فردية فى العالم سواء فى الماضى أو فى الحاضر أو فى المستقبل ٠ ولا شك أنه من المستحيل الحصول على هذا النوع من التفسير للحدث الواقعى فى « تفردة » سواء فى مجال علم الاجتماع أو فى مجال الفيزياء ، وحتى الوصول الى معناه الدقيق يمثل مشكلة ٠ ومن هنا فان ما ينبغى علينا أن نقوم به هو مجرد تفسير حدوث الخاصية

---

(107) Lundberg, G. A. Sociology. New York : Harper & Row Publishers 1963, p. 47.

المتكررة ولنطلق عليها (و) التى تحدث للواقعة (ع) ، وذلك مهما كانت درجة تعقدها . ولكى نصل الى تفسير له معنى فى العلوم الاجتماعية، فعلينا ــ مثلا اذا كنا بصدد تفسير الرأسمالية الغربية ــ أن نقوم بما نفعله اذا كنا بصدد تفسير خسوف الشمس الذى حدث فى ١٨ مارس ١٩٥٨ . ففى الحالتين نجد بعض الخصائص ــ المشار اليها بالرمز (و) ــ تحتاج الى تفسير . وتتمثل هذه الخصائص بالنسبة لحالة كسوف الشمس فى شكل الكسوف ، ومدته ، وقابليته للرؤية ... الخ ، الا أننا يجب أن نضع فى اعتبارنا وجود خصائص اخرى عديدة لا ننوى الاهتمام بها (مثل عدد الصحف التى قامت بوصف الحدث) ، ويجب أن نلاحظ أن الخاصية (و) التى نقوم بتفسيرها لازالت فريدة بمعنى ان الواقعة (ع) لا تكرر . وحتى اذا كان فى مقدورنا ان نتصور وجود أمثلة أخرى للخاصية (و) ، على الاقل من الناحية المنطقية ، الا ان هذه الأمثلة لا تملك الموقع الزمانى ولا المكانى للواقعة (ع)(١٠٨) .

ويأخذ همبل والوضعيون بالنموذج الاستنباطى للتفسير(١٠٩) ، المتمثل فى اعتبار الحدث الفريد الذى تقوم بتفسيره مستنتجا من مجموعة احداث أخرى واقعية سابقة او مصاحبة ، استنادا الى قوانين عامة أو مبادىء نظرية . ومن ثم فقد نظر همبل الى « الانماط المثالية » Ideal types (١١٠) ، التى قدمها علماء آخرون من أجل تفسير

---

(108) C. G. Hempel . Aspects of Scientific Explanation . 1985 p. 163.

(١٠٩) تحدثنا بالتفصيل عن هذا النموذج فى الفصل الثانى من الرسالة .

(١١٠) عرفها همبل بانها « نماذج أو انماط تكونت على اثر عزل بعض المظاهر الواقعية التجريبية المبالغ فيها . وهى تصورات حدية لا توجد لها امثلة مطابقة فى الواقع وانما قد توجد لها بعض الصور التقريبية » . المرجع السابق ، ص ١٦٠

الوقائع الاجتماعية ، باعتبارها انظمة نظرية محتوية على فروض عامة قابلة للاختبار • وقد حدد هبل مجموعة من القواعد للوصول الى هذه النتيجة وتتمثل فى :

(أ) تحديد قائمة من الخصائص لتتعامل معها النظرية •

(ب) تكوين مجموعة من الفروض فى ضوء تلك الخصائص •

(جـ) اعطاء تلك الخصائص تأويلا تجريبيا يحدد للنظرية مجالا خاصا للتطبيق •

(د) ادخال النسق النظرى فى نظرية اكثر شمولا باعتباره « حالة خاصة » • وتعتبر هذه القاعدة الأخيرة هدفا بعيد المدى(١١١)

وهكذا أمكن لهمبل باعتباره فيلسوفا وضعيا استخدام النماذج أو الأنماط المثالية كطريقة للتفسير فى العلوم الاجتماعية بعد أن جردها من محتواها الذاتى ثم طبق عليها منهجه العلمى •

وقد ارجع فيلسوف العلم ناجل **Ernest Nagel** الوضع المتأخر للتفسير فى العلوم الاجتماعية واعتماده الرئيسى على التعميمات الاحصائية ، ارجعه الى اللغة المستخدمة فى الدراسة والى تخلف الأساس النظرى ، أى النظرية • ان ناجل يرى ، على عكس ما هو شائع ، أن تعقد موضوع الدراسة الاجتماعى وتدخل العامل الذاتى المتمثل فى الارادة الانسانية لا تمثل تبريرات كافية • وفى رايه ان الاهتمام يجب أن يركز على تعديل العبارات المستخدمة فى الدراسة الاجتماعية التجريبية وتعديل النظرية •

ان اللغة المستخدمة حاليا مأخوذة فى اغلب الأحيان من سياق الحياة اليومية الذى يدور حول مسائل اجتماعية • ثم تستخدم هذه اللغة

(111) Ibid. p. 171.

فى التعميمات التجريبية مع اعادة تعريف مبسط لمعناها . ويترتب على ذلك ان تكون العبارات المستخدمة فى البحث الاجتماعى التجريبى محتوية على معان غير محددة . ومن هنا تنتهى الى تعميمات مكونة من أحكام ذات علاقات احصائية بدلا من ان تتكون من علاقات ثابتة ومترابطة Invariable relations of dependence . واقتراح ناجل هو تطوير التصنيفات لتصبح اكثر تعبيرا عن الظاهرة الاجتماعية . وذلك بهدف اقامة قوانين اجتماعية عامة(١١٢) .

اما عن النظرية الاجتماعية فيرى ناجل انه على الرغم من تغير وعدم ثبات الظواهر الاجتماعية الا أنها من الممكن ان تندرج تحت نظرية عامة . ويحذر ناجل من أن تكون هذه النظرية هى عبارة عن نظرية للتطور التاريخى تتتابع حسبها المجتمعات والأنظمة فى سلسلة من التغيرات الحتمية . فمن الخطأ البحث عن نظرية اجتماعية عن طريق مجرد رصد لنمو الحضارات ثم انهيارها . وانما على النظرية الاجتماعية أن تكون مجردة تجريدا تاما حتى تستوعب كافة الاختلافات الحضارية فى السلوك الانسانى . ومن الضرورى ايضا أن تبتعد تصوراتها عن الشىء المألوف وعن السمات البديهية فى مجتمع ما ، وسوف تتضمن صياغتها استخداما لطرق متطورة ، اما عن طريقة تطبيقها على الأشياء الواقعية فتحتاج الى تدريب معين من طراز متقدم . واهم شروط تكوين النظرية يتمثل فى احتوائها على منهج لتقدير البداهة لا يعتمد على استبصارات ذاتية أو حدوس شخصية(١١٣) . ومن الطبيعى أن نجد أن ناجل فى النهاية يؤكد على كون هذه النظرية الاجتماعية امتدادا لنظريات العلوم الطبيعية من حيث منهج صياغة التصورات أو تقدير البداهة ، فان ناجل يأخذ بالاتجاه الطبيعى فى اطار فلسفة وضعية شاملة .

(112) Nagel. Structure of Science op . cit. pp. 506 - 8.

(113) E. Nagel, Problems of Concept and Theory Formation in the Social Sciences in Natanson op. cit. p. 209.

وقام بوبر (١٩٠٢ -) Karl popper باعتباره فيلسوفا طبيعيا ، وان كان تعرض بالنقد للوضعية كما سنرى فيما بعد ، قام ببيان أن التفسير العلمى أو التنبؤى لحادث معين هو استنباط قضية تصف هذا الحدث من نوعين من المقدمات : بعض القوانين الكلية ، وبعض القضايا المخصوصة او المعينة التى يمكن ان نطلق عليها « الشروط الأولية المعينة » . ولا يقبل هذا التفسير العلمى من الوجهة العلمية الا اذا كانت القوانين الكلية قد حازت مرحلة الاختبار أو التأييد ، وكان لدينا ايضا بينه مستقلة تشهد بصدق الغلة ، أى الشروط الأولية .

لقد طالب بوبر كما طالب كافة الوضعيين بوحدة المنهج بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ، ولذا اهتم بالنظرية لأنه رأى ان عليه مهام عديدة اهمها المساعدة فى توحيد العلم وفى تفسير الوقائع والتنبوء بها . بل لقد خطى بوبر خطوة اخرى بدعوته الى التثبت من النظريات فى مختلف مجالات البحث عن طريق اخضاعها لأقسى أنواع الاختبار ، فينبغى أن تحاول اكتشاف وجود النقص فيها ، وينبغى ان نحاول تكذيبها . وهذا هو السبب فى ان اكتشاف الشواهد المؤيدة للنظرية يكاد لا يكون له شأن الا اذا حاولنا اكتشاف ما يكذبها وفشلنا فى هذه المحاولة . ذلك أننا اذا لم نتخذ ازاء النظريات موقفا نقديا ، فسوف نعثر دائما على ما نريد : اى نتا سنبحث عما يؤيدها وسنجده ام سنصرف النظر عن كل ما يمكن أن يهدد النظريات التى نفضلها فلا تقع عليه ابصارنا ، وهكذا يسهل الحصول على ما يبدو لنا أنه بينة هائلة على صدق نظرياتنا ، ولو نظرنا الى هذه النظريات نظرة تقديرية ليتبين لنا كذبها . واذن فاذا أردنا أن نضمن البقاء للنظريات الصالحة وحدها فعلينا أن نجعل كفاحها من أجل الحياة عسيرا . كل ذلك لا يصدق على العلوم الطبيعية وحدها ، بل يصدق أيضا على العلوم الاجتماعية . بل أن عجزنا من رؤية الأشياء قبل التفكير فيها يكون اكثر وضوحا فى العلوم الاجتماعية منه فى العلوم الطبيعية . ذلك لأن معظم الأشياء

التى تدرسها العلوم الاجتماعية ، بل ان لم تكن كلها ، هى اشـياء مجردة ، فهى مركبـات نظرية . (ويصدق هذا الوصف على مفاهيم مثل « الحرب » أو « الجيش » ، فهما مفهومان مجردان ، وان بدا ذلك غريبـا لبعض النـــاس ، اما العينى فهم الأفراد الكثيرين الذين يقتلون) . وهذه الأشياء أو المركبات النظرية المســتخدمة فى تأويل التجربة ، قد نتجت عن تركيبنا للنماذج المعينة (وبخاصة نماذج النظم) بقصد الاستعانة بها فى تفسير التجارب المعينة(١١٤) .

وقد أدرك بوبر أنه لا توجد نظرية يمكن أن نقول عنها أنهــا الحقيقة النهائية التى تفسر كل شىء ، فكل ما يمكن أن نقوله ان الملاحظات التى نجربها تؤيد النظرية وانها تعطى تنبؤات درجة دقتها مرتفعة . وتظل النظرية قابلة لأن تحل محلها نظرية افضل اذا توفرت(١١٥) . ان النظرية الأصيلة تضع نفسـها دائما محل مخــاطرة ، والتكذيب Falsifiability هو معيار التمييز .... Criterion of demarcation بين العلم وما ليس كذلك .

وفى الواقع أن موقف بوبر من التفسير فى العلوم الاجتماعية يعد تطويرا للاتجاه المنطقى ، فعلى الرغم من تأكيده على ضرورة استخدام النموذج الاستنباطى فى التفسيرات العلمية بما فيها التفسيرات الاجتماعية ، فانه لم يجد تعارضــا فى القول ببناء نماذج لتفسيرات العلوم الاجتماعية اطلق عليها « المنهج الصفرى » Zero Method وبتكوين ما يســـمى « منطق الموقف » فى تفسيرات التاريخ .

---

(١١٤) كارل بوبر : عقم المذهب التاريخى : ترجمة د. عبد الحميد صبره ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٥٩ ، ص ١٦٢ ، ص ١٦٤

(115) B. Magee, K. Popper . Glasgow : William Collins Sons and Co. 1975 p. 28 .

وقد قام « المنهج الصفرى » على فكرة بوبر بأنه يوجد فى معظم المواقف الاجتماعية ، ان لم يكن فيها كلها ، عنصر عقلى . نعم أن الناس يكادوا لا يعملون قط بما يطابق العقل تمام المطابقة ، ولكنهم مع ذلك يعملون بما يتفق والعقل فى كثير أو قليل ، وهذا من شأنه أن يمكننا من تركيب نماذج بسيطة نسبيا تمثل افعالهم وتفاعلتهم ، وهذه النماذج يمكن استخدامها بوصفها صورا تقريبية للواقع . لقد وجد بوبر اننا نستطيع فى العلوم الاجتماعية أن نستخدم منهجا يمكن تسميته بمنهج التركيب المنطقى او العقلى ، أو « المنهج الصفرى » . وهو منهج يقوم على تركيب النماذج بناء على افتراضنا المعقولية التامة (وربما افترضنا ايضا المعرفة التامة) فى جانب كل الأفراد الذى يحتويهم موقف معين ، ثم نقدر انحراف السلوك الفعلى لهؤلاء الأفراد عن سلوك النموذج ، باعتبار هذا السلوك احداثيا قيمته صفر . ومن امثلة المنهج المقارنة بين سلوك الناس الفعلى (الخاضع ، مثلا لتأثير الأحكام السابقة الموروثة ، وما الى ذلك) وبين السلوك النموذجى الذى نتوقعه بناء على « منطق الاختيار البحت » كما تصفه المعادلات الاقتصادية(١١٦) .

وقد ذهب بوبر الى التمييز بين العلوم التعميمية كالعلوم الطبيعية وعلم الاجتماع من ناحية وبين التاريخ من ناحية أخرى ، ففى مجال التاريخ نجد انفسنا بازاء « موضوع دراسة محدد » . والتفسير التاريخى - فى رايه - لا يستخدم كثيرا القوانين الاجتماعية والنفسية بقدر استخدامه « لمنطق الموقف » . وهذا يعنى أنه يفترض بجلاء ، بجانب الشروط الأولية التى تصف الاهتمامات الشخصية كالأهداف والعوامل الأخرى الموقفية مثل المعلومات المتاحة للدارس ، يفترض نوعا من التقريب الأولى ، أى القانون العام البسيط الذى يقوم على القول

---

(١١٦) كارل بوبر : مرجع سابق ، ص ١٧٠

بان الشخص السوى ، كقاعدة ، يتصرف بطريقة عقلية الى حد ما(١٤٧) .

واذا كان الوضعيون قد اتفقوا على ان النموذج الاستنباطى هو الشكل السليم للتفسير فى كافة العلوم كما اكدوا على اهمية النظرية الاجتماعية ، الا ان آرائهم تعددت حول القضايا العامة التى تفسر الظواهر فى ضوئها ، هل هى قضايا اجتماعية ام نفسية ؟ لقد راى هومنز Georges Homans اننا لا نستطيع أن نفسر كل شىء ، لأننا لا نستطيع الحصول على معلومات كافية عن الظروف المحددة التى تطبق القضايا العامة فى ضوءها . وكل ما فى الأمر هو اننا حين أننا نفسر (سـواء فى التاريخ ، او فى الاقتصـاد او فى علم الاجتماع) فان مبادئنا العامة تبدو على شـكل نفسى . لقـد قال هومنز بمبدأ « الفردية المنهجيـة Methodological individualism ، وهو مبـدأ يقوم على القول بأن العالم مكون من افراد تتحرك فى ضوء استعداداتها وفهمها للموقف . وكل موقف اجتماعى معقد او نظام او حدث ليس الا نتيجة لشكل او وضع معين للأفراد ، واستعداداتهم ، ومواقفهم ، ومعتقداتهم ، وامكانياتهم المـادية واخيرا بيئتهم(١١٨) . وقد اعتبر هومنز ان القضايا الأساسية للعلوم الاجتماعية كلها واحدة وهى نفسية ، فاذا قبلنا هـذا الراى ـ على حد قوله ـ فسوف نجد أن النتائج التى توصلنا اليها فى كل علم على حدة ، من خلال مناقشـة هذا العلم لمشكلته الخاصة ، تساهم فى حل مشاكل العلوم الأخرى(١١٩) .

وقد اختلف بوبر مع راى هومنز لانه راى مبدأ الفردية المنهجيـة ومبدأ المنهج الصفرى فى تركيب النماذج النظرية لا يستلزمان اتباع اى

(117) K. Popper . The Open Society and its Ennemies, Vol. II, London : Routledge and Kegan Panl 1962, p. 464.

(118) Homans, G. op. cit. p. 61.

(119) Ibid. p. 23 .

منهج نفسى ، فعلم النفس والعلوم الاجتماعية الأخرى مستقلون ، كل بموضوعه المتمثل فى نوع معين من الوقائع التى تحتاج الى مجموعات مختلفة من التقريرات العامة من أجل تفسيرها . وعلى هذا الأساس تكون العلوم الاجتماعية متحررة نسبيا من الاعتماد على الفروض النفسية ، وعلم النفس واحد من العلوم الاجتماعية وليس أساسا لها . وقد رأى بوبر أن المذهب المعارض الذى يقول برد النظريات الاجتماعية الى علم النفس على نحو ما نحاول رد الكيمياء الى علم الطبيعة انما هو مذهب يرتكز على فهم خاطىء . وفى استطاعتنا أن نقبل المذهب الفردى دون أن يضطرنا ذلك الى قبول المذهب النفسى(١٢٠) .

وهناك رأى ثالث يرفض كل من التقسيم والرد ويقول بعلاقة اعتماد متبادل بين القضايا النفسية والقضايا الاجتماعية . فالأنظمة الاجتماعية ، مثلا ، من الممكن أن تفسر اما فى ضوء أنظمة اجتماعية أخرى بالتوافق مع القوانين الاجتماعية ، أو تفسر فى ضوء أفعال فردية بالتوافق مع القوانين الخاصة بتفاعل الأفراد . كما سوف توجد عوامل اجتماعية وعوامل نفسية فى تفسير الأنظمة ، تماما مثلما توجد فى تفسير أفعال الأفراد(١٢١) .

وتعتبر المدرسة السلوكية Behaviorism فرعا من الاتجاه الوضعى فى مجال علم النفس . ويقوم هذا الاتجاه على الاعتقاد فى أن البحث النفسى والاجتماعى يعتمد فى وصفه وتفسيره على الوقائع الملاحظة ، وبالتالى على السلوك المادى للموضوعات التى يقوم بدراستها . وعلى هذا الأساس رفض السلوكيون منهج الاستبطان ، القائم على ملاحظة

---

(١٢٠) بوبر : مرجع سابق ، ص ١٨٧

(121) Q. Gibson. The Logic of Social Inquiry . London : Routledge and Kegan Paul, 1960. p. 105.

الذات ، الذى ظل يحتل مكانة مرموقة فى علم النفس التقليدى فترة طويلة ، باعتباره غير علمى ونتائجه لا تخضع للاختبار . وفى مواجهة ادعاء المؤيدين للاستبطان بأن السلوك البشرى لا يمكن فهمه اذا نظر الى البشر باعتبارهم موضوعات طبيعية ، اكد السلوكيون على ان منهجهم يقوم على الخبرة وحدها . ولذا قاموا ببيان فساد منهج الاستبطان . فهذا المنهج يقوم على سؤال العميل عن تجاربه فى مواقف تجريبية ثم تؤخذ استجاباته على انها معلومات . وتقع هذه الطريقة - فى نظر السلوكيين - فى اخطاء . فعندما يفكر الفرد (العميل) فى سلوكه فلا بد له ان « يعقلها » ، وبالتالى يحرفها . ويختلف نوع التحريف مع نوع الخبرة ، ومع التوازن الشخصى للعميل ، ومع شروط البيئة . وينتج عن هذا أن تكون التنبؤات عن سلوك الأفراد استنادا الى ما يقولونه عن انفسهم ، تكون فى العادة غير دقيقة(١٢٢) . وما دامت هذه التنبؤات غير قابلة للتحقق الذاتى ، فقد توصل السلوكيون الى أن العلم القائم على الاستبطان ليس علما حقيقيا ، لان من شروط القضايا العلمية ان تكون ممكنة الاثبات . وقد اثبتت الخبرة ان الملاحظة المنظمة لسلوك الحيوانات والأطفال فى ضوء مجموعة فروض بيولوجية وفسيولوجية تؤدى بنا الى تنبؤات للسلوك ممكن الاعتماد عليها . ويفضل هذا على مجرد سؤال الأفراد عن تجاربهم الخاصة .

ويرجع اتجاه علم النفس الى المنهج السلوكى الى تاثره بالتطور الداروينى فى البيولوجيا ، والى التفسيرات السببية الخاصة بتطور الأجسام فى علاقتها بالبيئة . وقد حاول السلوكيين ابتداء من واطسن واستمرارا مع نيل ميلر ، وسبنسر ، وتولمان ، وسكينر وغيرهم تغيير علم النفس وجعله فرعا من العلم الطبيعى . وقد أيد هذه الحركة ودعها

(122) F. Kaufman. Me thodology of the Social Sciences. New York : The Humanity Press 1938, p. 149.

بعض الفلاسـفة المنطقيين امثال كارناب وهمبل ـ فى بداية انتاجهم الفكرى ـ بواسـطة مبررات فلسفية ومنهجية ٠

ان اعتماد المنهج السلوكى على الملاحظة وحدها فى دراسـة السلوك ادى به الى استبعاد الخبرات الداخلية للانسـان باعتبارها ذاتية وخالية من المعنى ، ولذا تخلصوا من فئة « الوعى او الشعور » consciousness لغموضـه وعدم قابليته للملاحظة ٠ وقد راى سكينر أن من المقبول ، فى المنهج العلمى ، كمبدأ عام ، تدخل الباحث بدرجـة معينة فى الظاهرة أثناء ملاحظتها ٠ وقد ينتج عن هذا التدخل تاثيرا على السـلوك فلا بد للباحث أن يأخذ هذا التأثير فى الاعتبار ويحاول بقدر الامكـان الحد منه ٠

ويرى سكينر أن هناك تحكم فى الشروط والظروف المتعلقة بالسلوك البشرى فى الصناعة على شكل مرتبات وظروف عمل ، وفى المدارس على شكل درجات وظروف عمل ، وفى التجارة بواسطة أى شخص يملك البضاعة أو النقود ، وفى العيادة النفسـية على شكل موافقة الشـخص الخاضع لعملية التحكم ٠ هناك اذن فى العلوم الاجتماعية نسبة من التحكم الفعال لا يمكن كشفها بسهولة تكمن فى الكتاب والقائمين على أوجه الترفيه ورجال الاعلام والاعلان ٠ هذه الامكانية على التحكم تسمح بامتداد نتائج العلم المعملى ليشمل تفسير السلوك البشرى(١٢٣) ٠

ويبين سكينر خطأ النظر الى داخل الكائن للبحث عن تفسير للسلوك لأن هـذا يؤدى الى حجب المتغيرات ٠ وهذه المتغيرات توجد خارج الكائن ، فى المحيط المباشر وفى التاريخ المحيط ٠ وهى تملك كيانا واقعيا يسمح بتطبيق الوسائل العلمية عليها مما يجعلها قادرة على تفسـير

---

(123) B. F. Skinner. Isa Science of Human Behaviour Possible? in Philosophical Problems of the Social Sciences ed. by Brodbeck, D. 1965, pp. 19 - 26, pp - 25 - 26 .

السلوك . ويضرب سكينر مثالا على فساد النظر الى الحالات أو العوامل الداخلية من أجل تفسير السلوك : اذا قلنا أن شخصا ما يشرب الماء لشعوره بالظمأ وكان معنى الظمأ هو الميل الى الشراب فان هـذا يعتبر تحصيل حاصل ، اما اذا قلنا انه يشرب بسبب حالة الشعور بالعطش فان هـذا يعتبر اثارة لحادث سببى داخلى . فاذا كانت هذه الحالة الأخيرة استدلالية بحته اى لم يكن هناك وسائل تجعل الملاحظة المباشرة ممكنة فان هذا السبب لا يصلح كتفسير . أما اذا كانت هناك خصائص فسيولوجيـة أو نفسيـة Psychic فاننا نمضى الى السؤال : ما هو الدور الذى من الممكن ان تلعبه فى علم السلوك(١٢٤) ؟ وهكذا يقوم سكينر وغيره من السلوكيين باستبعاد كافة التفسيرات الداخلية ليستبقى فقط التفسيرات السببية الخارجية القائمة على الملاحظة المباشرة والتجربة المحدودة بأزاء السلوك الخارجى الظاهر ، وهكذا أصبح من الممكن تكوين مبادىء مفسره للأفعال الهادفة بواسطة عبارات سلوكية خالصة غير استبطانية .

ويطلق بوبر على هـذا المنهج اسم المنهج الفرضى الاستنباطى hypotical deductive method ...... أو منهج الفروض . وهو ذلك المنهج القائم على تقديم تفسيرات استنباطية سببية واختبارها عن طريق التنبؤ . والسبب فى وصف هذا المنهج بأنه فرضى يرجع الى أنه لا يقدم يقينا بالنسبة للأحكام العلمية التى يقوم باختبارها ، وانما تحتفظ هذه الأحكام دائما بالطابع الفرضى الخاضع للمحاولات على الرغم من أن المحاولات قد تتوقف بعد عديد من الاختبارات الصعبة(١٢٥) .

---

(124) B. F. Skinner. The Scheme of Behaviour explanations in Braybrook (ed.) op. cit. p. 44 .

(125) K. Popper. Unity of Method in the Natural and social Sciences in Braybrook (ed .) op. cit. p. 33 .

وقد مال بعض السلوكيين الى التطرف عندما رفضوا وجود ظواهر عقلية على الاطلاق ، فكانوا بذلك قريبين من النظرة المـادية(١٢٦) . فلم يقنع هؤلاء بتبنى المنهج الطبيعى فى علم النفس وانما مضوا الى القول بأن مهمة علم النفس تتمثل فى دراسة السلوك الانسانى والحيوانى بدون النظر الى الحالات العقلية « الخاصة » ولو حتى كفروض تقـع خلف المثيرات والاستجابات الملاحظة ، وقد برروا هذا الرأى عن طريق انكار وجود اى موضوع « خاص » بعلم النفس وجده . هذا الشـكل من السلوكية وتسمى السـلوكية المختزلة reductive behaviorism ليست الا وجه آخر للمادية القديمة : فلا يوجد ما يسمى بالوعى أو الشعور وانما كل ما هنالك سـلوك ، وميول للاستجابة على نحو معين تجاه مثيرات معينة ، وأخيرا عمليات عقلية ـ فسيولوجية داخل الجسم الانسانى والحيوانى . انهم لم ينكروا بالطبع الاختلاف اللفظى بين عقلى Mental ومادى physical الا انهم رأوا أن العمليات والحالات العقلية ليست الا انواعا خاصـة من العمليات والحالات المـادية . ويسعى اغلب مؤيدى هذا الاتجاه الى تطوير نظريات تتضمن تعبيرات تشير الى حـالات أو عمليات فيزيائية أو كيمائية أو فسيولوجية . وهكذا يستبعدون النظريات النفسـية التى ترمى الى تفسير السلوك الظاهر عن طريق الاشارة الى أحداث « عقلية » ـ مثلا النظريات التى تجعل الميول « الذاتيـة » أو الأهـداف سببا للسـلوك . وبهذا الشكل تكون السلوكية عبارة عن برنامج للبحث النظرى والتجريبى ، هدفه تحقيق نسق مدرك من أجل

---

(126) H. Feigl. Comparative Methodology of the Natural and the Social Sciences in Philosophy by R.M. Chisholm, H. Feigl, and W. K. Frankana, & others. New Jersey : Prentice Hall 1964, p . 523 .

تفسير الســلوك الانســانى عن طريق « رد » علم النفس الى علوم اخـرى(١٢٧) ٠

***

سادسا : نظرية نقدية الى اتجاه الوضعيات المحدثة والسلوكية

مما لا شك فيه أن اعجاب الوضعيين بالطفرة التى حدثت فى العلوم الطبيعية كان له أبلغ الأثر عليهم مما ادى بهم الى اضفاء مكانة خاصة على مناهج تلك العلوم ٠ ومن هنا طالبوا بمنهج علمى واحد مشترك بين كل العلوم بما فيها العلوم الاجتماعية ٠ كما وضعوا العلوم الطبيعيـة الدقيقة خاصة الفيزياء والرياضة كمثل اعلى منهجى يقيس درجة التطور فى كل العلوم ٠ واخيرا فقد اعتبروا كافة التفسيرات العلمية سببية أو علية متمثلة فى خضوع الحالات الفردية تحت قوانين عامة مفترضة للطبيعة ٠

وفى الواقع أن المدرســة الوضعية تعرضت لتيار نقدى لم يسـبق له مثيل فى تاريخ الفكر الانســانى ، وقد تراوح هذا النقـد بين التــأييد والمعارضة ٠ ولا شك أن للوضعية جانبا ايجابيا تمثل فى رفض المســائل الخاطئة ، والنظر الى الظواهر ودراستها كموضوعات محايدة محكومة بواسطة قوانين عامة صــادقة ، وذلك عن طريق دراسة الوقائع الموضوعية على غرار ما هو متبع فى العالم الطبيعى وفى ضوء الضرورة الموضوعية ٠ لقد قامت الوضعية بشكل عام بتوجيه الفكر نحو موضوعات واقعية والارتقاء بدور التجربة فى المعرفة ٠ ومما لا شك فيه أن الوضعية قامت بتحطيم كثير من الخيالات اللاهوتية والميتافيزيقية وســاعدت على تقدم التفكير ، خاصــة فى مجال العلوم الطبيعية(١٢٨) ٠

---

(127) Nagel. Structure of Science op. cit. p. 480.

(128) P. Marcus . Reason and Revolution . London : Routledge and Kegan Paul 1955 p. 326 .

وقد تعرضت الوضعية للنقد من الداخل ومن الخارج • فمن داخلها قام بوبر بشن هجوم شديد عليها لدرجة أن كثير من فلاسفة العلم والعلماء اعتبروه خارج اطار الاتجاه الوضعى بل واكثر من ذلك معارضا له(١٢٩) • وقد هاجم معيار التثبت لدى الفلاسفة الوضعيين ، فبهدف استبعاد الميتافيزيقا قام الوضعيون بايجاد مبدأ للتمييز criteria of demarcation بين التقريرات التى تخبرنا بشىء والتقريرات التى لا تفعل ذلك • وانتهوا الى نوعين من القضايا :

الأولى : خاصة بالمنطق والرياضيات ، وهى لا تعطى أى معلومات عن العلم التجريبى ، ويمكن الاقرار بصحتها دون الرجوع الى الخبرة •

والثانية : تقريرات تعطى معلومات عن العالم التجريبى ويمكن التثبت منها عن طريق الملاحظة •

وقد اقام بوبر هجومه استنادا الى مجموعة من الحجج :

أولا : رأى بوبر ان التقريرات المفردة يجوز التثبت منها ، أما التقريرات العامة فهى مثل القوانين العلمية ليست قابلة للتثبت ، وبالتالى فان معيار التمييز يقوم بهذا الشكل باستبعاد ليس فقط الميتافيزيقا ولكن ايضا كل العلم الطبيعى •

ثانيا : ان مبدأ التثبت ادان الميتافيزيقا كلها باعتبارها غير ذات معنى ، بينما نتبين تاريخيا أن العلم قد نشأ من الميتافيزيقا ، من التصورات الخرافية والأسطورية والدينية • والفكرة غير القابلة للاختبار

---

(١٢٩) وفى الواقع اننا فى هذه الدراسة نظرنا الى الفيلسوف كارل بوبر باعتباره امتدادا متطورا للاتجاه الوضعى فى شكله الطبيعى naturalism .

حاليا وتعتبر ميتافيزيقية قد تصبح قابلة للاختبار وتصبح علمية حينما تتغير الظروف الموجودة • وحتى فى حـالة عدم خضـوع هذه النظريات للاختبار فانها تظل قابلة للمناقشـة والمفاضلة فيما بينها •

ثالثا : اذا قلنا مع الوضعية أن التوكيدات القابلة للاختبار ، والتى هى تحصيل حاصل ، تعتبر وحدها ذات المعنى ، فان أى مناقشـة عن تصـور « المعنى meaning » لا بد بالتالى أن تحوى تقريرات لا معنى لها(١٢٠) •

لذا قال بوبر بوجود عوالم ثلاث : الأول موضوعى ، وهو خاص بالأشـياء المـادية ، والثانى ذاتى ، وهو مكون من العقول minds والثالث مكون من أبنية موضوعية ، وهذه الأبنية وان كانت نتاج للعقول والكائنات الحية الا انها تستمر مع ذلك مستقلة عنها • ويعتبر هـذا العالم الثالث هو عالم الأفكار ، والفن ، والعلم ، واللغة ، والأخلاق ، والأنظمة(١٣١) •

ويرى النقاد أن العلم الاجتمـاعى الوضعى لم يتجاوز المرحلة التخطيطية ، حقيقة أن الوضعيين اهتموا باللغة وقدموا دراسات قيمـة عن لغة العلوم الاجتماعية ، ولكن هـذا الاتجاه ، وان كان هاما لكونه يتيح أدوات للدراسـات الانسانية ، الا أنه لا يتضـمن تطبيـقا لتـلك الأدوات(١٣٢) • وحقيقة أنهم حددوا المهام العلمية للنظرية فى التفسير الاجتماعى ، الا أن تركيزهم انصب على النظرية بشكل عام ، فلم تتحدد بالنسبة للموضوعات الخاصـة بالعلوم الاجتماعية • لقد كان منطلقهم الأساسى هـو اشتراك مجموعتى العلوم الطبيعية والاجتماعية فى نفس

---

(130) Mageee op. cit. p. 47 - 48 .

(131) Ibid p. 80.

(132) Kolakowski , op. cit. p. 223 .

المنهج ، وبالتالى لم يروا ضرورة لمناقشة النظرية الاجتماعية بمعزل عن النظرية الفيزيائية : فما يقال عن الأخيرة ينطبق بطريقة بعدية على الأولى . ولما كانت نظريات العلوم الفيزيائية أكثر تطورا أو تعقيدا من نظريات العلوم الاجتماعية فان مناقشة طبيعة النظرية ترتكز فيما يعتقدون على النظرية الفيزيائية . واذا تناولوا النظرية الاجتماعية بالنقاش على حدة فلمجرد بيان عيوبها فى ضوء المثل الأعلى الطبيعى ؛ وذلك بدلا من مناقشتها فى سياقها الخاص .

وفى محاولة الوضعيين لكى يصبحوا علميين تبنوا كافة أساليب البحث العلمية وأدعوا صلاحيتها لدراسة السلوك الانسانى ؛ ومن هنا استخدامهم للملاحظة والتجربة والطرق الاحصائية ، كأدوات رئيسية فى متناول الباحث . الا أن الاعتماد الكامل على المعطيات data كمصدر للمعرفة يؤدى الى افقارها ، اما عن عدد الفروض التى سوف يكون على الباحث اختبارها فلن يتوقف عند حدود معينة . ويضاف الى ذلك صعوبة اجراء التجربة فى المجال البشرى . ذلك أن الشخص الذى تجرى عليه التجربة (المستجيب) يقوم بدوره بتصميم للتجربة مثله فى ذلك مثل الشخص القائم عليها تماما ، بحيث نجد أن كل محاولة تجريبية تصبح فريدة . فيؤدى ذلك بالتالى الى استبعاد الطرق الاحصائية المقننة . واذا حاول القائم على التجربة أن يمنع المستجيبين من وضع تصوراتهم الخاصة فان الموقف يصبح غير صالح للدراسة ؛ ذلك أن الباحث لم يعد يطبق تجربته على بشر ؛ لأنه بتدخله فى الموقف استبعد العنصر الانسانى تماما(١٣٣) .

وفى الواقع أن المنظور الوضعى قد اغفل جانبا هاما فى الدراسات

---

(133) C. W. Churan. On the Unification of the Social Sciences . Proceedings of the Fourth International Conference on the Unity of the Sciences. 1975 New ork pp. 101 - 110 , p. 102.

الانســانية هو موضوع التفاعل ٠ فنلحظ ان الطريقة التجريبية فى البحوث الاجتماعية والنفسية قـد أدت الى ترك مســائل هامة فى قيمتها بالنسبة لفهم النشــاط الاجتماعى وتوجيهه ٠ ومن هذه المســائل جانب العمليات الاجتماعية والنفسـية التى تحدث حين يتم تغير كمى او كيفى فى ظاهرة اجتماعية ، أو حين تقوم علاقات بين متغيرات فى مواقف اجتماعية ٠

واذا كان المنهج العلمى فى العلوم الطبيعية يقنع بايجاد علاقات فى صورة قوانين معينة ، دون اهتمام بما يتم أثناء تفاعل هذه العلاقات ، فان ذلك من الأمور الجوهرية فى العلوم الاجتماعية ٠٠ كيف تحدث العلاقات ، وكيف يتم التغيير ، وما هى العمليات التى جرت حتى حدث ما حدث ؟ هذه أسئلة جوهرية فى الدراسات الاجتماعية والنفسية وتمثل عمليات النسيج الاجتماعى والصياغة النفسية لخامات الحياة(١٣٤) ٠

وقد هاجم فيلسوف العلم ونش Peter Winch الاتجاه الطبيعى ٠ فعلى حين قبل النظرة الوضعية للعلم الطبيعى بشكل عام والفيزياء بشـكل خاص فى القرن ١٩ ، فانه رأى على العكس أن تفسيرات الأفعـــال الانســانية لا يمكن أن تكون آلية أو ميكانيكية ، كما أنه لا توجد قوانين حتمية للأفعال الانسانية أو لنتائجها (وهى الأنشطة الابداعية) نستطيع عن طريقها التنبؤ بهذه الأفعال(١٣٥) ٠

الا أن نقد ونش للوضعية يغفل اتجاه كثير من التجريبين المنطقيين والطبيعيين الى ادخال العوامل الانســانية كالأهداف والدوافع النفسية ، وان لم يجعلوها وحدها العوامل الرئيسية ـ فى التفسيرات الاجتماعيـة ٠

---

(١٣٤) حامد عمار : المنهج العلمى فى دراســة المجتمع (وصـــفه وحدوده) القاهرة ، معهد الدراســات العربية ، ١٩٦٠ ، ص ٤٨ ، ٤٩

(135) P. Winch. The Ibea of a Social Science. Quoted in Geidymin op. cit. p. 245.

ولقد رأينا كيف أن بوبر بقوله « بالمنهج الصفرى » فى العلوم الاجتماعية و « بمنطق الموقف » فى التاريخ قد أدخل أهداف الفرد فى التفسير . وذلك مع تأكيده على النموذج الاستنباطى وحرصه على بيان أن الظواهر الاجتماعية لا تفسر كلها فى ضوء الأهداف والدوافع والميول .

وكما تعرضت المدرسة الوضعية للهجوم كان من الطبيعى أن تتعرض المدرسة السلوكية للنقد . فعلم النفس السلوكى وإن كان قد نجح فى كشف قوانين سببية واحصائية عن السلوك الانسانى والحيوانى الا أن اغفاله للحالات الواقعية التى قام الاستبطان بكشفها ، بحجة أن الأجسام وحدها هى محددات السلوك الصريح ، ليس له أى مبرر فلسفى .

والسلوكية باعتبارها نظاما موضوعيا هاما فى العلوم الاجتماعية تضع كهدف رئيسى تفسير ما يحدث بالفعل فى العالم الاجتماعى لحياتنا اليومية ، تفسيرا يقوم على طرق علمية صحيحة . الا أن عيب هذه النظرية تظهر فى احلال عالم خيالى مكان الحقيقة الاجتماعية وذلك عن طريق تطبيق مبادىء منهجية على العلوم الاجتماعية . هذه المبادىء وإن كانت قد تأكدت فاعليتها فى مجالات أخرى ، الا أنها تفشل فى مجال التواصل أو العلاقة بين الذوات intersubjectivity

لذلك يرى شوتز Schutz ضرورة الاحتفاظ بوجهة النظر الذاتية للتوصل الى نظرية للفعل ، بدونها تفقد النظرية أسسها الرئيسية . فالاحتفاظ بوجهة النظر الذاتية هو الضمان الوحيد والكافى بأن العالم الاجتماعى الواقعى باق ولن يحل محله عالما آخر خياليا غير موجود ، قام الملاحظ العلمى ببناءه(١٣٦) .

ان البرنامج الذى يهدف الى رد أو اختزال العمليات النفسية

---

(136) A. Schutz . The Social World and the Theory of Social Action in Braybrook (ed.) op. cit. p. 55

الخاصة بالتفكير والاختيار والاحساس ... الخ الى العمليات الفسيولوجية ، يثير هذا البرنامج مشكلات أو صعوبات . الصعوبة الأولى تنشأ عن عدم انتماء التعبيرات المستخدمة فى الوصف النفسى الى نفس المقولة المنطقية الموجودة فى النظريات الفسيولوجية أو الفيزيائية عن الأحداث النفسية . وترجع الصعوبة الثانية الى ان هذا الوصف ، لما يقوم به الشخص أو يفكر فيه أو يحس به ، يحتوى على طرق أخرى لادراك الأحداث تختلف عن الطرق الفسيولوجية والفيزيائية ، ويمثل هذا عقبة أمام رد التقريرات النفسية ـ أو اليومية ـ للسلوك الانسانى الى تقرير سببى للأحداث بواسطة تعبيرات فسيولوجية . وتتمثل الصعوبة الثالثة فى الطريقة التى يتم بها التعرف على الأحداث النفسية . فهى طريقة مختلفة عن الطريقة التى نتعرف بها على احداث فسيولوجية(١٣٧) . وفى الواقع أن الاتجاه السلوكى عجز بالفعل عن التوصل الى ترجمة التقريرات النفسية الى لغة الفيزياء ، وكل ما فعله هو أنه قام بترجمة تلك التعبيرات الى لغة الحياة اليومية .

الا أنه كما طرأت تطورات على الاتجاه الوضعى الطبيعى فقد طرأت تطورات مشابهة فى الاتجاه السلوكى . فلا نجد حاليا علماء نفس أو علماء اجتماعيين ، ممن يتبنون الاتجاه السلوكى ، يخضعون للاتجاه التقليدى للسلوكية القائم على الادانة الكاملة لمنهج الاستبطان . وانما نجد أن السلوكيين المعاصرين يقبلون التقريرات الاستبطانية ، التى يقدمها الأشخاص الخاضعون للتجربة ، باعتبارها استجابات لفظية قابلة للملاحظة تحت شروط معينة ، وليس باعتبارها حالات نفسية خاصة . وبالتالى فان التقريرات الاستبطانية تأخذ مكانها ضمن المعلومات الموضوعية التى تقوم عليها التعميمات . وقد تطور السلوكيون اكثر

(137) A. Ryan, The Philosophy of the Social Sciences. London: Macmillan Co. Ltd. 1970, p. 105.

من هذا عندما قاموا ، منطلقين من اطار منهجى أكثر تحررا ، بدراسة موضوعات فريدة عن السلوك الانسانى ، مثل التعليم ، وحل المسائل ، وكذلك موضوعات اجتماعية ، مثل الاتصال ، والقرارات الجمعية ، والتماسك الجمعى • وقد اقترحوا لذلك طرقا خاصة لدراسة الظواهر المعقدة ، طرقا تختلف عن بعضها البعض ، وتختلف عن الطرق المستخدمة من جانب السلوكيين الأول • الا أن هذه الطرق ، على الرغم من جدتها ، لم تستطع التوصل الى تفسير لدى السلوك الانسانى بأكمله • لذا تستمر السلوكية ، مثل كافة المدارس المعاصرة فى علم النفس ، فى كونها برنامجا للبحث يؤكد على الاعتبارات المنهجية أكثر منها مدرسة تدين بنظرية دقيقة مستقلة • ولا يشير التعبير « سلوكية » فى الوقت الراهن الى أى دلالة مذهبية محددة ، وانما يتمسك السلوكيون بهذه التسمية كتعبير عن اهتمامهم بالمعطيات الموضوعية ، والقابلة للملاحظة عن طريق التواصل intersubjectively (١٣٨) • .

ولا يسعنا فى ختام حديثنا عن الاتجاه الوضعى الا أن نؤكد مع همبل ان تقييم هذه الاتجاه لا بد الا يتركز على الوسائل الطبيعية المبسطة التى قام مؤيديه باستخدامها ، وانما على الدراسات المنطقية والمنهجية المفصلة • ومن واجب كل من يقيم هذا الاتجاه ان يفحص معايير الوضوح والشدة كما تعرضها تلك الدراسات ثم ما قدمته من اثارة للآخرين ، وأخيرا الضوء الذى ركزته على القضايا الفلسفية • فاذا ما تم الحكم على الاتجاه الوضعى من هذا المنطق فسوف نجد انه قد شكل تأثيرا قويا ومنتجا على الفلسفة المعاصرة(١٣٩) • .

* * *

(139) Nagel. Structure of Soience op. cit. p. 477.

(139) Hempel. Logical Positivism in the Social Sciences op. cit. p. 194.

الفصل الرابع

« الاتجاه الفنومنولوجى ومنهج الفهم الذاتى »

تمهيــــد : ما هى الفنومنولوجيا ٠

أولا : اتجاه فيلهلم دلتاى ونظرته الى التفسير ٠

ثانيا : اتجاه ماكس فيبر ونظرته الى التفسير ٠

ثالثا : اتجاه ادموند هوسول ونظرته الى التفسير ٠

رابعا : اتجاه الفرد شوتز ونظرته الى التفسير ٠

خامسا : نظرة نقدية الى الفنومنولوجيا ٠

تمهيـــد :

يشتق التعبير فينومنولوجيا phenomenology من كلمـــــة phainomenon (وهى مكونة من كلمتين phainomai أى يظهر ، و logos أى عقل) ، وهدفها هو دراسة الخبرات بقصد اظهار ماهياتها أو العقل المختفى وراءها(١) • ويجب الا نخلط بين هــذا الاتجــاه واتجــاه آخـر طبيعــى يدعى rhenomenalism يقوم على القول بأن المعرفة محدودة بالمعلومات التى تقدمها الخبرة ، وبالتالى فان الذى يبحث عن المعرفة فى هذا المذهب لا يلجأ الى التعالى عن عالم الظواهر اىهى المذهب الذى يسلم بالخبرة المباشرة بالواقــع التجريبى(٢) • هذا بينما الاتجاه الفنومنولوجى ، على الرغم من قيامه على الاستقصاء المستمر للخبرة • الا نه يقصد من وراء ذلك الوصول الى عالم الماهيــات •

وتقوم الفنومنولوجيا بشكل عام على تبنى صريح أو متضمن للمنهجين التاليين :

أولا : الحدس insight المباشر كمصدر وكاختبار نهائى لكــل معرفة •

ثانيا : الاستبصار induction داخل الأبنية الأساسية ، كامكانية اصلية وكحاجة للمعرفة الفلسفية •

---

(1) Edo Pivcevic Husserl and Phenomenology London : Hutchinson University Librairy 1970 p. 11.

(2) R. B. Macleod . Phenomenology in D. L. Sills (ed.) Internaticnal Encyclopedis of the Social Sciences . Macmillan Co. and The Free Press 1968 pp. 68 - 71. p. 68.

وتوجد بعض المحاولات التقليدية السابقة التى قد تعتبر سوابق للفنومنولوجيا مثل فلسفة القديس اغسطين . أما الحركة الحديثة فتبدأ مع ديكارت ، ويتضمن منهجه تعليق كل المعتقدات وقبول الأفكار التى تتبدى بوضوح وتميز الى حد استبعاد اى شك واعتبارها افكارا صادقة . وعلى الرغم من أن تفرقة كانط لعالم النومين وعالم الفنومين تقوم على تحـليل فنومنولوجى ، الا أن الاستخدام الذى جاء بعده للتعبير فنومنولوجيـــا (مثلا عند هيجل) ثم استخدمه فى العلوم ليعنى اى شىء قابل للملاحظة ، هذه الاستخدامات لا ترتبط بالمعنى الذى نقصده . وفى الواقع أن فنومنولوجيا هوسرل ترجع الى ديكارت كما تأخذ عن التحليلات النفسية لوليم جيمس (١٨٩٠) كما تأخذ عن برنتابى (١٨٧٤) خاصة نظريته عن القصدية intentionality (٣) . والسبب فى كوننا قد استبعدنا تاثير فكر هيجل على هوسرل هو أن هيجل ، على الرغم من تاكيده على اولوية الوعى أو الذاتية كنقطة بداية للنسق الفلسفى ، وعلى الرغم من اصراره على اعتبار اللفسفة علما ، لم يقم الفنومنولوجيا فى نسقه الأولى على منهج محدد . لقد اقام ما يسمى بمورفولوجيا الوعى الذى يمكن التوصل اليه دون تطبيق لمنهج فنومنولوجى جديد . وبالتحديد ، لا يوجد عند هيجل اى ذكر لتعليق الحكم كما نجد فى « نزعة الرد » عند هوسرل . كما لا توجد لديه اى اشارة صريحة الى المنهج الحدسى ولا اى اهتمام بالاستبصار داخل الأبنية الأساسية (٤) .

ويعتبر الاتجاه الفنومنولوجى منهجا للتحليل الفلسفى اكثر منه مدرسة أو نظاما بالمعنى التقليدى . فالقول بأنها مدرسة يعنى وجـــود

---

(3) Loc, Cit.

(4) H. Spiegelberg . The Phenomenological Movement. A historical Introduction. The Hague : Martinas, Nijhoff. 1969, p. 14 .

مبادىء وقواعد ثابتة تسمح لنا أن نجيب بوضوح عن السؤال : ما هى الفنومنولوجيا ؟ بينما فى واقع الامر أن الفلاسفة الفنومنولوجيين قد تميزوا بتفردهم وتميزهم • لذلك فان منهجنا فى دراسة هذا الاتجاه سوف يقوم على تتبع نمو الفكر الفنومنولوجى لدى الفلاسفة الألمان أمثال هوسرل ودلتاى وفيبر وشوتز وكما تطور لدى الفلاسفة الفرنسيين الوجوديين مثل سارتر وميرلوبونتى • وسوف نحاول فى هذا التمهيد التعرف بشكل عام على الأفكار الرئيسية لهذا الاتجاه •

لقد نشأت الفنومنولوجيا بشكل فعال فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ويرجع هذا الى الظروف التى كانت موجودة فى الحقل الفلسفى فى هذا الوقت • وتتضح هذه الظروف فى العوامل التالية :

١ ـ تدهور الفلسفة التأملية وانهيارها •

٢ ـ التطور الضخم فى العلوم الطبيعية وكذلك فى العلوم التاريخية مما ادى الى نمو اتجاه تاريخى نسبى •

٣ ـ النجاح المحدود والمؤقت للجهود التى تهدف الى بناء تركيبات على الأسس العلمية الجديدة كما نجد لدى هرمان لوتز وفونت ، وهربرت سبنسر •

٤ ـ المحاولات القوية من جانب العلوم الطبيعية لكى تتولى بنفسها المهمة السابقة عن طريق المادية والنزعة الواحدية monism .

٥ ـ المحاولات الناجحة للوضعية فى أوروبا وخاصة انجلترا للسيطرة على ما تبقى من الفكر التاملى واستبداله بالدراسة « العلمية » للظواهر المعطاه •

٦ ـ وجود جهود أخرى مرتبطة بالسابق تهدف الى تحويل الفلسفة

الي فرع من علم النفس ، مما ادى بعد ذلك الى تطور ما سمى بالنزعة النفسية المتطرفة Psychologism .

٧ ـ المحاولات المتكررة من اجل احياء مراحل تاريخية سابقة مثل الكانطية المحدثة والتوماوية المحدثة Neo - Thomism .

وكانت نتيجة هذه العوامل مجتمعة ظهور ازمة فى الاتجاه الفلسفى: فالفلسفة تواجه تهديدا من الخارج بسبب فقدانها لوضعها المتميز مما جعلها غير واثقة من دورها الحالى . فأصبح على الفلسفة اما أن تحاول اللحاق بالعلم او الحفاظ على مستوى مساو للعلم ، أو كاحتمال ثالث محاولة البحث عن اساس جديد بالرجوع الى مواقف سابقة . وهنا ظهرت الثورة الكبرى التى احدثتها الفنومنولوجيا فى عالم الفلسفة وذلك حينما اكتشف منذ البداية ثراء مفهوم « الدلالة » significance فحاولت الفنومنولوجيا ان تضع « فلسفة المعنى » فى مقابل فلسفة التفسير بالعلة(٥) .

وقد تركز الاتجاه الفنومنولوجى ، فى الفترة الأولى ، فى المانيا وخاصة فى المرحلة الزمنية السابقة على الحرب العالمية الثانية ، ثم انتقل الى أجزاء أخرى من العالم ابتداء من عام ١٩٣٥ .

ودار اهتمام الفنومنولوجيين حول ما هو مثبت بذاته وبديهى وهنا يظهر تأثير ديكارت الذى أصر على استبعاد التصورات القبلية المسبقة معتمدا فقط على ما ندرك انه حقيقى . وقد رأى الفنومنولوجيون أن المنهج الفنومنولوجى قادر على التوصل الى أساس المشاكل وتفسير نشأتها ومعناها . والتفسير الفلسفى يختلف عن التفسير فى العلم الطبيعى فى كونه يمتلك خاصية هامة هى عدم وضعه لافتراضات تحتاج هى نفسها الى

(5) Ibid pp. 20 - 21 .

تفسير(٦) • ويترتب على هذا قولهم بضرورة استبعاد الافتراضـــات الأولية الميتافيزيقية ، وهم فى هذا يشتركون مع الوضعين الا أن الوضعين يريدون هدم الميتافيزيقا تماما بينما يرى كثير من الفنومنولوجيين امكانيـة اقامة أساس سليم تقوم عليه ميتافيزيقا جديدة • ولا نستطيع القول بأن هناك اجماعا من الفنومنووجيين حول هذا الموضوع ، وانما يقوم الاجمــــاع فقط على رفض الدجماطيقية أو الجمود الميتافيزيقى الذى يقوم على قبول صريح أو ضمنى لبعض القضايا الميتافزيقية التى لم تفسر او تبرر بطريقة سليمة • ولذلك بدأت التحليلات الفنومنولوجية من الخبرات الواقعية استنادا الى ما هو أساسى ورئيسى فى هذه الخبرات دون الاعتماد على اى افتراضات جامدة أو تحيز ميتافيزيقى(٧) •

يقوم اذن الهدف الأول لهذا الاتجاه الجديد على توسيع وتعميـق خبرتنا المباشرة ، وذلك عن طريق الاهتمام بالظواهر بشكل اكثر عمقـا من النزعة التجريبية التقليدية ، مع مراعاة القيام باستبعاد تام للتصورات والأحكام المسبقة اى الأنماط المعتادة للتفكير • ويعتبر « مبدأ البساطة » أحـد التصورات المسبقة التى ترفضها الفنومنولوجيا وتأخذ على العلم الحديث البدء بها مما ينتج عنه الانتهاء بتعبير محدود عن التصورات العلمية • فمبدأ البساطة يدعى أنه يزودنا بصورة فريدة وكاملة عن الواقع بينما هو ينتهى الى تضييق مجال الخبرة(٨) •

ويتضـمن المنهـج الفنومنولوجى فى بحثه للظـواهر المحـددة particulars ، ثلاث خطوات رئيسية هى الطور الحدسى ، والطور التحليلى ، والتطور الوصفى • ويعتبر الطور الحدسى عمليـة قائمة فى

---

(6) Pivcevic op. cit. p. 13.

(7) Ibid. p. 17 .

(8) Spiegelberg . op. cit. p. 565 .

التركيز على الموضوع بدون الاندماج فيه حتى لا نفقد النظرة النقدية اليه • وتعتمد هذه العملية على ملاحظة الظاهرة ، وأحيانا المقارنة بينها وبين الظواهر الأخرى المرتبطة بهدف تسجيل التشابهات والاختلافات توصلا الى ادراك تميز الظاهرة موضع الدراسة عن غيرها • وثار فى هذا الصدد مشكلة ما اذا كانت الفنومنولوجيا تتناول الظواهر الذاتية دون غيرها عند حديثها عن الظواهر المحددة ، وهناك اعتقاد شائع فى أن الفنومنولوجيا ليست الا دراسة لظواهر ذاتية وتمثل رده الى علم النفس الذاتى ان لم يكن وقوعا فى منهج الاستبطان(٩) الا أن الأمر فى الواقع ليس كذلك ، فالمفهوم « ذاتى » يستخدم فى الفنومنولوجيا بطريقة متميزة• فهو :

اولا : لا يعنى ما يمكن التوصل اليه عن طريق منهج الاستبطان لأن الأوصاف التى تقدمها الفنومنولوجيا لا تتناول فقط جانب الخبرة المتضمنه فى افعال الشخص وميوله ـ كما تتضمن فى انعكاساتها عليه ـ وانما تتناول مضامين أفعاله باعتبارها موضوعات لخبرته بدون الحاجة الى انعكاس reflective turn •

ثانيا : لا يعنى مفهوم « ذاتى » الملاحظات الذاتية التى يعبر عنها الأشخاص الذين يقومون بالملاحظة ، ويتصفون بقلة الخبرة ، فالفنومنولوجيا تتعارض مع مثل هذه « الذاتية » لأن الحدس والوصف يحتاجان الى درجة من الضبط aptitude والمران والنقد الذاتى الواعى •

ثالثا : لا يعنى مفهوم « ذاتية » تلك الذاتية المعبرة عن خصوصية الظواهر ، فكل الظواهر هى ظواهر خاصة سواء كانت فى مرحلة عامة أو مشتركة مع الأخرى • ولا ويجد ما يدعو الى الشك فى ان الظواهر

---

(9) Ibid. p. 666 .

المتعلقة بالحدث الفنومنولوجى هى ظواهر مشتركة ، فهناك ما يؤكد حدوث هذه المشاركة فى حالات كثيرة وان لم يوجد ما يضمن أن هـذا سوف يحدث دائمـا .

رابعا : لا يتعارض مفهوم « الذاتية » فى الفنومنولوجيا مع الاتجاه القائم على الاعتماد على الخبرة المباشرة . فكل خبرة هى أساسـا خبرة ذاتية لأنها خبرتنا الخاصة .

ونخلص من هـذا كله أن المفكر أو العالم الفنومنولوجى يتناول ظواهر موضوعية بطريقة لا تقل أو تزيد عن أى معرفة تجريبية أصيلة . فاذا اختلفت عنها فذلك لأن الفنومنولوجيا تقبل فى البداية الظواهر دون التسـاؤل عما اذا كانت هـذه الظواهر ذاتية أم موضوعية . فاذا ما اتضح أنها ظواهر ذاتية فان هـذا سوف يظهر فى الوقت المناسب دون الحاجة الى استبعادها اعتمادا على مجرد شك(١٠) .

أما بالنسبة للتحليل الفنومنولوجى فهو خطوة لا تنفصل عن كل من الحدس أو الوصف . الا أنها تستحق اهتماما خاصا لأنها توضح العلاقة بين الفنومنولوجيا ومختلف الأنظمة التى تتبنى اسم التحليل المنطقى أو الفلسفى . ان هـذه الأنظمة تقوم على تحليلات لبعض التعبيرات اللغوية بهدف كشف بعض التعبيرات المساوقة لها والتى تتكون من عـدد أقل من التعبيرات وتملك بناء أبسط وذلك لاحلالها محـل التعبيرات الأصلية . أما التحليل الفنومنولوجى فهو بعكس السـابق لا يهتم أساسا بالتعبيرات اللغوية ، قد يحدث أحيانا أن يبدأ الفنومنولوجى من بعض الجمل المتميزة ويحاول تحديد معناها وكشف ما يشوبها من غموض ، ولكن هـذا التحليل المبدئى ليس الا اعدادا لدراسة الظواهر التى تشير

---

(10) Ibid. pp. 667 - 68.

اليها التعبيرات . فالتحليل الفنومنولوجى هو تحليل للظواهر نفسها وليس للتعبيرات التى تشير اليها(١١) .

وتصاحب خطوة التحليل خطوة أخرى هى الوصف الفنومنولوجى . ويحدث أحيانا أن يبالغ فى هذه الخطوة الى درجة وصف الاتجاه الفنومنولوجى كله بأنه علم وصفى . ولا شك أنه توجد خطورة مؤكدة فى البدء بوصف الظواهر قبل فحصها حدسيًا وتحليليا . وهذا ما تقع فيه الفنومنولوجيا أحيانا عندما تبادر بالوصف قبل التأكد من الشىء الذى تصفه ، فالوصف أساسا تنبؤ والتنبؤ كما بينت الفنومنولوجيا يفترض خبرة سابقة عليه ، وتستحق هذه الخبرة الاهتمام منذ البداية . ويؤسس الوصف الفنومنولوجى على تصنيف الظواهر ، ويفترض الوصف اطارا مكونا من قوائم للمجموعات classes ، وكل ما على الوصف أن يفعله هو أن يحدد مكان الظاهرة بالنسبة لنسق من المجموعات الموجودة من قبل . واذا كان هذا يعتبر ملائما بالنسبة للظواهر المألوفة فان الظواهر الجديدة أو الجوانب الجديدة من الظواهر القديمة تحتاج الى افتراض اطار من المجموعات أكثر اتساعا تجد بداخله تشابه بنائى بينها وبين ظواهر أخرى . ويتميز الوصف الفنومنولوجى بصفة خاصة بأنه وصف انتقائى لأنه من المستحيل التوصل الى كل الخصائص المميزة لظاهرة ما خاصة الخصائص التى تربطها بالظواهر الأخرى . ويعتبر الانتقاء ميزة بجانب كونه ضرورة : فهو يجبرنا على التركيز على الخصائص الجوهرية والتجريد من الخصائص العرضية غير الجوهرية ومن هنا يتضمن الوصف الاهتمام بالماهيات(١٢) .

ان الوصف الفنومنولوجى يقوم على كيفية تصدى البشر للظواهر التى تتبدى فى الشعور أو الوعى وكيف يتأثرون بها . ويأتى اهتمام

(11) Ibid. p. 669 .

(12) Ibid. p. 672.

الفنومنولوجيا بالذاتية من البحث داخل الوعى ، وعن طريقه ندرك ما هو خارج الذات فنستطيع أن نوجه سلوكنا نحو الواقع الخارجى غير الذاتى . ان الوعى هنا ليس شيئا سلبيا أى مجرد متلق للمثيرات ، وانما هو عبارة عن الذات فى ذاتيتها متجهة الى الخارج أى ممتدة بنفسها تجاه الأنشطة . وبالتالى اذا كان فعل أو نشاط الوعى هو دائما وعيا بشىء ما (ما يمكن تسميته بمسلمة القصدية) فاننا نستطيع القول ان كل موضوع هو موضوع بالنسبة لشخص ما (ما يمكن تسميته بمسلمة الذاتية subjectification) . ويتضمن هذا ان يأخذ الكيان المعطى أو الظاهرة - سواء كانت حدثا سياسيا أو شخصيا - معان مختلفة . يمكن ادراكها بطرق مختلفة حسب الأشخاص ، اعتمادا على وجهة نظرهم وعلاقتهم بالكيان أو الظاهرة المثارة . ليس الموضوع اذن محددا من الخارج ولكنه كيان ومجموعة معان يضفيها الشخص عليه . ويمثل هذا الكيان بمعانيه « الموضوع » بالنسبة للشخص(١٣) .

وتحرص الفنومنولوجيا على الاهتمام بالماهيات العامة wesensschan الى جانب اهتمامها بالظواهر المحددة . ولا يوجد حدس سليم للماهيات دون حدس سابق للظواهر المحددة ، وقد تكون هذه الظواهر معطاة عن طريق الادراك الحسى أو عن طريق المخيلة ، أو بواسطة الاثنين معا . ويجب من أجل فهم الماهية أن ننظر الى هذه الظواهر باعتبارها أمثلة أو شواهد تقوم مقام الماهية العامة ، أى ان حدس الظواهر المحددة يعتبر خطوة ضرورية من أجل فهم الماهيات العامة .

---

(13) E. A. Tiryakian . Sociology and the Existential Phenomenology in M. Natanson (ed.) Phenomenology and the Social Sciences Vol. I. Evanston : North Western Univ . Press. 1973 pp. 187 - 222 , p . 195 .

ان الجانبين الرئيســـين فى الفنومنولوجيا همـــا « الوعى » و « العالم » ومهما اختلف الفنومنولوجيون فمما لا شك فيه أن هدفهم الأســاسى هو وصف وتحليل الوعى الانسانى . ويتضمن هــذا المشكلة العامة التى تقوم على السؤال : كيف يتكون الوعى من مختلف أشكال القصدية ؟ أى أن السؤال الرئيسى هو : ماذا نفعل لكى نختبر الأشـياء داخل ذاتيتنا وكيف نستطيع كفينومنولوجيين آن نتوصل الى الرد على السؤال التالى : كيف ينبنى الواقع وكيف يدرك فى أفعال الوعى ؟(١٤)

وقد ميز الفنومنولوجيون بين مجموعتى العلوم الطبيعية والاجتماعية من نواحى عدة ويعرض لنا ابل Abel هذا التمييز :

أولا : يمكننا بالنسبة للعلوم الطبيعية التثبت من الفرض عن طريق التجربة بينما لا يمكن اللجؤ الى التجريب فى مجال العلوم الاجتماعية .

ثانيا : يمكننا تكرار التجارب فى العلوم الطبيعية حتى نصل الى التعميم بينما نجد أننا فى العـلوم الاجتماعية نتعامل مع مواقف غير متسقة بحيث لا يوجد شخصان أو موقفان متماثلان .

ثالثا : يمكن للعلوم الطبيعية عزل العوامل بحيث تؤدى الفروض الى تنبؤات غير متأثرة بمتغيرات خارجيـة . بينما لا يمكن تحـديد الظواهر الاجتماعية بوضوح بسبب تعقد العوامل الداخلة فيها .

رابعا : يمكن التوصل الى التنبؤ فى العلوم الطبيعية بينما لا يمكن بلوغ هــذا المستوى بتأكيد مرتفع فى العلوم الاجتماعية .

خامسا : نسـتطيع أن نذكر الفروض فى العـلوم الطبيعية بدقة وعمومية ، لأنها تتناول متغيرات صادقة خلال المجتمع كله بينما لا يتوفر

---

(14) Ibid p . 190 .

هـذا الا بشكل محدود فى العلوم الاجتماعية (مثل معدل الوفيات) .

سادسا : نستطيع فى العلوم الطبيعية أن نتثبت من هـذه الفروض عن طريق الملاحظـة ، ويمكن هـذا بقدر محدود للغـاية فى العلوم الاجتماعيـة .

سابعا : يمكننا فى العلوم الطبيعية استخدام القياس بينما يتعذر هـذا فى العوم الاجتماعية لأن مفاهيمها غامضة وكيفية .

ثامنا : يمكننا فى العوم الطبيعية دراسـة الظواهر بدون اهتمام بالمـاضى ولا يمكن هـذا بالنسبة للعلوم الاجتماعية لأنه يحدث احيانا أن تكذب التنبؤات بسبب أشـياء غير ملاحظة وغير متثبت منها حدثت فى المـاضى .

تاسعا : بينما لا يوجد تأثير لعالم الفلك على كشوفه فى العلوم الطبيعية نجد فى العلوم الاجتماعية تفاعلا دائما بين الباحث وما يدرسه .

عاشرا : لا يهتم العالم الطبيعى بموضوع بحثه بقدر اهتمام العالم الاجتماعى الذى يتصدى لبحث موضوعات مثل تنظيم النسل أو الاشتراكية أو الجريمة .. الخ .

حادى عشر : يمكننا فى العلوم الطبيعية عزل الوقائع بينما يستحيل هـذا فى العلوم الاجتماعية ، ويرجع هـذا الى أن العلماء الاجتماعيين يواجهون عند وضعهم لفروضهم بأن الوقائع الاجتماعية توجد فى شـكل جمعى وترد فى سـياقات ، بالاضـافة الى وجود تصورات غامضـة وكيفيـة(١٥) .

---

(15) R. Abel . Man is the Measure : a Cordial Invitation to the Cenrtal Problems of Philosophy . New York : The Free Press 1972, pp. 109 - 117 .

لقد اضفى المفكرون ذوو النزعة الانسانية الى العلوم الاجتماعية أو الثقافية طابعا مختلفا بشكل أساسى وجذرى عن العلوم الطبيعية • فقد ركزوا على الحالات الذاتية للبشر كالاهتمام بتأويل وفهم الدوافع البشرية ، وقد أصبحت هذه العملية التاويلية التى أسماها الفلاسفة الألمان الذين انشأوها Verstehen ، اصبحت بالنسبة لهم جزءا ضروريا فى تطور العلوم الاجتماعية(١٦) •

أولا : اتجاه فيلهلم دلتاى ونظرته الى التفسير :

يمثل دلتاى (١٨٣٣ ـ ١٩١١) الموقف المعارض للوضعية والنزعة الطبيعية ، فهو وان كان قد اتفق مع الوضعيين فى رفضهم للميتافيزيقا الا أنه اختلف عنهم فى رفضه النظر الى العلم الطبيعى كنموذج للعلوم الاجتماعية وقد حاول دلتاى ان يضع العلوم الاجتماعية (علوم الروح) Geisteswissenschaften على أسس منهجية مختلفة عن العلوم الطبيعية Naturwissenschaften فقد رأى ان موضوعات العلوم الاجتماعية ، وهى العقول البشرية ، معطاه وليست مشتقة من أى شىء آخر • ويستطيع العالم الاجتماعى أن يجد داخل ذاته مفتاح الواقع الاجتماعى •

ان العلم الطبيعى لا يستطيع الا القيام بتفسير erklarën الأحداث الملاحظة ، وذلك عن طريق ربطها ببعضها البعض حسب بعض القوانين الطبيعية • الا أن هذه القوانين لا تخبرنا بشىء عن الطبيعة الداخلية للأشياء ولا عن العمليات التى نقوم بدراستها • بينما نجد

---

(16) H. A. Hodges . Dilthey, Wilhelm in D. Sills (ed) International Encyclopedia of the Social Sciences, 1968, pp. 185 87 p. 185 .

معنى بالنسبة للبشر فى الذهاب لمـا وراء الأفعال الملاحظة الى ما هـو داخلى(١٧) .

وبينما تبحث العلوم الطبيعية عن اهداف تفسـيرية تقوم العلوم الاجتمـاعية بالبحث عن فهم مباشر من خلال استبصار داخل المـادة الخـام . وتعتبر كل من الاستبصارات الانسانية والفنية هدفا للعلوم الاجتماعية . ولا يمكن الوصول الى هـذا الهدف عن طريق مناهج العلوم الطبيعية ، بل فقط عن طريق اعتناق القيم والمعانى الموجود داخل عقول القائمين بالفعل ، وتسمى هـذه العملية بالفهم الذاتى أو التأويلى (Verstehen) . وقـد طبق دلتـاى منهجه على ثلاث أنماط من القضـايا :

١ ـ الحقائق التاريخية المفردة .

٢ ـ الاطرادات التى نصل اليها عن طريق التعميم المجرد .

٣ ـ الأحكام القيمية .

وكان دلتاى أول من آثار موضوع الفهم الذاتى Verstehen (١٨) ،

---

(17) H. A. Hodgis . Disthey, Wiehelm. in D. Sills (ed.) International Encyclopedia of the Social Sciences pp. 185 - 87, p. 185 .

(١٨) أثرنا ترجمة التعبير الألمـانى Verstehen بالتعبير « الفهم الذاتى » كما ترجمها M. Truzzi فى كتـابه
«Verstehen : Subjective Understanding in the Social Sciences»

وقد ترجمها د. محمد عارف فى كتابه « المنهج فى علم الاجتماع » مستخدما التعبير « الفهم التأويلى » بينما استخدم د. صلاح قنصوة فى رسالته للدكتوراه « الموضوعية فى العلوم الانسانية » التعبير « التفهم » .

بطريقة واعية وفى سياق اجتماعى لم يكن قد اتضح تماما بعد ، ولم يكن يسع دلتاى كشاعر الا أن يرى الفرد ، بخبرته وشعوره وفهمه ، كممثل للواقع الانسانى الأساسى . لذا كانت مهمة الفهم الذاتى هى التوصل الى معرفة للفرد فى تعقده وبساطته خلال تلك الشبكة المعقدة من العلاقات الاجتماعية المتداخلة .

ويتضمن الفهم الذاتى فى رايه عناصر عدة منها المشاركة الوجدانية sympathy ، والتعاطف empathy ، ثم عملية استعادة الخبرة ، واعادة بناء الحياة موضع الدراسة . لقد اهتم دلتاى بمشكلة التوفيق بين الخاص والعام لذا فانه قام بتطوير الأدوات التصورية ، حتى يجعل الخاص يكشف عن معناه ورمزه أى يجعله يبدو عاما ومتعاليا ومغبرا الى درجة انه يمكن أن يخضع لعملية التثبت . فكان دلتاى يرى أن عظمة الشاعر تكمن فى اختراق الوجود الفردى حتى يكشف عن نفسه فى نفسه باعتباره رمزا عاما أو معنى . وينجح الشاعر فى ذلك عن طريق جعل الحياة تؤول ذاتها دون تعبيرات : انه يسمح للسياق الحى أن يكشف عن نفسه فى وحدته المعقدة ، وفى معناه المباطن(١٩) .

ان عنصر الثبات فى الفكر يكمن فى الخبرة الداخلية وحدها أى فى وقائع الوعى . وكل معرفة ما هى الا ادراك للخبرة ، وتتوقف الوحدة الأصلية للخبرة وما ينتج عنها من صدق على العوامل التى تشكل الوعى أى على الطبيعة الانسانية بأكملها . ويعتبر هذا هو الموقف الابستمولوجى الذى لا يمكن للمعرفة الحديثة أن تقول بغيره . وهو يمثل أساس استقلال العلوم الانسانية . وتتحول النظرة الى العالم الطبيعى فى ضوء هذا الموقف الى مجرد خيال خاص بواقع مختبىء

---

(19) W. Pelz . The Scope of Understanding in Sociology. London : Routledge and kegan Paul , 1974, p. 3.

عنا لا يمكن ادراكه كما هو الا ابتداء من وقائع الوعى ، كما تبدو فى الخبرة الداخلية • ان تحليل هــذه الوقائع هو صلب الدراسات الانسانية ، فتصبح هــذه الدراسات نسقا مستقلا بذاته(٢٠) •

وقد اختلف هنريك ريكرت ، وهو من أتباع مدرسة الفهم الذاتى ومعاصر لدلتاى ، مع دلتاى حول التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية • أنه يرى ان الفارق بين مجموعتى العــلوم لا يكمن فى الواقعية التجريبية (اى الطريقة التى ندرك بها هــذه العلوم) وانما فى الطابع الفريد للأحداث التاريخية فى مقابل الطابع العام للأحداث الطبيعية • وبالتالى يقع على عاتق العالم الاجتماعى دراســة الحدث الفردى المتميز (الايديوجرافى) بينما يدرس العالم الطبيعى الأحداث العامة المتكررة (النوموطيقية) • وعلى الرغم من هــذا الموقف المعارض لدلتــاى ، أكد ريكرت على ضرورة الأخــذ بالمنهج الذاتى فى العلوم الاجتماعية ، اى ضرورة معرفة قيم وأهداف القائمين بالفعل الاجتماعى من أجل تفسير سلوكهم بشكل تام • وقد عارض ريكرت فى استخدام التعبيرات « فهم ذاتى » Verstehen الا ان المنهــج الذى طوره ، بما يتضمنه من تأكيد على معنى الأشــياء التى يضفيها القائمون بالفعل كضرورة لفهم الظواهر الاجتماعية ، هــذا المنهج يضعه ضمن مدرســة الفهم الذاتى(٢١) •

ويرى دلتاى ان موقف الفهم الذاتى يتحدد فى أعلى درجاته بازاء

---

(20) W. Dilthey . On the Special Character of the Human Sciences in M. Truzzi (ed.) Verstehen : Subjective Understanding in the Social Sciences . Reading : Addison - Wesley Publishing Co. 1974 pp. . 8 - 17, p. 10.

(21) Max Weber . On Subjective Interpretation in the Social Sciences in Truzzi (edè) Op. Cit. pp. 18 - 37. intr . by the ed. p. 19.

الموضوع ، عن طريق المهمة التى يقوم بها وهى كشف وحدة حية من المعطى . ويتوقف هـذا على الوجـود المسـتمر للوحـدة النسـقية Systematic unity وهى تلك الوحـدة التى نجدها فى الخبرة المعاشة للشخص والتى تخضع للاختبار فى شواهد عدة . ويعنى هـذا الوضع اسقاط للذات داخل الشخص أو العمل ذاته ، وينشأ عن هـذا الاسقاط احياء للشىء ذاته من خلال الحياة العقلية عن طريق الفهم(٢٢) .

ان منهج الفهم يميز العلوم الانسانية كمجموعة مختلفة عن العلوم الطبيعية . ويتميز استخدام دلتاى للتعبير « فهم » عن اى استخدام عام آخر بأنه يعنى فهم مضمون عقلى معين ـ اى فكرة او قصد أو احساس ـ ثم التعبير عنه فى شـكل تعبيرات تجريبية معطاة مثـل الحركات أو الكلمات أو الايماءات ... الخ . ان ما نفهمه من تعبير محدد هو المعنى الذى يدركه البشر او يضفوه على موقف معين فى حياتهم .

لقد اقام دلتاى فلسفته المعرفية او نظريته فى المعرفة على اسس ثلاث هى :

١ ـ أن البشر يعيشون حياتهم ويمرون بخبرات خاصة ، وهـذه الحياة لها معنى معين .

٢ ـ يميل هؤلاء البشر الى التعبير عن هـذا المعنى .

٣ ـ من الممكن الوصول الى فهم هـذا المعنى(٢٣) .

---

(22) W . Dilthey. On the Special Character of the Human Scienses . in Truzzi (ed.) op. cit. pp. pp. 8-17, p. 11.

(23) H. P. Rickman . Dilthey, Wilhelm. in P. Edwars (ed.) The Encyclopedia of Philosophy. New York : The Macmillan Co. 1967, pp. 403 - 407, p. 405 .

وقام دلتاى بوضع ثلاثة شروط للوصول الى الفهم الذاتى وهى :

أولا : لابد أن نتعرف على العمليات العقلية التى نستطيع عن طريقها اختيار المعنى ونقله . فاذا لم يكن فى مقدورنا ان نعرف مثلا ما معنى ان نحب أو نكره أو نملك قصدا ما او ان نعبر عن شىء ما ، فاننا لن نستطيع فهم أى شىء . وقد تعرض هـذا النوع من الفهم الذاتى الذى ظهر فى كتابات دلتاى الأولى للنقد باعتباره يعبر عن نزعة نفسية متطرفة أو اتجاه فردى منهجى الا ان دلتاى اضاف اليه شرطين آخرين .

ثانيا : يقوم الشرط الثانى على اننا كى نفهم التعبيرات علينا ان نعرف السـياق الواقعى المحدد الذى ترد فيه ، فالكلمة تفهم بشكل افضل فى سياقها اللفظى كما يفهم الفعل داخل الموقف الذى أدى اليه . وقد اشتق دلتاى من السابق مبدأه المنهجـى : لكـى نفهـم تعبيرا ما علينا أن نكشف بطريقة منظمة السـياق الذى يرد فيه . وكمثـال على ذلك : لكى نستطيع ان نفهم حركة دينية أو اتجاه فلسفى بشكل افضل ، علينا ان نربطه الى كل من وجهة النظر ، ثم الى الظروف الاجتماعية التى كانت سائدة فى ضوء ظهور العلم والصراع بين المذاهب الدينية المختلفة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

ثالثا : يتمثل الشرط الثالث فى معرفة الأنسقة الاجتماعية والثقافية cutural التى تحدد طبيعة أغلب التصورات . فعلينا لكى نفهم جملة ما ان نعلم اللغـة ، ولكى نفهم حركة معينة فى لعبة الشطرنج أن نعلم مبادىء اللعبة(٢٤) .

لقد جعـل دلتاى وغـيره من الفلاسـفة الاجتمـاعيين للمعـرفة Erkenntnis وهى عبارة عن فعل الفهم أو الادراك ، جعل لها طابعا بناء وقوة . ان تفكيرنا ومعرفتنا وقدرتنا على التصور والتنظير تحـدد

(24) Ibid. p. 406.

الوقائع والأشـياء . والوعى الاجتماعى وحده وليس الوقائع هو الذى يحدد التفكير وذلك بواسطة الأهمية التى ننسبها الى الوقائع(٢٥) .

ويعتبر الفهم هو الطريق الوحيد لكى يفهم الانسان ذاته ، فنحن نتعلم ما كنا اياه فى الماضى وكيف تطورنا وأصبحنا ما نحن عليه ، من الطريقة التى تصرفنا بها ، ومن الخطط التى تبنيناها ، ومن الطريقة التى عبرنا بها عن أهدافنا ومن الخطابات القديمة ، ومن الأحكام التى اطلقت بشأننا منذ زمن بعيد . ان الحياة تتضح لنا اذن من خلال عملية الفهم الذاتى ، فنسـتطيع فهم أنفسـنا والآخرين بشرط تحويل خبرتنا المعاشة الى نوع من التعبير عن حياتنا وحياة الآخرين(٢٦) .

لقـد رفض دلتاى أن ينظر الى الحيـاة كواقعة بيولوجية صرفه يشارك فيها الانسان الحيوانات الأخرى ، وانما نظر اليها كخبرة معاشة فى تعقدها . هى عبارة عن تجميع لأعداد لا حصر لها من الأفراد الذين يكونون الواقع الاجتماعى والتاريخى . وقد اعتبر دلتاى الحياة مكونة من اشياء عدة مثل الآمال والمخاوف ، والأفكار والأفعال ، الأنظمة التى اقامها البشر ، القوانين التى توجه سلوكهم ، الأديان اتى يؤمنون بهـا ، ثم كل اشـكال الفن والأدب والفلسـفة . وتضاف العلوم الى ذلك كله باعتبارها نشاطا بشريا .

لقد تأثر دلتاى فى مذهبه عن « فلسفة الحياة » بكل من كانط وهيجل وفشته وشلنج والتجريبية البريطانية . وقد اعتبر الحياة هى الموضوع الوحيد للفلسفة وكفيلسوف تجريبى رفض أى معنى للتعال : فلا يوجد أى شىء يتجاوز الحياة ، ولا يوجد شىء فى ذاته كما لا يوجد أى مطلق ميتافيزيقى أو فردوس افلاطونى . ومن هنا فقد اعتبر الفيلسوف

---

(25) Pelz . op. cit. p. 72.

(26) Dilthey. op. cit . p. 17 .

جزءا من الحياة ولا يمكنه معرفتها الا من الداخل لأنه لا وجود لبداية مطلقة للفكر أو لهيكل من المعايير المطلقة خارج الخبرة · ومن هنا يصبح كل تفكير فى الحياة وما يصحبه من مبادى تقيمية وخلقية نتاج لأفراد معينين يعيشـون فى زمان ومكان معين تحـددهم وتؤثر فيهم الظروف ووجهات النظر والعصر الذين يعيشون فيه(٢٧) ·

ويرفض دلتاى الرأى الوضعى الذى يقوم على القول باننا نعيش ونختبر الاحساسات والادراكات فقط ، ويعتبره رأيا ميتافيزيقيا جامدا يقوم ، عن طريق تلخيص الخبرة ، بتضييق طرق المعرفة ، ان ما نعيشه ونختبره بالفعل هى الحياة نفسها فى غناها وتنوعها · ولا يعنى هـذا بالنسبة لدلتاى الاكتفاء بالنظر الى الأفراد وحدهم وانما الهدف هو الوصول الى نظرة شاملة للواقع · ومن أجل هـذا يبدأ الفيلسوف من المعانى التى يضفيها البشر على عالمهم · فيصبح الفيلسوف باعتباره جزءا من الحياة ومتأثرا بظروف عصره مثل الآخرين ، يصبح مصدر قوة ، فيستطيع التوصل الى المعنى عن طريق خبرته الخاصة · فهو يدرك عمل عقله وكيف تولد الأفكار احساسات ثم كيف تتحول الاحساسات الى ميول · انه يعلم الخاصية الزمانية لحياتنا مع تعاقب اللحظات التى تربط الحاضر بالخبرة وبتذكر المـاضى وبتصور المستقبل · ان الفيلسوف مثل غيره من البشر يستخدم نفس المبـادىء من أجل تنظيم خبرته الخاصة ويسميها دلتاى مقولات الحيـاة · ويعتبر تحليل تلك المقولات حجر الزاوية فى فلسفته(٢٨) ·

ولا تخرج هـذه المقولات عن كونها وسائل لتأويل الأحداث فى ضوء بعض العلاقات · ويعرض دلتاى قائمة بتلك المقولات فمنها مثلا مقولة القوة أو السـلطة power التى نشـعر فى ضوءها بتأثيرها على

---

(27) Rickman op. cit. p. 404.

(28) Loc. Cit.

الأشـياء والأشخاص وبتأثيرهم علينا ، ويكون ذلك اما بمساعدتنا فى خططنا ، او بالعكس باحباط رغباتنا . انها المقولة التى تتوافق مع العلية او السببية تجاه فهم العالم المـادى . وهناك مقولات اخرى ، عن الجزء والكل ، الوسـيلة والهدف ، التطور . وتعرض دلتاى لثلاث مقولات ذات اهمية خاصة فى منهجه ، وهى القيم Value التى عن طريقها نختبر الحاضر ، ثم الهدف purpose الذى من خلاله نتصور المستقبل ، وأخيرا المعنى meaning الذى عن طريقه نتذكر المـ... او نسـتدعيه . وقد اكد دلتاى بالذات على مقـولة المعنى ودورها ، خاصـة فى كتبه المتأخرة ، فأصبح سـؤاله الرئيسى هو : كيف تكون الخبرة ذات المعنى ممكنة ؟ وجعل من المقولات كلها طرقاً مختلفـة يتضح من خلالها المعنى فى سياقات مختلفة(٢٩) .

وقد ارتبط « بفلسفة الحياة » عند دلتاى اهتمامه بطبيعة الدراسات الانسانية ومنهجها . فاذا كان على الفيلسوف ان يهتم بأوسع معـرفة ممكنة لمظاهر الحياة فان هـذه المهمة تقع على عاتق الدراسات الانسانية من علم نفس ، وتاريخ ، واقتصـاد ، وفقه اللغـة ، ونقد ادبى ، وعلم الأديان المقارن ، وقانون ، وعلى الفيلسوف ان يستوعب نتائج هـذه الأنظمة كما ان لديه ما يقدمه اليها حتى تشتق منه قوتها المنهجية . ويمكن من « فلسفة الحياة » اشتقاق نظرية فى المعرفة an epistemology ويعتبر الانسان هو الموضوع المشترك فى كافة الدراسات الانسانية بأفعاله وانجازاته أى العالم الانسـانى المنظم اجتماعيا والمتطور تاريخيا . وهنا ميز دلتاى بين دراسات نسقية تهدف الى تكوين قوانين عامة وبين التاريخ الذى يهتم بالتتابع الزمنى للأحداث الفردية . الا ان هنـاك ارتباط بين هـذه الدراسات : فالتاريخ يقدم للدراسات النسقية البداهة Evidence على شـكل تاريخ الحالة وتسجيل للتطورات الاقتصادية ،

---

(29) Loc. Cit.

بينما تقدم الدراسات النسقية بالاشتراك مع الحس الشائع ونتائج العلوم الطبيعية ، القوانين التى يمكن فى ضوئها تفسير العلاقات بين الأحداث الفردية فى التاريخ(٣٠) .

وقد اعتبر دلتاى التاريخ هدفا مطلقا . فالمؤرخ هو نفسه الفيلسوف ، مهمته هى الكشف وتأويل التطور الفريد للانسانية . وكل العلوم الانسانية الأخرى ليست الا عوامل مساعدة لعلم التاريخ . ويفسر الفرد فى ضوء الموقف التاريخى ، ويقوم المؤرخ بالتفسير مستخدما فى ذلك السيرة الذاتية(٣١) . وقد اعتبر دلتاى الانسان تاريخيا فى جوهره لأنه يعيش فى الزمان ، ويتحدد بأحوال وظروف معينة ، ووجوده ذاته هى عملية زمنية تتحدد بالميلاد والموت وتتألف من سلسلة متصلة الحلقات تتكون من ماض وحاضر ومستقبل ، وتجرى هذه العملية فى اطار علاقاته مع الآخرين ، وعلاقاته مع الطبيعة ، ولما كان الفرد كذلك ، فان العلاقات بين الأفراد هى ايضا علاقات تاريخية . وحياة الانسان حياة تاريخية ، وعالم الانسان اذن هو عالم التاريخ(٣٢) .

وقد رفض دلتاى المبادىء المطلقة والقيم المطلقة . ولهذا يرفض كل محاولة لتفسير التاريخية أو المذهب التاريخى **Historicism** بواسطة اللجوء الى مبدأ غير مشروط ، سواء كان ذلك بمعنى متعال أو بمعنى محايث ، لأن عالم الانسان هو عمل الانسان اى عمل الأفراد فى علاقاتهم بعضهم مع بعض ، والتاريخية تنسب الى العالم الانسانى وحده ، ومجرى التاريخ يرجع الى النشاط ، فلا مجال اذن الى الاهابة بمبدأ فوق انسانى(٣٣) .

---

(30) Ibid. p. 405.

(31) Pelz. Op. cit. p. 45

(٣٢) د. عبد الرحمن بدوى : احدث النظريات فى فلسفة التاريخ . عالم الفكر ، ع ١ ، مج ٥ ، يونيو ١٩٧٤ ، ص ٢١٥ ـ ٢٤٤ ، ص ٢١٨ .

(٣٣) المرجع السابق ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

لقد قام دلتاى بصياغة مبادىء ثلاث تكون جانب هام مما أصبح يسمى بالتاريخية أو المذهب التاريخى وهى :

١ ـ ان كل الصور الانسانية هى جزء من عملية تاريخية ، وتحتاج ان تفسر بواسطة تعبيرات تاريخية ، ولا يمكن تعريف الدولة أو الأسرة أو حتى الانسان بطريقة دقيقة ومجردة ، لأن الخصائص الخاصة بكل منها تختلف باختلاف العصور .

٢ ـ من الممكن فهم العصور المختلفة والأفراد المختلفين بطريقة واحدة فقط وهى النفاذ بواسطة الخيال الى وجهة نظرهم الخاصة . فعلى المؤرخ أن يضع اذن نصب عينية كل ما اهتم به الفرد والعصر الذى يعيش فيه هذا الفرد .

٣ ـ ان المؤرخ نفسه محدد بآفاق عصره ، وتمثل الطريقة التى يتضح بها الماضى من خلال تصورات المؤرخ جانبا هاما من معنى هذا الماضى(٣٤) .

ومن نتائج هذه النسبية المنبثقة عن التاريخية أن قرر دلتاى أن الفلسفة مشروطة تاريخيا ، وان ماهية الفلسفة لا تتحدد بطريقة قبلية ، بل على أساس تحليل الطرق المختلفة التى تجلت عليها الفلسفة فى التاريخ ، مما سيظهر منه أن وحدة الفلسفة لا تقوم فى وحدة الموضوع أو المنهج ، بل فى وحدة الموقف الذى يفسر مختلف الأشكال التاريخية للفلسفة(٣٥) .

وقد اعتبر دلتاى علم النفس اساسا للعلوم الاجتماعية ، اى أن اهتمامه بالفرد جملة يختار علم النفس وليس علم الاجتماع كمنظور

(34) Rickman. op . cit. p. 405.

(٣٥) د. عبد الرحمن بدوى : المرجع السابق ، ص ٢١٩

اساسى . الا ان الفرد فى الحالتين يخضع لما هو عام ، فهو يرد الى مثال أو الى حالة بالنسبة للمعلومات التى تسلم الى تعميمات ذات معنى . لقد أثارت أعمال دلتاى مشكلة الوعى الاجتماعى والفردى وجعلتها مشكلة مستمرة عبر السياق الاجتماعى . لقد كان دلتاى يعكس الأيديولوجية الفردية لعصره ، التى تضع للفرد مكانه مثل مكانة الشىء فى ذاته عند كانط(٣٦) . وقد حاول دلتاى ان يصل الى علم نفس وصفى الى جانب علم النفس الطبيعى العلمى .

ولقد كان دلتاى ولا شك أول الداعين الى منهج جديد فى دراسة العلوم الاجتماعية وهو منهج الفهم الذاتى ، وعلى أساسه اقام دراسته للحياة الاجتماعية . بل لقد ذهب دلتاى الى ابعد من ذلك عندما اقام هذه الدراسة على الانتقاء ، انتقاء يتم فى ضوء أنماط اجتماعية ذات معنى . وتقوم هذه الأنماط على الوحدة النفسية أو العقلية للجنس البشرى حيث يتاح فهم الماضى والمجهول فى ضوء الحاضر والمعروف . وقد وجد دلتاى أن مهمتنا تكمن أساسا فى هذا الفهم التدريجى « لذلك النمط الأساسى المثالى » فى تغيراته النفسية أو العقلية من خلال اعادة كشف للأنا فى الآخر Thou(٣٧) .

ثانيا : اتجاه ماكس فيبر ونظرته الى التفسير :

يعتبر فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) من أقوى المدافعين عن منهج الفهم الذاتى واحد الممهدين البارزين للفنومنولوجيا . وقد جمع بين تاثير كل من دلتاى وريكرت ومذاهب المثالية الألمانية والكانتية ، كما تاثر بتاكيد الوضعية على الأسباب والتثبت التجريبى والتعميم . ومن هنا اهتمامة بالدراسات الخاصة بالمنهج ، والنقد ، والفلسفة خاصة فى جانبها

---

(36) Pelz op. cit. p. 45.

(37) Dilthey. op. cit. introduction by Truzzi (ed). p. 9.

المرتبط بالعلوم الاجتماعية ، بالاضافة الى اهتمامه بالتاريخ وعلم الاجتماع ٠

وقد جعل فيبر التفسير الهدف الأساسى للعلم حتى أنه تحدث عن علم الاجتماع باعتباره يهدف الى الفهم التاويلى للسلوك الاجتماعى من أجل الوصول الى تفسير مسار السلوك ونتائجه ٠ وقد ميز فيبر بين نوعين من السلوك : « السلوك الانسانى » الذى ينشأ عن ارتباط شخص أو أشخاص بفعل ذو معنى ذاتى ، وقد يكون هذا السلوك عقلى أو خارجى ، وقد يتكون من فعل معين أو قد يكون استبعاد للفعل ، ثم « السلوك الاجتماعى » الذى يعبر عن الأنشطة التى ترتبط أهدافها بواسطة الأشخاص الموجودين فى الموقف بسلوك أفراد آخرين خارج الموقف ٠ وتتأثر هذه الأهداف كنتيجة لهذا الارتباط(٣٨) ٠ ويعتبر الفرد هو الوحدة الهامة فى علم اجتماع فيبر ، وليست الكليات الاجتماعية الا نتيجة للأفراد وشكلا من أشكال تنظيم الأفعال ٠

ويتضمن الفعل الاجتماعى عند فيبر كل مظاهر السلوك الانسانى ، حيث أن كل سلوك انسانى هو ببساطة سلوك هادف ، ومن ثم يكون للانسان الاجتماعى السالك أهدافه المحددة بالذات ، كما يكون لسلوكه هذا « معناه » وهذا المعنى الذى يستنبطه الفاعل الاجتماعى انما هو « معنى ذاتى » Subjective meaning كما ويتطابق هذا المعنى الذاتى ، فى نفس الوقت مع ذلك المعنى « السائد فى عقول الآخرين »(٣٩) ٠

Weber. on Subjective Understanding in the Social Scinces op. cit. p. 20.

(٣٩) د٠ قبارى محمد اسماعيل : قضايا علم الاجتماع المعاصر ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٦ ، ص ٣٠٩

وقد ميز فيبر بين أربعة انماط من الفعل هى : الفعل العقلى فى علاقته بهدف ما Zweck rational action ، والفعل العقلى فى علاقته بقيمة ما wartrational action ، والفعل العاطفى affective or emotional action ، واخيرا الفعل التقليدى traditional action

ترجع أهمية هذا التصنيف الى عدة عوامل تتمثل فى :

١ ـ ان فيبر اعتبر علم الاجتماع علما شاملا للفعل الاجتماعى لذا فان تنميط الأفعال يعتبر اكثر المستويات تجريدا فى النسق التصورى الموجود فى المجال الاجتماعى .

٢ ـ وفى نفس الوقت اعتبر فيبر علم الاجتماع علما شاملا للفعل الانسانى ويهدف من هذا الى فهم المعنى الذى يضفيه كل فرد على سلوكه الخاص لذا فمن المهم الوصول الى شمول للمعانى الذاتية عن طريق تصنيف أنماط الأفعال كمدخل لفهم البناء الواضح لهذا السلوك .

٣ ـ أثر تصنيف فيبر لأنماط الأفعال على تفسيره للحقبة الزمنية المعاصرة له ، فقد رأى أن الخاصية الرئيسية للعالم الذى نعيش فيه هى التعقيل rationalization ، ويظهر هذا فى أتجاه المجتمعات الحديثة الى توسيع دائرة الأفعال العقلية المرتبطة بالأهداف .

٤ ـ يرتبط تصنيف الأفعال بجوهر فلسفة فيبر وهو علاقات الارتباط بين العلم والسياسة أو استقلالهما(٤٠) .

لقد رأى فيبر ان هدف العالم هو الوصول الى قضايا عن الواقع

---

(40) Aron Main . Currents in Sociological Thought op. cit. pp. 186 - 188.

أو الى علاقات سببية أو الى تفسيرات صحيحة بشكل عام ، وبهذا المعنى يكون البحث العلمى أحد الأمثلة المعبرة عن فعل عقلى فى علاقته بهدف ما . ويعتبر هـذا الهدف حقيقة عامة الا انه يتحدد عن طريق حكم قيمى ، وبالذات قيمة الصدق التى يتم التثبت منها عن طريق وقائع أو آراء صـادقة بشكل عام(٤١) .

ويذهب فيبر الى أن الفعـل الاجتماعى هو كل عمل أو سلوك يقوم به الانسان ، كما يتضمن كل جهود الانسـان فى ماضيه وحاضره ومستقبله ، كما يحوى محاولاته الناجحة وتجاربه الفاشلة . بمعنى أن الفعل الاجتماعى يتعلق أصـلا بكل الجهود والمحاولات ، وكل ما لحق الانسـان من اخفاق أو نجاح(٤٢) .

ويعبر فيبر عن اسس منهجه كالتالى : اننا نفهم بوضوح معنى القضية ٢ + ٢ = ٤ كما نفهم نظرية فيثاغورس عن الاستدلال ، كمـا نفهم استخدام سلسلة من الاستدلالات العقلية وذلك بشكل منطقى وفى توافق مع طرق مقبولة للتفكير . ونحن نفهم بنفس الطريقة افعال شخص ما فى محاولته تحقيق هدف معين عن طريق اختيار طرق مناســبة ، نفهمه فى حالة كون حقائق الموقف التى يقيم عليها اختيـاره مألوفـه بالنسبة لنا . ويملك تفسـير هذا الفعل الهدفى العاقل ـ بقصـد فهم الوسـائل المستخدمة ـ أعلى درجات التاكيد . ويمكننا ان نفهم من أجل أهداف التفسير الأخطاء التى قد نتعرض لها نحن أيضا ، وذلك عن طريق التحليل الذاتى القائم على المشـاركة الوجدانية . ويحدث أحيانا أن نفشـل فى فهم كثير من الأهداف والقيم التى نتبين من الخبرة أن السلوك البشرى يتجـه اليها ، وذلك على الرغم من كوننا نستطيع أن ندركها . فكلما اختلفت هـذه الأهـداف أو القيم عن قيمنا بشـكل أساسى ، كان

---

(41) Ibid 189.

(٤٢) د. قبارى اسماعيل : مرجع سـابق ، ص ٣١١

من الصعب علينا أن نفهمها عن طريق المشاركة الوجدانية . ويجب علينا فى مثل هذا الموقف أن نكتفى بتحقيق فهم فكرى خالص لأمثال تلك القيم . وفى حالة فشلنا نكتفى بقبولها باعتبارها معلومات متاحة . الا أن علينا كلما كان هذا ممكنا أن نحاول فهم السلوك الذى تحركه تلك القيم وذلك بقصد التفسير أو التأويل الانفعالى أو العقلى فى مختلف مراحل تطوره . ويذكر فيبر كمثال على ذلك كثيرا من الأفعال الدينية أو الخلقية التى لا يفهمها من يتعرضون لمثل هذه القيم(٤٣) .

وقد أخذ فيبر عن ريكرت الفكرة التالية : ان ما يقدم للعقل الانسانى ليس الا مادة بدون شكل ، والعلوم ما هى الا تشكيل أو بناء لتلك المادة الخالية من الشكل . وقد رأى ريكرت أنه يوجد حسب طبيعة التشكيل الذى تخضع له المادة نوعان من العلوم : التشكيل الأول ، وهو خاص بالعلوم الطبيعية يتمثل فى تناول الخصائص العامة للظواهر ثم اقامة علاقات منتظمة أو ضرورية بينها ، ويتجه هذا التشكيل نحو بناء نسق من القوانين أو العلاقات التى تتزايد عموميتها وقد تملك طبيعة رياضية . وتعتبر الفيزياء النيوتونية أو فيزياء اينشتاين أو العلم النووى الحديث نمطا مثاليا للعلم الطبيعى ، حيث تشير التصورات الى موضوعات قام العقل ببنائها . أما النسق الخاص بهذه العلوم فهو النسق الاستنباطى الذى يبدأ من قوانين أو مبادىء مجردة وبسيطة وأساسية . أما النوع الثانى من التشكيلات العلمية فتتميز به العلوم التاريخية أو علوم الثقافة . وفى هذه الحالة لا يحاول العقل أن يقدم مادة لا شكل لها فى نسق من العلاقات الرياضية ، وانما يقوم بانتقاء فى داخل المادة عن طريق ربط المادة بالقيم . ومن هنا يصبح كل تقرير تاريخى اعادة بناء انتقائى لما حدث فى الماضى(٤٤) .

---

(43) Weber op. cit. pp. 21 - 22 .

(44) Aron. op. cit. p. 195.

وهنا يقدم فيبر علما للاجتماع متضمنا لنوعين من السلب أمـام الواقعة : فمن جهة لا يوجد علم يستطيع أن يقول للانسـان كيف يعيش أو للمجتمعات كيف تنظم نفسها ، ومن جهة أخرى لا يوجد علم يستطيع أن يقول للبشرية ما هو المستقبل . السلب الأول يميز فيبر عن دوركايم والثانى عن ماركس . لقد رأى فيبر ان الفلسـفة ذو النمط المـاركسى تقع فى اخطاء لأنها لا تتفق مع طبيعة كل من العلم او الوجود الانسانى . ان كل علم سـواء كان تاريخيـا أم اجتماعيا هو عبارة عن وجهة نظر جزئية وبالتالى لا يستطيع أن يدلنا مسبقا على المستقبل ، لأن المستقبل لا يمكن أن يحدد مسبقا . وحتى فى حالة وجود بعض الأحداث الممكنة التحديد مسبقا فان الانسـان الفاعل أو الانسـان العادى البسـيط سيبقى حرا فى رفض الحتمية الجزئية أو فى التلائم معها(٤٥) .

ان التقريرات التاريخية والاجتماعية تهتم بالوقائع الملاحظـة أو القابلة للملاحظـة ، وتسـعى للوصـول الى واقع محدد أى الى سـلوك إنسانى فى ضوء المعنى الذى يضفيه الذين يقومون بالفعل . ان هدف فيبر ليس الا التوصـل الى فهم طريقة حياة البشر فى المجتمعات المختلفة كمحصـلة لمعتقدات مختلفة ، وكيف اعتمدوا على عنصر الوقت وكرسـوا أنفسهم لنشـاط أو آخر عاقدين الآمال على العالم التـالى وأحيانا على العالم الحاضر يتملكهم التفكير فى الخلاص وأحيانا فى التطور الاقتصادى . ويحاول عالم الاجتماع فهم الطريقة التى يختبر بها البشر مختلف أشكال الوجود وذلك فى ضوء النسـق المحدد للمعتقدات والقيم والمعرفة الخاصة بمجتمع معين(٤٦) .

ولا يقتصر فيبر على القول بأن كل من العلوم التاريخية والعلوم الاجتماعية هى تفسيرات مفهومه للمعنى الذاتى للسـلوك ، وانما يرى

---

(45) Ibid. p. 197.

(46) Ibid. p. 198.

ايضا انها علوم علية أو سببية . ان عالم الاجتماع لا يقتصر على تفسير نسق المعتقدات وسلوك الجماعات وانما يبحث ايضا عن تاكيد لكيفية حدوث الأشياء وكيفية تحديد التفكير للفعل ، وكيفية تأثير نظام سياسى معين على نظام اقتصادى . اى أن العلوم التاريخية والاجتماعية تطمح فى التوصل الى تفسير سببى كما تطمح فى تأويله بطريقة مفهومه . ويعتبر تحليل التقريرات السببية أحد الوسائل للتثبت من النتائج العلمية .

وتتحدد مشكلة السببية التاريخية فى دور السوابق (الشروط السابقة) الموجودة وراء الحدث . ويتضمن تحليلها الاجراءات التالية :

١ ـ تعريف واضح لخصائص الكيان التاريخى المراد تفسيره .

٢ ـ تحليل الظاهرة التاريخية فى عناصرها ، لأن العلاقة السببية ليست علاقة بين فترة زمنية حالية وفترة زمنية سابقة ، ان العلاقة السببية هى دائما علاقة جزئية وزائفة بين بعض عناصر الموضوع التاريخى وعناصر اخرى سابقة .

٣ ـ يحتاج التحليل السببى عند تناول حدث تاريخى فردى أن يستعين بعملية تغيير متخيل لأحد العناصر فى محاولة تبين ما يمكن أن يحدث فى حالة عدم وجود هذا العنصر أو فى حالة وجوده بصورة مختلفة .

٤ ـ وأخيرا لا بد من مقارنة هذا النطور المتخيل القائم على أساس تغير مفترض فى أحد الشروط السابقة بالتطور الواقعى ، وذلك قبل أن نستخلص النتيجة التى تقوم على كون العنصر الذى غيرناه على سبيل الفرض ليس الا أحد اسباب الوجود التاريخى الذى ندرسه(٤٧) .

---

(47) Ibid. pp. 199 - 200 .

لقد شعر فيبر أنه لا يوجد الا منطق علمى واحد ينطبق بشكل متساو على كل من الظواهر الطبيعية والظواهر الثقافية ». ويتطلب التثبت التجريبى من تقريرات كل نوع من الظواهر بناء للتصورات - خاصة وأنه لا يوجد فى طبيعة الموضوعات الثقافية ما يمنع من اقامة التصورات العامة . واذا كانت قيم الملاحظ تؤثر على ملاحظاته الاجتماعية ، مثلا فى اختياره للموضوعات النظرية ، فانه يستطيع توضيح هذه القيم والمضى فى تناول دورها بالنسبة للظواهر الاجتماعية والثقافية التى يلاحظها بشكل موضوعى خالص . ومن واجب علم الاجتماع الا يقبل فكرة كون الأساس « غير العقلى » للحياة الانسانية يتبدى فى الموضوع الفردى ، لأن هذه الفكرة تؤدى الى افتراض تفرد الظواهر الثقافية . والعكس هو الصحيح لذا يجب أن يكون الافتراض الأولى قائم على كون السلوك الانسانى قابل للتأويل بواسطة « نسق متسق من التصورات النظرية » . فنحن نبدأ بتحليل الظواهر الاجتماعية المحددة ، فيما يرى فيبر ، عن طريق بناء « أنماط مثالية Ideal types وذلك على افتراض أن الافعال تقوم على أساس عقلى . وفى حالة كون هذه الأنماط المثالية ، التى هى مقولات التحليل ، غير كافية لفهم المسار التجريبى للأحداث فاننا عندئذ نبحث عن عوامل « غير عقلية » irrational واننا لا نفترض ، حتى بالنسبة لهذه الحالة ، وجود « أشياء فى ذاتها » غير قابلة للادماج فى اطار نظرى متماسك(٤٨) .

ونستطيع أن نؤكد أن فيبر يهدف الى كشف الفهم الذاتى لمضمون السلوك الاجتماعى . ولن يتحقق هذا الا بواسطة الأنماط المثالية ، ويعرفها فيبر بأنها بناء تصورى يتشكل من ايجاد التآلف بين كثير من

---

(48) E. A. Tiryakian . Existential Phenomenology and the Sociologicla Tradition in the American Sociological Review XXX (Ocotber 1965) pp. 674 - 88 , p. 679 .

الأبعاد الواقعية المتفرقة ، التى تنظم بمقتضى وجهة من النظر تسلم الى تصور متسق لهذه الأبعاد(٤٩) .

ويمثل النمط المثالى النتيجة المنطقية لعدة اتجاهات فى فكر فيبر . فهو يرتبط من جهة بمفهوم الفهم الذاتى : فكل نمط مثالى ليس الا نظاما من العلاقات المدركة فى داخل كيان تاريخى أو تسلسل لأحداث معينة كما يرتبط النمط المثالى من جهة أخرى بخاصية تميز كل من العلم والمجتمع وهى عملية التعقيل rationalization ان بناء الأنماط المثالية ليست الا تعبيرا عن محاولة تتميز بها كافة الأنظمة العلمية وهى جعل موضوع الدراسة مفهوما عن طريق كشف (أو بناء) المعقولية الداخلية . ويرتبط النمط المثالى ثالثا بالتصور التحليلى لمبدأ السببية أو العلية : فهو يساعدنا على فهم العناصر او الكليات التاريخية الا انه فهم جزئى فى مواجهة كل شامل total whole (٥٠) .

وقد استخدم فيبر الأنماط المثالية ليشير الى ثلاثة أنواع من التصورات :

الأولى : هى الأنماط المثالية الخاصة بالوقائع التاريخية المفردة histarical particulars مثل الراسمالية أو المدنية الغربية (الأوربية) . ويظل هذا النمط اعادة جزئية للبناء لأن العالم قد اختار عددا محدودا من السمات من الكل التاريخى لكى يقيم وجودا مفهوما . وتعتبر عملية اعادة البناء واحدة ضمن عمليات أخرى ، وبالتالى فان الواقع بأكمله لم يدخل ضمن الصورة الذهنية لعالم الاجتماع .

---

(٤٩) د. عارف : مرجع سابق ، الجزء الأول ، ص ٦٢

(50) Aron. op. cit. pp. 206 - 207.

الثانية : هى الأنماط المثالية التى تشير الى عناصر مجردة للواقع التاريخى ، وتساعد هذه التطورات على فهم الكليات التاريخية الحالية وتمييزها عن غيرها . ويتضح الفارق بين التصور الأول والتصور الثانى اذا أخذنا الرأسمالية كمثال للأول والبيروقراطية كمثال للثانى ففى الحالة الأولى نقوم بتحديد وجود تاريخى حالى لا يشبه غيره . بينما نشير فى الثانية الى نظام ما أو شكل معين من الأنظمة السياسية لا يستوعب النظام كله وانما قد نجد له أمثلة عديدة فى فترات زمنية مختلفة من التاريخ .

أما التصور الثالث للأنماط المثالية : فهو الذى يقوم على اعادة بناء نوع معين من السلوك ثم فهمه ، وكمثال على ذلك يرى فيبر ان كل قضايا النظرية الاقتصادية هى اعادة بناء نمطى مثالى للطرق التى كان سوف يسلكها البشر فيما لو كانوا موضوعات اقتصادية خالصة . ان النظرية الاقتصادية تعتبر السلوك الاقتصادى منسقا مع ماهيته essence ومع تحديد واضح لهذه الماهية(٥١) .

لقد رأى فيبر ان تكوين مسار عقلى خالص للسلوك وتوجيهه الى الهدف يفيد علم الاجتماع بفضل سهولة فهمه وعدم غموضه ، وذلك عن طريق اعتباره « نمطا مثاليا » . ومن هنا فان الذى يساعدنا على فهم السلوك الحالى الموجه الى الهدف هى العوامل غير العقلية ذات الأشكال المختلفة (مثل الانفعالات أو الأخطاء) والتى نستطيع حينئذ تصنيفها باعتبارها انحرافات عن السلوك الأصلى المفترض(٥٢) .

وقد صنف فيبر الفهم الى فهم تجريبى مباشر لمعنى فعل ما والى فهم تفسيرى . الأول هو طريقنا لفهم قضية مثل ٢×٢ = ٤ عند سماعها

(51) Ibid. pp. 208 - 209 .
(52) Weber. op . cit. p. 22 .

او قراءتها : اننا فى هذه الحالة نمر بخبرة قائمة على الفهم العقلي المباشر للفكرة ٠ وهكذا نستطيع فهم ثورة غضب من خلال التعليقات ، وتعبيرات الوجه والحركات غير العاقلة التى تصحبها ٠

اما الفهم من النوع الثانى وهو الفهم التفسيرى فيقوم على قدرتنا على فهم دوافع اى فرد يقول لنا سواء شفاهة او عن طريقة الكتابة ان ٢ x ٢ = ٤ ، وذلك فى وقت معين وفى ضوء مجموعة ظروف محددة ٠ ويعتبر هذا فهما عقليا للدافع عن طريق النظر الى الفعل كجزء من موقف مفهوم ٠ وبهذه الطريقة نستطيع فهم ثورة غضب اذا عرفنا ان سببها المباشر يرجع الى الغيرة او جرح للكرامة او اصابة للكبرياء وكلها حدثت بطريقة انفعالية وبالتالى ترجع الى دوافع غير عقلية ٠ ان السلوك الذى نقوم بدراسته فى هذا الموقف ليس الا جزءا من سلسلة انفعالات قابلة للفهم ٠ ويعتبر هذا الفهم صادقا للمسار الحالى للسلوك ٠ فاذا كنا نريد علما يتناول المعنى الحقيقى للسلوك فعلينا ان ندرك ان التفسير يحتاج الى معرفة وفهم لسياق المعنى الذى يحدث خلاله المسار الحالى للسلوك(٥٣) ٠

ان عملية الفهم اذن هى عبارة عن فهم تأويلى لمجموعات ثلاث : اما فهم لحالات فردية واقعية كما هو موجود فى التحليلات التاريخية ، او فهم لحالات عادية كالتحليلات الاجتماعية ، او لنوع خالص من البناءات المصاغة علميا والتى تحدث بكثرة كما هو موجود فى البناءات ذات النمط المثالى كالتصورات والبديهيات فى النظرية الاقتصادية الخالصة(٥٤) ٠

لقد قبل فيبر منهجى « الحدس » intuition والفهم الذاتى او التأملى verstehen كاشكال لادراك الظواهر الثقافية التى لا ترد

---

(53) Ibid. pp. 24 - 25.

(54) Loc. Cit.

بحكم طبيعتها الى الظواهر الفيزيائية • وقد استبعد فيبر التأويل السببى المــادى للتاريخ فى ضوء حتمية اقتصادية ، لأنه ادرك بوضوح ان السلوك الانسانى غير قابل للفهم بدون الاشــارة الى دوافع من يقوم بالفعل من البشر والى المعانى الذاتية التى يضفيها على افعاله • ويعتبر هذا التأكيد على المعانى الذاتية للموقف الاجتماعى جوهر علم الاجتماع الفيبرى • ويعبر منهج الفهم الذاتى لدى فيبر عن الفنومنولوجيا الوجودية لأنه يتطلب من الباحث الاجتماعى أن يكشف عن المعانى الذاتية الموجودة فى الظواهر التاريخية ثم يقوم بربط مجموعة من المعان بمجموعة أخرى ـ مثلا ربط الفعل الاقتصادىبالدافع الدينى• لقد رأى فيبر ان المهمة الرئيسية للبحث الاجتماعى تنحصر فى تبسيط ابعاد البناءات الاجتماعية التاريخية ، ويختلف هذا تماما عن محاولة صياغة قوانين اجتماعية سببية قد تملك ضمنا وجهات نظر حتمية للباحث نفســه(٥٥) •

ويقول فيبر فى اطار الفهم الذاتى او التأويلى بمفهومات أربعــة يرتكز عليها الانســان خلال عملية الفهم أو التأويل :

العنصر الأول من عناصر الفهم : هو « التفسـير » أو « التأويل » وهو ما يسميه فيبر Denten ويتعلق هذا العنصر بالحالات الذاتيــة أو العقلية التى تتوظف فى محاولة الكشف عن « المعانى » من اجـــل التفسير أو التأويل(٧٦) •

اما العنصر الثانى من عناصر الفهم : فهو ما يسميه فيبر Sinn وهو التعبير المرادف للكلمة الانجليزية meaning حيث أن « المعنى »

---

(55) Tiryakian . Existential Phenomenology op. cit. p. 679.

(56) M. Weber. The Theory of Social and Economic Organizations trans. by Hindesson. Glencoe, 1947 pp. 88 - 89 Quoted in .

هو العنصر الضرورى من عناصر الفهم ، حين يكشف المعنى عن طبيعة موضوع التفسير الذى هو « الفعل » أو السلوك الاجتماعى ٠

والعنصر الثالث من عناصر الفهم : هو ما يسميه فيبر Handeln وتشير هـذه الكلمة الى موضوع التفسير وهو الذى يتجلى فى الظاهرات العينية المشخصة ، تلك الظاهرات التى تتعلق بالسلوك الانســانى ٠ واخـيرا يشير فيبر الى العنصر الرابع : وهو ما يسميه باسم Verhalten وتشـير هـذه الكلمة بمعناها الواسـع الى كل نمط من انماط السلوك الاجتماعى ، كما يتحقق عند سائر افراد بنى البشر(٥٧) ٠

لقد حاول فيبر فهم معنى كل الوجودات سـواء الفردية أو الجمعية، المعاشـة أو المختارة ، وذلك بدون اخفاء عبء الضرورات الاجتماعيـة التى تضغط علينا أو الالزام الخاص باتخاذ القرارات التى لا يمكـن التثبت منها علميا ومن المتعذر اجتنابها ٠

ولقد عبر فيبر بصراحة عن تصوره لعلم الاجتماع باعتباره علمـا للفعـل الاجتماعى ٠ فالانسـان باعتباره مخلوقا اجتماعيا ودينيا هو مبدع القيم والأنسقة الاجتماعية ، وعلم الاجتماع يحاول فهم تلك القيم والأنسقة اى القيام ببناء الفعـل الاجتماعى ٠ ان فيبر هو الذى صاغ تعريف علم الاجتماع كعلم شـامل للفعـل الانسـانى وهذا يعنى فى المقام الأول استبعاد للتعريف المعروف باسم التفسـير الطبيعى اى انه استبعاد لاحتمال النظر الى الفعل الاجتماعى فى ضـوء الوراثة أو البيئة ٠ ان الانسـان عندما يقوم بالفعل يختار أهدافه ، ويستخدم وسائل معينة ، ويتكيف مع ظروف قائمة ، ويسترشد بأنسـقة للقيم ٠ ويشـير كل تقرير من التقريرات السـابقة الى جانب واحد من عملية فهم السلوك اى الى عنصر واحد من عناصر بناء الفعـل الاجتماعى(٥٨) ٠

---

(٥٧) د ٠ قبارى اسماعيل : مرجع سابق ، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١

(58) Aron. op. cit. p. 269.

ثالثا : اتجاه ادموند هوسرل ونظرته الى التفسير :

برز هوسرل (١٨٥٣ ـ ١٩٣٨) كمؤسس للفنومنولوجيا باعتبارها علما جديدا متميزا عن غيره من العلوم الأخرى • واذا كان هوسرل قد اهتم بالخبرة experience كغيره من الفلاسفة أو العلماء ، الا أنه اختلف عنهم فى تأكيده على الخبرة المعاشة بشكل موضوعى غير متحيز • وقد تناول هوسرل موضوعات فنومنولوجية متنوعة كالبحث عن الماهية والتأكيد على « قصدية » الوعى ، ومنهج الرد الفنومنولوجى ، وافكار النزعة النفسية المتطرفة ، والرجوع الى أسئلة متعالية أو ترنسنتالية ، والاهتمام بعالم الحياة • وترتبط هذه الموضوعات ببعضها البعض فلا يمكن فهم احداها بمعزل عن الموضوعات الأخرى •

واذا كانت الفنومنولوجيا هى علم « الظواهر » فان بقية العلوم تناولت أيضا الظواهر ، فنرى ان علم النفس يتناول الظواهر النفسية والعلم الطبيعى الظواهر الطبيعية ، والتاريخ أحيانا يدرس الظاهرة التاريخية ، والعلوم الثقافية تتناول الظواهر الثقافية • الا ان الفنومنولوجيا تميزت عن هذه العلوم جميعا بأنها تتناول كل هذه الظواهر المذكورة فى كل معانيها ، وذلك على الرغم من اختلاف استخدامات التعبير « ظاهرة » وتعدده فى مختلف الأنسقة ، وعلى الرغم من اختلاف المعنى الذى ينسب اليه • ان دراسة الفنومنولوجيا للظاهرة تنطلق من منظور متميز : فهى تقوم بتغيير كل المعانى التى تنسب الى مفهوم الظاهرة فى كافة العلوم الموجودة وذلك باستخدام طريقة معينة • ويعتبر هذا التعديل خطوة سابقة على ادخال هذه المعانى فى مجال الفنومنولوجيا(٥٩) •

---

(59) E. Husserl . Ideas : General Introduction to Pure Phenomenology . Trans . by W. R. B. Gibson London : George Allen and Unwin Ltd. 1931, p. 41.

ان موضوع الدراسة الفنومنولوجية هو الخبرات بانماطها وابنيتها .
وقد حرص هوسرل على التميز بين التحليل الفنومنولوجى والتحليل النفسى لها . فعلم النفس علم تجريبى يدرس الخبرات كأحداث تجريبية فى عالم تجريبى ، ويشير الوصف والتعميمات الخاصة ، الى خبرات داخل هذا السياق التجريبى . بينما تتضمن النومنولوجيا على حد تعبير هوسرل « ان نضع بين قوسين الشكل الوجودى والتاريخى للخبرة ، ونركز على الماهيات essences » أو « الأنماط المثالية » التى تمثلها الخبرات . هذه الخبرات اما أننا نملكها أو نستطيع تصورها عن طريق المخيلة . وتهتم الفنومنولوجيا بدراسة امثال هذه الماهيات وتوضيح مختلف العلاقات بينها : فهى تبحث فى الأبنية الضرورية للشكل ، والادراك الحسى ، والحكم ، والاحساسات ... الخ ، باختصار فى كل ما نراه من خلال ادراك حدس صرف للماهية سواء كانت عامة generic أو محددة specific وبنفس الطريقة يعبر علم الحساب الخالص عن الاعداد ، وعلم الهندسة عن الأشكال المكانية مستخدما الحدوس الخالصه فى عموميتها الواضحة والمنتجة(٦٠) .

يرى هوسرل اننا لكى نحكم على الخبرة – أو التجربة – نكون فى حاجة الى علم يتجاوز حدودها . والأسئلة التى تثيرها الخبرة لا يمكن أن نستخلص اجاباتها من نفس هذه الخبرة فلا بد لنا من نظرية للمعرفة لتفسير معطيات الخبرة ، وهذه النظرية الجديدة تقوم على العلاقة الوثيقة بين الوعى أو الشعور والوجود باعتبار ان الوجود متضايف الى الوعى أو الشعور وان الوعى أو الشعور هو المحل الوحيد الذى تتحقق فيه موضوعية الوجود(٦١) .

(60) E. Husserl . Logical Investigations . in E. Pivcevic (ed.) Phenomenology and philosophical understanding Cambridge University press 1957 p. VIII .

(٦١) ادموند هوسرل : التأملات الديكارتية ، ترجمة د . نازلى اسماعيل حسين ، القاهرة ، دار المعارف ، مقدمة المترجم ، ص ٧١

أما المنهج الفنومنولوجى فهو ليس منهجا استنباطيا كما أنه ليس منهجا تجريبيا ، وانما هو ينحصر اولا وبالذات فى الكشف عما هــو « معطى » ، والقــاء الأضواء على هذا « المعطى » ؛ فهذا المنهج لا يصطنع طريقة التفسير بالالتجاء الى بعض القوانين ، كما أنه لا يقوم بأى استنباط ابتداء من بعض المبادىء ، بل هو ينظر مباشرة الى ما هو فى متناول الوعى ، الا وهو « الموضوع » . ومعنى هذا انه يستهدف « الموضوعى » ويحاول الكشف عما اصطلحنا على تسـميته باســـم « الظاهرة » ، وبعبارة اخرى يمكننا ان نقول أن ما يهم أولا وقبل كل شىء ليس هو « الفكرة الذاتية » ، ولا هو النشاط الذى تقوم به الذات (وان كان من الممكن ان يصبح هذا النشــاط نفســه موضوعا لمثل هذا البحث) ، بل ما يهمه هو هــذا الذى يعرف ، أو يوضع موضع الشــك ، او يحب ، أو يبغض ... الخ ، وحينما تكون بازاء تمثل خالص ؛ فانه لا بد لنا من ان نميز المتصور (بكسر الواو) عن المتصوز (بفتح الواو) . ولنفرض مثلا اننا نتصور ذلك الكائن الخرافى الذى يسمونه « القنطور » ، فلا بد لنا فى هذه الحالة من أن نميز بعناية هذا الموضوع نفسه عن افعالنا النفسية . ومع ذلك فان هوسرل يرفض « الأفلاطونية » : لأنه لا يمكن ان تكون الأفلاطونية صحيحة ، اللهم الا اذا كان كل موضوع حقيقــة واقعيــة(٦٢) .

ويشــبه هوسرل الفنومنولوجيــا بعلم الحســاب الخالص ، وعلم الهندســة الخالص ، وكلاهما ليس بعلم تجريبى . أنهما بالاحرى يهتمان بأنماط معينة من الأبنية والعلاقات الداخلية بينها ، وتعبر قضاياها عن الخصائص المميزة لهذه الأبنية بدون أى اشــارة الى خصائص تجريبية ،

---

(٦٢) د . زكريا ابراهيم : دراســات فى الفلســـفة المعــاصرة ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩

انها كما يقول هوسرل « علوم المـاهيات او العلوم الأيدتيكية » (ويستخدم هوسرل التعبيرين : ماهية essence وأيدتيكى eidetic ليعبر عن نفس المعنى) • ويرى هوسرل أن العلاقة بين الفنومنولوجيا وعلم النفس تشبه تماما العلاقة بين الرياضيات والفيزياء • فعلم النفس علم تجريبى مثل الفيزياء ويعتمد على الفنومنولوجيا لتوضيح تصوراته الأساسية كما تعتمد الفيزياء على الرياضة بنفس الطريقة لتوضيح تصوراتها الأساسية • الا ان هذا التشبيه عليه ان يراعى ان الفنومنولوجيا تقع من الناحية الفلسفية فى مكانة اعلى من الرياضيات لأن التصورات الرياضية نفسها تحتاج الى توضيح فنومنولوجى • وتقع الفنومنولوجيا فى مرتبة اعلى أيضا من المنطق : فمن طريق استكشاف الأبنية الأساسية الخاصة بالتفكير والمعرفة يمكن للأفكار المنطقية الوصول الى الوضوح والتحديد المعرفى • أى ان الفنومنولوجيا تساعد على توضيح أسس المعرفة ذاتها(٦٣) •

ويمكن تلخيص موقف هوسرل كالآتى : اننا نعبر عن المعرفة بواسطة الأحكام ، ويتم التثبت من الأحكام عن طريق الخبرة البديهية ويوجد نوعين متميزين من هذه الخبرة : الخبرة البديهية المشار اليها باسم الادراك الحسى sense perception ثم الخبرة البديهية التى يطلق عليها هوسرل اسم حدس خاص بالماهية أو حدس ايديتيكى essential or iedetic وهى تهدف الى عيان الماهية التى تعطينا منفذا الى الأنماط والأبنية والعلاقات الخاصة بالمعنى • ان وجود اختلاف اساسى بين هذين النوعين من الخبرة البديهية أى بين النظرة الحسية والنظرة الماهوية هو فى حد ذاته واقعة فنومنولوجية • ويريد هوسرل من وراء ذلك أن يبين ان هذا مرتبط بتحليل الخبرات ذاتها ، لأن الخبرات نفسها يمكن ان تخضع للحدس الأيديتيكى واننا لنستطيع

---

(63) Husserl Logical Investigations in Pivcevie op. cit. P. VIII.

بالتفكير الفنومنولوجى ان نتجرد من كل الاعتبارات الوجودية المرتبطة بالخبرات مثل الأحداث التجريبية ثم نركز فقط على البناء الأيديتيكى . ويعطينا هـذا ـ فى حالة الخبرات المعرفيـة ، وهى التى يهتم بها هوسرل بشكل خاص ـ امكانيـة التوصـــل الى استبصارات معرفيـة هامة كما يسمح لنا بتوضيح الافتراضات الأساسية لكل دعاوى المعرفية(٦٤) .

ان بيت القصيد فى الفنومنولوجيا اذن ليس هو هذا المنهج الذى أراد هوسرل أن يضعه للوصول الى الماهيات ، بل هو نظرية « التحقق » التى اراد هوسرل من وراءها توفير البيانات اللازمة ، والبداهات المطلوبـــة لتحقق الحدث الذهنى . فليست البداهة « ضمانا » يكفل الحقيقة ، بل هى مجرد علامة أو قرينة على الحقيقة ؛ علامة أو قرينة تقبل التعـــديل والتصحيح والنقد والتكملة المستمرة . ولما كان جوهر عملية التفكير ـ فى نظر هوسرل ـ انما هو القصد او التصويب : بممعنى أن الفكر يتجـــه دائمـا نحو موضوع عال على الفعل الذى يكونه ، فان نظرية البداهة عند هوسرل تتخذ طابعا جديدا يتلائم مع هذه النظرة القصدية الى الوعـى أو الشعور . وهنا يقرر أن عملية « التصويب » أو « القصد » تحتمل اشكالا عدة وتتخذ انماطا مختلفة ، تقابلها اشكال عدة وأنماط مختلفة من « البداهات » أو « البينات »(٦٥) .

وقد أدخل هوسرل فى فلسفته تصورات أو مفاهيم جديدة مثل « وعى أو شعور متعال » ، « ذاتية متعالية » ، « ذات متعالية » . ان كراهيـة هوسرل للنسبية فى أى شكل من اشكالها ، ورغبته فى استبعاد أى اقتراح لعلم نفس متطرف من نظريته عن الأفعال القصدية ، واهتمامه المركز بالشروط القبلية لامكانية التوصل الى معرفة موضوعية ، كل هذا ادى بـه

---

(64) Ibid. p. IX.

(٦٥) د . زكريا ابراهيم : مرجع سابق ، ص ٣٤٧ .

الى تفضيل وجهة نظر متعالية ومن هنا اتجه الى منهج خاص يسمح له بتطوير الفنومنولوجيا « كعلم متعال » ٠

ونظر هوسرل الى الوعى باعتباره دائما وعيا بشىء ما ، لذا وجد جانبان متكاملان للوعى : ٠ ٠

الاول : هو عبارة عن العملية التى اعى بها ذاتى (الكوجيتو) ، وهى تاخذ اشكالا مختلفة (التذكر ، الادراك الحسى ، التقييم) ٠

والثانى : هو موضوع الوعى cogitatum ٠ ويقوم العالم الفنومنولوجى بدراسة الوعى بواسطة منهج خاص هو منهج « الرد الفنومنولوجى phenomenological reduction ، ويحاول هذا المنهج كشف عالم الوجود (الوعى « الخالص ») الذى يظل غير متاثر بالأفكار التى نحملها فى مواقفنا الطبيعية : ويعتبر النظر الى الوعى باعتباره منطقة « فريدة » من الوجود احد المبادىء الأولى للفنومنولوجيا ٠ ويمكن كشف هذه المنطقة بواسطة المنهج الفنومنولوجى مع الاحتفاظ بها سليمة لا تتشوه أو تتغير من جراء هذا المنهج ٠ وهكذا يظل الوعى منبع او اصل الكائن كله ، ولا يمكن التوصل الى خصائصه الرئيسية الا عن طريق تحليلات وقائعية أو طبيعية أو نفسية او اجتماعية ٠ وهكذا تبدو الأسس الاصيلة للوعى الخالص مفتوحة امام الوصف القصدى والحدسى للمنهج الفنومنولوجى وحده(٦٦) ٠

وهكذا نرى أن منهج الرد لا يمت بصلة الى المعنى الذى رأيناه لدى

---

(66) M. Phillipson , Phenomenological phillosophy and sociology in P. Felmer, M. Phillopson, D. Silverman, D. Walsh. New Directions in Sociological Theory . London : Collier, Macmillan Press 1973, pp. 119 - 163 , p. 123.

الاتجاهات الوضعية باعتباره احتزال شىء أو تفسيره بالرجوع الى شىء آخر . ان الرد فى الفنومنولوجيا هو الرجوع الى الأصل أى الى الأشياء الأولى التى أصبحت غامضة أو اختفت أو حجبت بواسطة أشياء أخرى .

ولا شك ننا نرى عبارات مختلفة للتعبير عن نفس المنهج ، فأحيانا يقال الرد وأحيانا يقال الابوخية époché وقد يقال وضع العالم خارج اللعبة أو تعليق الحكم ، أو وضع العالم بين قوسين .. .. الخ . وفى الواقع أن هذا المنهج يقوم على تمييز هوسرل بين الموقف الطبيعى الذى يوضح كل من نظرة العلوم الطبيعية والثقافية الساذجة ونظرة الحس الشائع للحياة اليومية وبين موقف الشك الراديكالى المؤدى الى ايقاف الاعتقاد فى العالم وذلك بواسطة عملية الرد الفنومنولوجى . فاذا ما قمنا باستبعاد أحكام موقفى الطبيعى المفروغ منه فانى أجد نفسى فى مواجهة الموضوعات القصدية الخاصة بوعى الخالص وحدها . ان ما يتبقى اذن هو كل ما هو « حقيقى » و « موضوعى » ومتضمنا لمعلوماتى عن الخبرة الحدسية ، وهو ما تحاول الفنومنولوجيا الوصول اليه ووصفه .

لقد دعى هوسرل الى دارسة وقائع الفكر والمعرفة دراسة وصفية محضة ، دون المخاطرة بوضع أى فرض ميتافيزيقى كائنا ما كان ، على طريقة كل من المثاليين والواقعيين . ولئن كان هوسرل قد نادى بالعودة الى الأشياء نفسها ، الا أن هذه الدعوة لم تكن فى صميمها سوى مجرد رفض لشتى الأنظار الميتافيزيقية ، من اجل رؤية ما تنطوى عليه « معطيات » الشعور نفسها على نحو ما نعيشها فى صميم خبرتنا ، دون التقيد بأى راى سابق ، أو دون الأخذ بأى تفسير مسبق . ان « فلسفة الظواهر » تأبى منذ البداية الانتقال الى « التفسير » لأن تفسير اللون الأحمر الذى يضىء لى الآن مكتبى انما يعنى الانتقال الى « شىء آخر » غير هذا اللون العينى الذى افكر فيه ، من أجل الانتباه الى ظاهرة أخرى كالشدة أو الذبذبة الضوئئة أو ما الى ذلك . وعلى حين أن عالم الطبيعية يترك الشىء نفسه لكى يفسره بظاهرة أخرى أو علاقة أخرى ، نجد ان فيلسوف الظواهر

يريد ان يبقى وجها لوجه بازاء هذا الشىء لكى يقتصر على وصفه واكتشاف واجتلاء حقيقته(٦٧) ٠

والحق ان هوسرل قد أظهرنا على أن الانسان ليس منطقة من مناطق الطبيعة ، تربطها بالعالم الخارجي بعض العلاقات السببية ، وانما هو وعى أصيل هيهات لنا ان نجعل منه مجرد موضوع يقبل التفسير ٠ ومعنى هذا أن كل حالة من حالاتى النفسية ، سواء أكانت رغبة ، أم انفعالا ، أم صورة ذهنية ، لا يمكن ان تعد مجرد حلقة فى سلسلة طبيعية من العلل والمعلولات ، بـل لا بد من العمل على « فهم » العلاقة الايجابية التـى تربطنى بكل حدث من أحداث حياتى النفسية ، حتى أتحقق من أننى فاعل مسئول ، وانتى الأصل فى شتى مظاهر سلوكى(٦٨) ٠

ولا تخرج الفنومنولوجيا بهذا المعنى عن كثير من الدعوات المعاصرة المشابهة التى تحاول البحث عن بعد انسانى خاص بعلوم الانسان ، لا يتمثل فى التجارب الحسية كما كان عند التجريبيين ابتداء من بيكون حتـى الوضعية بكل صورها ٠٠٠ ان الفنومنولوجيا دعوة للحياة التى لا يمكن وضعها فى نطاق العقل أو فى نطاق المـادة(٦٩) ٠

لقد عملت أزمة العلوم الانسانية على ظهور نزعة لا عقلية متطرفة ، حتى أصبح الكثيرون يعدون « النزعة العقلية » نفسها مجرد ناتج تاريخى عرضى لبعض الظروف الخارجية ٠ ولهذا فقد وجد هوسرل نفسه مضطرا الى اثارة مشكلة اساس العلم بصفة عامة ، واساس العلوم الانسانية بصفة خاصة ٠ وقد كان الحافز له على اثارة هذه المشكلة هو اهتمامه البالـغ

---

(٦٧) د ٠ زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ٣٦٤ ٠

(٦٨) المرجع السابق ، ص ٣٦٩ ٠

(٦٩) د ٠ حسن حنفى : الظاهريات وازمة العلوم الاوروبية ، الفكر المعاصر ، ع ٩ ٥ يناير ١٩٧٠ ، ص ٠ ص ٣٨ ــ ٥٠ ، ص ٠ ٠

بتثبيت دعائم الفلسفة ، وحرصه الشديد على اعادة بناء « اليقين »(٧٠) ٠

ولا شك أن هوسرل قد اهتم بالعلوم الطبيعية ، الا انه حاول دائما أن يبتعد عن المبالغة فى تقدير علم معين أو منهج معين ٠ ولم ينظر هوسرل الى العلم الطبيعى كنموذج للمعرفة أو كمثل أعلى يجب على العلوم الأخرى أن تحتذيه أو كطريق وحيد لكشف الحقيقة ، وبذا تميز بوضوح عن الاتجاه الوضعى الذى سبق ان رأينا كيف أنه اشتق تصورة للمعرفة من العلم التجريبى نافيا امكانية أى طريق آخر ٠

لقد رأى هوسرل أن العلم الحديث لا يستطيع بعد أن فصل نفسه عن الفلسفة أى يقدم أجوبة على بعض الاسئلة الاولية التى يضعها الانسان فى كل زمان ٠ لقد قامت النزعة التجريبية فى الفلسفة الحديثة ابتداء من لوك وهيوم على الاكتفاء الساذج بالعلم كنتيجة طبيعية للفصل بين العلم والفلسفة مما ادى بالعلم الى العجز عن فحص افتراضاته الخاصة ٠ اذا رأى هوسرل ان هذا الاتجاه التجريبى لم يكن جادا فى توضيح أسس العلم ولن يستطيع حل « أزمة » العلم الحديث ٠ كل ذلك بسبب انفصاله عن الموضوعات الأساسية للحياة التى تملك معنى خاصا بها(٧١) ٠

ان نظرة هوسول الى العلم الطبيعى قائمة على كون الذات subject والموضوع object غير منفصلين ٠ فالذات لا تمثل شيئا بدون العالم ، فهى دائما « ممتلئة » بهذا العالم بسبب قصدية الوعى أو الشعور ٠ والموضوع يحتاج الى التثبت داخل الوعى الذاتى ٠ ولما كانت العمليات العلمية بالمفهوم الفنومنولوجى هى أفعالا للوعى ، معقدة فى

(٧٠) د٠ زكريا ابراهيم : مرجع سابق ، ص٣٦٧٠ ٠

(71) T. Luckman. Philosophy, Science and everyday Life. in M. Natanson . Phenomenology and the Social Sciences Op. Cit. pp. 143 - 185, p. 144.

بنائها ومتميزة وقصدية ، فان واقعية العلوم تقوم على تلك الأفعال المحددة التى يقوم بها الأفراد بطريقة تجعلها معطاه على أساس انها افعال عادية للوعى(٧٢) ٠

ان الظاهرات لم تجعلنا فى الواقع نفقد العالم بوصفه موضوعا ظاهريا فى « التعليق » الكلى من حيث وجود أو عدم وجود العالم٠ اننا نحتفظ به بوصفه الموضوع المفكر فيه ٠٠٠ ان الوعى أو الشعور بهذا الكون هو دائما حاضر فى وحدة الوعى أو الشعور الذى يمكن أن يصير هو ذاتا وعيا أو شعورا ادراكيا ، بل هو يصبح بالفعل فى صورته اللانهائية فى المكان والزمان(٧٣) ٠

ولا يعتبر عالم العلم عالما ثانيا يجاور عالم الواقع اليومى أو يتعال عليه ، بل هو هذا العالم نفسه : يعاش ويختبر من جهة ، ويدرس بطريقة موضوعية من جهة أخرى ٠ وقد ادى هذا التفكير بهوسرل الى موضوع أساسى طرحه فى سؤال هام : كيف يمكننا أن نفهم الموضوعية فى العالم بواسطة العلم ؟، وكيف يمكن أن نفهم العلم بشكل عام باعتباره انجازا للفاعل نفسه actor ؟

واذا كان مبدأ الذاتية فى فنومنولوجيا هوسرل هو الذى ابى التفرقة بين ذات وموضوع ، فهو أيضا الذى ادى الى موضوع الرد الفنومنولوجى ٠ وقد قامت هذه العملية عند هوسرل على القول بالتوقف عن الحكم تجاه

---

(72) E. Ströker « Edmund Husserl's Phenomenology as Foundation of Natural Science in The Latter Husserl and the Idea of Phenomenology. Papers and Debates of the International Phenomenological Conference : Univ. of waterloo Canada. Ap. 9 - 14 ,1986.

(٧٣) هوسرل : التأملات الديكارتية ، ص ١٤٥ ٠

كل من الافعال المرتبطة بالوجودات ، وكافة اشكال الوجود التى تتخذهـا الموضوعات القصدية ، وتلك التى تصاحب كل افعالنا المرتبطة بتفكيرنا اليومى كما فى تفكيرنا العلمى . ان هذه العملية لا تقوم على سـلب العالم من كافة اشكال الوجود ، وانما تهدف الى التفكير فى الأحـكام والمعتقدات مستخدمة منهج التحليل القصدى الذى يتيح التعمق فى الوقائع. ويؤدى هذا الى التوصل للأبنية الحقيقية للوعى . وينتهى هوسرل الـى القول بأن كافة العمليات والأشـياء الموضوعية تجد أساسها فى مبـدأ الذاتية (٧٤) .

وما دام العلم الطبيعى يسعى الى معرفة لها طبيعة خارجية فقـد اثار هوسرل سؤالين هما : كيف يمكن للطبيعة وهى شىء خارجى أن تكون معطيا للوعى ؟ وبأى طريقة من طرق التفكير يمكن للموضوعية العلمية أن تتكشف ؟(٧٥) وقد توصل هوسرل الى القو لبأن الطبيعة لا تعنى شيئا الا اذا ارتبطت بوعى انسانى ، وبشكل جسدى لهذا الوجود الانسانى . ويوحى هذا التفكير بأن فلسفة هوسرل تنظر الى الكائن الحى باعتبـاره ليس فقط أصل الطبيعة وانما هو أيضا أصل العلم الطبيعى . أن الانسان اذن هو أساس العلم ، ويرجع هذا الى مجرد وجوده كانسان مما يجعل الطبيعة موضوعا علميا له . اما عن السؤال الثانى وهو بحث كيفية قيـام العلم الطبيعى فى شكله الموضوعى ، فينتهى فيه هوسرل الى القـول بـأن الموضوعية بمعناها الخاص تعنى كيفية معينة من القضايا والتقريرات الخاصة بموضوعات محددة وتلقى تأييدا من الجميع ، أى أن الموضوعية لا يمكن التوصل اليها الا بتعدد الذوات . معنى ذلك أن الموضوعية تشير بالاضافة الى الذاتية subjectivity الى التواصل أو العلاقة بين الذوات intersudjectivity .

---

(74) Stroker. op. cit. p. 252 .

(75) Ibid. p. 253.

وهكذا يصل هوسرل الى أساس العلم وهو الذاتية . لقد حـــاول هوسرل اثبات أن العلم لا يتكون فقط بواسطة أفراد عن طـريق بعض الانجازات الخاصة بالوعى ولكن اكثر من ذلك حاول ان يبين ان هذه الانجازات تجد أسسها فى الوجود الجسدى للفرد ذاته(٧٦) . ويقول هوسرل فى هذا الصدد : « ان العلم الانسانى هو علم الذاتية الانسانية فى علاقتها الواعية بالعالم كما يبدو لها وكما يؤثر فيها عن طريق العقـــل والعاطفة ، وهو أيضا علم العالم باعتباره محيطا بالأفراد أى العالم كما يبدو لهم بما يملكه من صدق(٧٧) .

لقد عبر هوسرل فى كتابه « أزمة العلوم الاوروبية » عن الوضــع الخطير الذى نجم عن فقدان الصلة بين العلم وكل من اهتمامات الانسان العميقة وقيمة وتطلعاته فى الحياة ، وذلك على الرغم من تقدم العلم أو بسبب هذا التقدم . وليست الطبيعة كمجال للبحث العلمى واقعا بمقدور الانسان أن يفهمه باعتباره مجالا للحياة الفعلية . ففى الواقع أن تقـــدم العلم صاحبة ابتعاد الانســان عن الواقع المتكشف علميا . لقد حاول هوسرل فى هذا الكتاب أن يحلل هذا الوضع ابتداء من ديكارت وجاليليو ، ويطالب هوسرل كحل لهذه الازمة ان تقوم الفلسفة بدور فعال عن طريــق المحافظة على المعلومات وتجديدها فى الوعى ، والبحث عن مصـــدر العلم وأسسه الوقائعية والتاريخية . وهكذا نشأت الفنومنولوجيا المتعالية من أجل انقاذ العلم الأوروبى المهدد . والمنهج المطلوب هو المنهج المتعال وذلك من اجل بيان الشروط الذاتية للمعرفة العلمية وبالتالى الموضوعية التى تكونت معها . ان هوسرل ينظر الى العلم هنا ليس كمجرد بناء نظرى ولكن باعتباره اعلى شكل من أشكال النشاط الانسانى Praxis ، الذى وصل

---

(76) Ibid. p. 255 .

(77) E. Husserl. The Crisis of European Sciences and Transcendental Phenomenology . Trans. by D. Carr. Evanston : Northwestern Univ. Press. 1970, p. 318.

الى المرحلة الحالية بعد ان تطور تاريخيا ومعنى ذلك أن الموضوع المتعال يتضمن التاريخ لأنه يتضمن أشكال الذاتية التى يعيشها الانسان فى حياته الفعلية . ان مطالبة هوسرل بأساس فلسفى للعلم رجع الى رغبته فى معرفة كيف ينتمى العلم الى عالم الحياة life - world وكيف يجد فيه اساسه من الناحية التاريخية ، واخيرا لمعرفة اين يقف العلم اليوم(٧٨) .

ان القضية العامة للموقف الطبيعى فى نظر هوسرل تشير الى ان العالم الطبيعى كله موجود « هنا ، من أجلنا » وفى متناول ايدينا ، وسوف يظل دائما هنا ، هذا العالم الطبيعى هو « عالم الواقعة » fact world الذى نظل مستمرين فى الوعى به(٧٩) . ان الموقف الطبيعى بالنسبة لهوسرل ليس الا الموقف الساذج للذات ، ويتميز بالتفكير العملى للحياة اليومية حيث توجد العوالم الاجتماعية والطبيعية وحيث تؤخذ هذه العوالم كشىء مسلم به ان توضيح هوسرل للموقف الطبيعى ووصفه له هى أولى خطوات الوصول الى دراسات عن العالم المتعال للوعى الخاص ، وهكذا مهد هوسرل الطريق لالتقاء الفنومنولوجيا بالعلوم الانسانية .

واهتم هوسرل بعلم النفس وموقعه من العلوم الانسانية متتبعا فى ذلك خطى استاذه « برنتانو » . وقد لقى علم النفس فى هذا العصر ـ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ـ اهتماما خاصا ، واعتبر علما أساسيا لكل علوم الانسان . وقد نتج عن هذا الاهتمام فى هذه الحقبة الزمنية شكلين من أشكال البحث والمنهج : الأول طبيعى علمى : والثانى انسانى ، مما أدى الى ثنائية داخل هذا العلم . واننا لنجد فى كتاب هوسرل « أفكار » اقرارا بوجود الاتجاهين ، وقد طور هوسرل تصوره

---

(78) Ströker . op. ct. p. 256.

(79) E. Husserl. Ideas. London : Allen & Unwin 1967 p. 110 Quoted in Phillipson op. cit. p. 127.

فى كتاب « الأزمة » . وقد اعترف هوسرل بالاتجاهين من حيث المبدأ ، ورأى امكانية تعريف الروح the spirit باعتبارها معتمدة على الطبيعة ، وذلك حتى يمكن أن تصبح هى نفسها طبيعية . الا أن ذلك يحدث فى حدود معينة اذا تجاوزناها افتقدنا كل ما يضفى معنى على الطبيعة . ان الطبيعة هى مجال النسبى ، ويتعلق النسبى فى النهاية بمطلق واحد يؤيدها هو الروح The spirit .

ويربط هوسرل بين الفنومنولوجيا وبين أساس الدراسات الانسانية وذلك داخل علم عام للعقل . فقد أيد هوسرل منهج العلوم الانسانية باعتبارها تعتمد على حدس واقعى للعالم كما يبدو لنا بشكل مباشر ، أى عالم الحياة الذى نعيش فيه كبشر . وبالتالى فان هذا العالم هو أساس الدراسات الانسانية . ويرجع هذا الاتجاه الى أن الفنومنولوجيا نفسها قد تبنت وصف عالم الحياة كأساس للوصول الى الدقة والموضوعية والقدرة على الفهم والتفسير(٧٠) .

وتعتبر كتابات هوسرل فى هذا الموضوع كرد فعل للنزعة النفسية المتطرفة psychologism ويمكن النظر اليها كمحاولات لتقديم أساس فلسفى سليم لكل من علم النفس وعلوم الانسان والعلوم الطبيعية . فعلوم الانسان التى تفسر خبرات الانسان كما تحددها الاسباب الخارجية أو الداخلية ـ وسواء كانت نفسية متطرفة ، أو اجتماعية متطرفة sociologism أو تاريخية متطرفة histocicism ـ تتعرض لفشل . لقد رأى هوسرل أن علم النفس الطبيعى الذى يضع نفسه على غرار العلوم الطبيعية ، كما يفعل علم الاجتماع ، يفشل فى معرفة حدوده ، وذلك لأن « معنى » الظواهر التى يدرسها يفلت منه . لقد رأى هوسرل ان التصورات والمناهج

(80) K. Kuypers. The Sciences of Man and the Theory of Huserl's two Attitudes in The Latter Husserl op. Cit. pp. 186 - 195 , p . 197 .

غير الواضحة والمشوشة لعلم النفس تقوم بفرض مضمون وشكل معين على الخبرة ، ويرجع هذا الى قيامه باستبعاد المعطيات الظاهراتيه phenomenal للخبرة . ان المنهج الصحيح فى نظر هوسول هو الذى يتبع طبيعة الأشياء التى تدرس وليس توقعاتنا أو تصوراتنا المسبقة(٨١) .

نجد اذن ان هوسرل بدأ متأثرا ببرنتانو وانتهى كناقد لاتجاهه النفسى المتطرف ، ذلك ان اهتمامه المستمر بالمنطق ومشكلة المعنى ادى الى الاقتناع بأنه لا يمكن تفسير العنصر الموضوعى فى المعرفة ابتداء من مقدمات نفسية . ولا يمكن ادراك الذاتية عن طريق نزعة نفسية متطرفة لأننا لا بد أن نضع فى الاعتبار الجانب الذاتى للمعرفة كما أننا نحتاج الى تصور معين للذاتية . لقد انحصر اهتمام هوسرل فى معرفة الطريقة التى تساهم بها القصدية للتوصل الى تفسير الشروط العقلية للحقيقة الموضوعية .

كما ان علم النفس عند برنتانو يهتم بدراسة الموضوعات الفردية من حيث هى فردية . أما ظاهريات هوسرل فهى تعنى بدراسة الموضوعات من حيث هى جزئية وكلية ، اى من حيث هى ظاهرة وماهية . ان الرد الماهوى او رد الأشياء الى ماهياتها هو أهم ما يميز الظاهريات الجديدة عند هوسرل عن علم النفس عند برنتانو(٨٢) .

وينطبق النقد الموجه الى علم النفس على الاتجاه السوسيولوجى وذلك سواء بالنسبة للتصورات التى تقف خلف النظرية او بالنسبة للمناهج التى تتخذ من العلوم الطبيعية مثالا لها . لقد اغفل الاتجاه السوسيولوجى بدوره معنى ظواهر الوعى واستخدم مناهج لا تصلح لها .

---

(81) E. Husserl Phenomenology and the Crisis of Philosopy. New York Harper Torch Books 1965 p. 102 Quoted in Phillipson op . cit. p. 121 .

(٨٢) هوسرل : التأملات الديكارتية ، مقدمة المترجمة ، ص ٢٢ .

ان النقد الهوسرلى للعلوم الانسانية يقوم على الحاجة الى اعادة تعريف لكل من موضوعات الدراسة ، والمناهج ، والتفسيرات الاجتماعية وذلك فى ضوء منهج فنومنولوجى يقوم على الرجوع الى الأشياء الخاصة بالوعى ذاته(٨٣) ٠

ان حديث هوسرل عن الدراسات الانسانية ودفاعه عنها يؤدى الى جعلها ذات أولوية على العلوم الطبيعية ، ما دام فى استطاعتها التوصل الى عمق فلسفى لا تقدر عليه العلوم الطبيعية ٠ ان العلوم الاجتماعية هى علوم الذاتية وهى علامة الصدق فى نظر هوسرل ٠ ان الدراسات الانسانية فى شكلها الاصيل هى الحقيقية ولابد ان تحتفظ بالشكل الحدسى فى تطورها التالى ٠ ان العلوم الطبيعية ليست الا مشروعا جماعيا يساهم فيه العلماء ويمكن من خلال سير هذه العلوم نحو الدقة والموضوعية تفسيرها وفهمها بواسطة الاتجاه التاريخى وحده(٨٤) ٠

لقد اعترف هوسرل بوجود علم موضوعى للدراسات الانسانية فى مواجهة الدراسات التاريخية كما أنه اقر بوجود علم فنومنولوجى قبلى للوجود ٠ ويقوم العلم الموضوعى فى نظره على امكانية بناء عالم الخبرة الوقائعى وذلك بطريقة رياضية ٠ نجد اذن أن هوسرل على الرغم من اعترافه بالسيكوفيزيقا وبشكل موضوعى بالدراسات الانسانية ، نجده يعمل حدسيا بواسطة مناهج فيزيائية ورياضية ٠ الا ان أساسه الاول والرئيسى لكافة الدراسات الانسانية هو الذاتية(٨٥) ٠

ولا يسعنا فى ختام حديثنا عن هوسرل الا ان نؤكد أن قوله بالوعى، والماهية والمعنى والقصدية والحدس والذاتية ، لا يعنى مطلقا رده الى

---

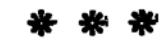
(83) Phillipson op. cit. p. 122.

(84) Kuypers op. cit. p. 192.

(85) Ibid. p. 193 .

اتجاه مثالى وانما هو رجوع الى اصول الاشياء وطبائعها الاصلية بهدف الكشف عنها • وقيام منهج الدراسة الايدتيكى على الوصف المجرد للوعى ليس الا محاولة لتفسير معنى عالم الحياة • ومن هنا كان اهتمام هوسرل اساسا بالعلوم الانسانية لأنها مجال النشاط الانسانى ذو المعنى ، الذى هو فى وقت واحد هدفا للدراسة ووسيلة أو عملية تتحقق بواسطتها الدراسة •

لقد أرادت الفنومينولوجيا للفلسفة أن تصبح علما دقيقا فتقوم بدراسة الظواهر ، بهذا المعنى الخاص « للظاهرة » الذى أضفاه عليها هوسرل والمتمثل فى محاولة الوصول الى عالم الماهيات من خلال ما هو معطى أو ما هو متبدى فى الوعى • لقد رفض هوسرل النزعات الاسمية التجريبية التى تفسر الأشياء فى ضوء علل وأسباب أى بالرد أو الرجوع الى أشياء أخرى غريبة عنها ، ومن هنا وقوعها فى النسبية • بينما حاول هو التركيز على المضمون القصدى للخبرات المنطقية مستخدما المعنى الخاص للرد الذى يقوم على تنقية ظواهر الوعى من كافة الشوائب الغريبة عنها توصلا الى الأشياء الأصلية •



رابعا : اتجاه الفرد شوتز ونظرته الى التفسير :

كان شغل شوتز (١٨٩٩ – ١٩٥٩) الشاغل هو اقامة علم اجتماع على أساس اعتبارات فنومنولوجية مع تقديم اسس فلسفية متينة لمنهج العلوم الانسانية • وقد تأثر شوتز فى سعيه لتحقيق هدفه بكل من دلتاى فى رفضه للتفسيرات السببية المستخدمة فى العلوم الفيزيائية كنموذج لاكتساب معرفة بالعالم الانسانى القائم على التوصل بين الذوات ، كما تأثر بتحليلات ريكرت عن الفارق المنهجى بين كل من العلوم الفيزيائية والعلوم الاجتماعية • كما تأثر شوتز بالانماط المثالية التى قدمها فيبر

وبعلم الاجتماع الفيبرى . اما بالنسبة لأعماله الفلسفية فقد استقى تصورات من هنرى برجسون ومن هوسرل خاصة فى قيامه بتطبيق فنومنولوجيا هوسرل على مشاكل الواقع الاجتماعى .

واكد شوتز على ان الحل الملائم للمشاكل المنهجية الاساسية فى علوم الانسانية يكمن فقط فى الوصف الدقيق للجانب الانسانى لموضوعات تلك العلوم . وقد رأ ىان هذا موجود فى الفنومنولوجيا التى قدمها هوسرل ، ويتبقى على شوتز تطبيق المنهج الفنومنولوجى على العالم الاجتماعى الذى هو نتاج كل من الفعل الرمزى الانسانى والعمل المادى . وتعتبر محاولة شوتز لتوضيح العلاقة بين مناهج ونظريات العلم الاجتماعى والأسس التجريبية اى عالم الحياة اليومية ، تعتبر مساهمة فى تطبيق افكار هوسرل على العلوم الاجتماعية(٨٦) .

ان مهمة الفيلسوف الفنومنولوجى المهتم بالواقع الاجتماعى تتمثل – فى رأى شوتز – فى القيام بكشف ووصف وتحليل الخصائص الاساسية للعالم الدنيوى Mundane world ، ومن هذا المنطلق اخذت كل كتابات شوتز ابتداء من مؤلفه « فنومنولوجيا العالم الاجتماعى » عام ١٩٣٢ حتى مجموعة مقالاته التى نشرت بعد وفاته ، اخذت كنقطة انطلاق وكموضوع يحتاج الى دراسة مفصلة ، واقع العالم اليومى .

وقد أكد شوتز منذ البداية على ان الهدف التاويلى لعلم الاجتماع هو فهم المعنى الذى يضفيه الفاعل على فعله ، اى المعنى الذى يملكه بصدده ولا يعنى هذا مجرد فهم للمعانى الموضوعية للفعل الاجتماعى . وقد قامت الفنومنولوجيا لديه على عالم العمل فى الحياة اليومية ، وعالم

---

(86) A. Schutz and T. Luckmann. The Structures of the Life - World. Trans. by R. M. Zaner and H. T. Englelhardt London : Heineman 1974 , preface p..XIII .

الحس الشائع الذى كان يسميه هوسرل Lebenswelt
اى عالم الموقف الطبيعى · وقد راى شوتز أن الفعل action
وليس الادراك الحسى Perception هو نقطة بداية ملائمة للعلوم الاجتماعية (٨٧) ·

ولم يمنع تأثر شوتز بفنومنولوجيا هوسرل وبنظرية الفعل الانسانى عند فيبر انطلاقة فى استقلال عنهم ، فكانت مجموعة مقالاته وعددها ٣٠ مقالا التى جمعت وترجمت فى مؤلف من ثلاثة أجزاء نشر بعد وفاته تحت عنوان « مجموعة مقالات » Collected Papers · الجزء الاول نشر عام ١٩٦٢ وعنوانه « مشكلة الواقع الاجتماعى » The Problem of Social Reality ، والثانى نشر عام ١٩٦٤ ، وعنوانه « دراسات فى النظرية الاجتماعية » .Studies in social The ory والثالث نشر عام ١٩٦٦ وعنوانه « دراسات فى الفلسفة الفنومنولوجية »
. Studies in Phenomenolological Philosophy

وقد نوقشت فى هذه المقالات موضوعات واسعة ومتعددة تنتقل من دراسة التواصل ، والعلاقات والرموز ، واللغة ، والتنميط والمعرفة ، والواقعيات المتعددة ، والفعل الاجتماعى ، الى دراسة منهج العلوم الاجتماعية · ثم الى دراسة المناقشات النقدية لكل من ويليم جيمس وماكس شيلر وجون بول سارتر وبالطبع هوسرل(٨٨) ·

لقد اكد شوتز على منهج الفهم الذاتى واعتبره أداة فنية للتعامل مع الشئون الانسانية ، فهو ليس مجرد طريقة يستخدمها العالم الاجتماعى ولكنه الشكل التجريبى الذى يستطيع من خلاله معرفة العالم الاجتماعى

---

(87) W. Kelly and A. Tallon. Reading in Philosophy of Man. NewYork McGraw - Hill Book Co. 1972, p. 198.

(88) Schutz op. cit. p. XIII.

الثقافى . ذلك انالفهم مسالة خاصة بالملاحظ ولا يمكن التحكم فيها عن طريق خبرات الملاحظين الآخرين .

ويؤيد شوتز كون منهج الفهم « ذاتى » ، واذا كان المدافعـــون عن هذا المنهج أو الناقدون له قد أبرزوا هذه الخاصية ـ الذاتية ـ فلا شك ان لديهم أسباب معقولة لهذا . الناقدون يقولون أنه « ذاتى » لأنهم يرون ان فهم دوافع افعال الآخرين تعتمد على الحدس وهو موضوع خاص غـير قابل للتحكم أو الاختبار . أما المؤيدون من العلماء الاجتماعيين من أمثال فيبر فانهم يصفون الفهم « بذاتى » لأنهم يرون ان هدفه هو معرفة ما يقصده الفاعل بفعله فى مقابل المعنى الذى يثيره الفعل لدى شخص آخر ، قد يشترك مع الفاعل فى فعله أو حتى لدى ملاحظ محايد . ان الخلاف يرجع فى نظر شوتز الى الفشل فى التمييز بين الفهم باعتباره شـكلا تجريبيا للمعرفة العامة للشئون الانسانية أو موضوعا ابستمولوجيا او طريقة معينة للعلوم الاجتماعية(٨٩) .

لقد رأى شوتز أن على السلوكية كنظام موضوعى فى العلوم الاجتماعية أن تفسر بطريقة علمية صحيحة ما يحدث بالفعل فى العالم الاجتماعى لحياتنا اليومية ، الا انها تقع فى خطأ احلال عالم خيالى محل الحقيقيـة الاجتماعية ، وذلك عن طريق تطبيقها لمبادىء منهجية معينة على العلوم الاجتماعية وهىمبادىء تاكدت فعاليتها فى مجالات أخرى ، الا انها تفشل فى مجال التواصل أو العلاقة بين الذوات intersubjectivity (٩٠) . ومن

---

(89) A. Schutz Concept and Theory Fomration in the Social Sciences in M. Natanson . The Philosophy of Social Sciences op. .cit. p. 240.

(90) A. Schutz . The Social World and the Theory of Social Action in Braybrook (ed.). Philosophical Problems in the Social Sciences op. Cit . pp. 53 - 67 . p . 55 .

الضرورى لكى نتوصل الى نظرية للفعل ان نحتفظ بوجهة النظر الذاتية، التى تفقد النظرية بدونها أهم اسسها ، وبالذات الاهتمام بالعالم الاجتماعى للحياة اليومية . ان الاحتفاظ بوجهة النظر الذاتية هو وحدة الضمـــان الوحيد والكافى للتأكد بأن العالم الخيالى غير الموجود الذى يبنيـــه الملاحظ العلمى لن يأخذ مكان العالم الاجتماعى الواقعى(٩١) .

وقد رأى شوتز ان البناءات العلمية لابد وأن تتضمن اشارة الـى المعنى الذاتى الموجود لدى الفاعل تجاه الفعل ، وهذا ما فهمه فيبر بمصادرته الشهيرة عن التأويل الذاتى والتى روعيت فى تكوين كافـــة النظريات فى العلوم الاجتماعية ، ويجب ان نفهم « مصادرة التأويـــل الذاتى » بمعنى أن كل التفسيرات العلمية للعالم الاجتماعى تستطيع أن تشير ، من أجل أهداف معينة ، الى المعنى الذاتى لأفعال البشر التـى تصدر أساسا عنهم ، بل انه يجب على هذه التفسيرات أن تشير الى هـذا المعنى(٩٢) .

ويقول شوتز بشأن الأنماط المثالية : « ان عالم الاجتماع يلاحـظ بعض الأحداث فى العالم الاجتماعى باعتبارها نتيجة للنشاط الانسانى ، ويبدأ من هنا فى تأسيس نمط لهذه الأحداث . ثم يقوم بالتنسيق بـين هذه الأفعال النمطية - وهى نمطية لأن الدوافع التى يفترضها الباحـث لا تتغير فى ذهن الفاعل المتخيل - أى أنه يقوم ببناء نمط مثالى شخصى. ويقوم العالم الاجتماعى بعد ذلك بوضع هذه الانماط المبنية فى نسق ، ويحوى هذا النسق كافة عناصر الموقف الموجودة فى العالم الاجتماعى والمتصلة بأداء الفعل النمطي موضوع البحث ، ثم يمضى فى اضافة انماط

---

(91) Ibid p. 58.

(92) Schutz. Concept and Theory Formation p. 245.

مثالية شخصية اخرى تمتلك دوافع قابلة أن تثير استجابات نمطية تجـاه الفعل الـخاص بالنمط المثالى الأول »(٩٣) .

لقد اعتبر شوتز الفعل ظاهرة غير معزولة ، له «آفاقه» الفنومنولوجية التى تربطه بالواقع الاجتماعى ، وله « دوافعه » ، وتملك الأفعال النمطية typical acts نوعين من الدوافع : دوافع « الغـاية in order to ودوافع آلسـبب » because . وتفسر الأولى فى ضـــوء اهداف وغايات الفاعل ، وتفسر الثانية فى ضوء خلفية الفاعل وميوله . الأولى هى الوضع المستقبلى الذى يتحقق بواسطة الفعل المسقط. projected بينما يتحدد المشروع نفسه project بواسطة الدافع السببى الذى يعتمد بدوره على الفعل الماض . وتفهم افعال الآخرين بالكامل اذا أمكن معرفة دوافعها النمطية بما تتضمنه من اشارة الى المواقف والأهداف والمعان النمطية(٩٤) . ومعنى ذلك أن الموضوعات الاجتماعية لا تفهم الا اذا كانت قابلة الى الاحالة الى انشطة انسانية ، والانشطة الانسانيـــة لا تفهم الا بواسطة اظهار كل من دوافعها السببية ودوافعها الغائيـة . والحقيقة التى تكمن وراء هذه الواقعة هى أنى أعيش فى العالم الاجتماعى؛ وأستطيع فهم افعال الآخرين فى حالة واحدة فقط : انى أتخيل أنى افعل أفعال شبيهة اذا كنت فى نفس الموقف ومدفوعا بنفس الدوافع السببيـة أو موجها بنفس الدوافع الغائية(٩٥) . ان عدم التوازن الزمنى بين نوعى الدوافع يوحى بمشكلة واسعة بخصوص تصور الذات ego . ان شوتز

---

(93) A Schutz . Collected Papers . Vol. 2 pp. 17 - 18 Quoted in M. Natanson « Schutz , Alfred » in The International Encyclopedia of the Social Sciences ed. by D .L. Sills op. cit. Vol. 14 pp. 72 - 74 , p. 73 .

(94) Natanson « Schutz , Alfred » in International Encyclopedia of the Sooail Sciences op. cit. p. 73.

(95) Schutzz . Concept and Theory Formation. op. cit. p.62.

يرى ان الذات غير قادرة على الادراك المباشر ، وانما يمكنها فقط ان تدرك نفسها باعتبارها موضوعا لفعل منعكس reflexive action (٩٦) .

ويعتبر اهتمام شوتز بموضوع الفعل وتركيزه على الفعل والفاعل مع محاولة اقامة أنماط لعالم الحس المشترك ، يعتبر كل هذا من الانجازات الأساسية لشوتز . ذلك انه رأى هذا الموضوع نقطة بداية ملائمة للعلوم الاجتماعية .

وتهدف الفنومنولوجيا فى رأى شوتز الى بحث الموقف الطبيعى ، ولذا يجب ان توجه الدراسات الاجتماعية الى هذا الهدف ، فلابد ان تبدأ تلك العلوم التى تقوم بتأويل وتفسير الفعل والفكر الانسانى من وصف البناءات المؤسسة لما هو سابق على العلم ، اى الحقيقة التى تبدو واضحة بذاتها بالنسبة للبشر الموجودين فى الموقف الطبيعى . وليست هذه الحقيقة الا « عالم الحياة اليومية » ، فهى نطاق الواقع الذى يشارك فيه الانسان باستمرار بطرق تبدو نمطية ، ومن غير الممكن تفاديها .

ويعتبر عالم الحياة اليومية مجالا واقعيا بالنسبة للانسان ويستطيع الانسان تغييره عن طريق جسمه الحى . وتقوم الحقائق الموضوعية والاحداث الموجودة من قبل والمتضمنة لافعال ونتائج افعال الآخرين ، تقوم بتحديد امكانات الانسان الحرة فى الفعل . أنها تضعه أمام عقبات يستطيع تخطيها واخرى لا يمكنه تخطيها ، وبالاضافة الى ذلك يستطيع الانسان ، فى هذا العالم وحده ، أن يكون مفهوما من جانب البشر الآخرين ، كما يستطيع من خلاله — عالم الحياة اليومية — أن يعمل معهم . اى انه من الممكن فى هذا العالم وحده اقامة عالم مشترك ، متواصل ومحيط انه وحده الواقع الأساسى ذو السلطة العليا paramount

---

(96) Natanson. Schutz . Alfred. op. cit. p. 75.

بالنسبة للانسان(٩٧) .

و يتميز عالم الحياة اليومية بأنه تواصلى ، فهو ليس عالمى وحدى وانما هناك بشر آخرون اقبل وجودهم كشىء مفروغ منه ، وهم موجودون ليس فقط بصفتهم الجسمية وانما باعتبارهم يملكون وعيا يشبه وعى الخاص . ان البناء الاساسى فى واقع هذا العالم هو اذن كونه مشترك لنا جميعا . وكما استطيع من موقفى الطبيعى أن احصل على معرفة للخبرات المعاشة من جانب زملائى من البشر مثل دوافع افعالهم ـ وذلك بشكل تقريبى ـ كذلك افترض أن نفس الشىء يصدق على الآخرين تجاهى : ومن هنا علينا التسليم ببعض الأشياء وهى :

١ ـ الوجود الجسمى للآخرين .

٢ ـ أن هذه الأجسام تملك وعيا مماثلا لوعيى الخاص .

٣ ـ ان اشياء العالم الخارجى ، الموجودة فى محيطى ومحيط الآخرين هى نفسها بالنسبة للجميع وتملك نفس المعنى .

٤ ـ انى استطيع ان اجعل نفسى مفهوما بالنسبة للآخرين .

٥ ـ أنى أستطيع اقامة علاقات مع الآخرين والمشاركة فى افعالهم .

٦ ـ ان العالم المتدرج اجتماعيا وثقافيا هو معطى من قبل تاريخيا ، وذلك باعتباره اطار دلالة بالنسبة لى وللآخرين وباعتباره ايضا « عالما طبيعيا » .

٧ ـ ويترتب على ما سبق ان الموقف الذى اجد نفسى فيه فى أى وقت يرجع الى حد ما الى كونى قد خلقته بنفسى (٩٨) .

---

(97) Schutz and Luckmann op. cit. p. 3.
(98) Ibid. pp. 4 - 5.

ان الواقع اليومى لعالم الحياة يتضمن ، بالاضافة الى « الطبيعة » التى اختبرها بنفسى ، العالم الاجتماعى وبالتالى الثقافى . أى أن عالم الحياة لا يتكون من الأشياء المادية وحدها أو من الاحداث التى التقى بهـا فى محيطى فحسب لأن هذه الأشياء كلها تكون عنصرا واحدا للعالم المحيط ، وانما المهم انه يتكون من طبقات للمعنى meaning strata تحيل كل من الأشياء الطبيعية الى موضوعات ثقافية ، والاجسـام البشرية الى بشر زملاء لى ، وحركات الآخرين الى افعال وحركات وعلاقات . ان عالم الحياة ليس الا واقعا نستطيع تغييره بواسـطة افعالنا كما يستطيع هذا العالم بدوره أن يغير من افعالنا . وننتهى الى القول بأن موقعنا الطبيعى فى الحياة اليومية يتحدد بواسطة دافـع برجماتى(٩٩) .

ان تفسيرى للعالم وفهمى له يقوم فى أى وقت على كمية من الخبرة السابقة سواء أكانت خبرة مباشرة أو خبرات انتقلت الى من الآخرين خاصة الاهل أو المدرسة ... الخ ، وتندمج هذه الخبرات المباشرة والمتصلة فى وحدة معينة تأخذ شـكل مجموع معرفتى ، وتقوم هذه الوحدة بدور اطار دلالة بالنسبة للمرحلة التالية التى أقوم فيها بتفسير العالم(١٠٠).

لقد رأينا كيف تضمن المشروع الفنومنولوجى الهوسرلى التوقف عن الحكم أو وضع الموقف الطبيعى بين قوسين . ذلك أن هوسرل اهتم بالذات «الخالصة» غير المنتمية الى مواقف معينة بينما ابدى شوتز على العكس اهتماما بالعالم الطبيعى وأكد أهميته بالنسـبة لعلم الاجتمـاع والفنومنولوجلايا . لقد رفض شونز مناقشة المشكلة على المستوى المتعال وفضل عليه المستوى الدنيوى mundane الخاص بالعالم التواصلى

---

(99) Ibid. pp. 5 - 6 .

(100) Ibid. p. 6.

للحياة اليومية ، لقد اعتبر شوتز الفنومنولوجيا المتعالية غير صالحـــة كأساس للحياة الثقافية للحياة اليومية ٠

لقد اعتبر شوتز معرفتى بالآخرين معرفة مباشرة تفوق معرفتى بنفسى ، على الرغم من اننا تعودنا الاعتقاد بأن العكس هو الصحيح ٠ واستنادا الى واقع الاتصال يوجه شوتز الانتباه الى اننى عندما أكون مستمعا للآخر فانى اكون مندمجا فى الوجود الحى pIAIA لفكر الآخر ٠ ولا يستطيع الآخر ان يرى حركات وجهه أو يدرك فكره الذى عبر عنه ٠٠٠ ولا يستطيع الآخر أ يرى حركات وجهه أو يدرك فكره الذى عبر عنه ٠٠٠ بينما استطيع أنا فى اللحظة التى عبر فيها الآخر عن فكره أن اتوصـل الى معرفته بشكل مباشر وبطريقة مختلفة أكثر مما يعرف هو ذاته ٠ كما أن العكس أيضا صحيح ٠ فاذا كنت أنا المتحدث أو الممثل فان الآخر يكون المستمع أو الجمهور أو المراقب ، وفى لحظة الأداء يعرفنى هذا الآخر بطريقة مختلفة وبشكل مباشر أكثر مما اعرف نفسى فى هذه اللحظـــة بالذات ٠ ان الانسان يعيش فى مجتمع ويستدعى هذا دائما الاداء والتعبير والاتصال ٠ لذا فانى أجد نفسى فى الحياة اليومية متصلا اتصالا مستمرا وضروريا بالآخرين ، وفى حالة معرفة بالآخرين وهم بى (١٠١) ٠

وميز شوتز بين محاولات ثلاث :

الأولى: هى « العلوم الثقافية » مثل علم الاجتماع ، والانثربوبولوجيا وعلم الاقتصاد وعلم النفس ٠

الثانية : هى الفنومنولوجيا التأسيسية الخاصة بالموقف الطبيعى ٠

الثالثة : هى الفنومنولوجيا المتعالية ٠

(101) M. Roche . Phenomenology , Language and the Social Sciences London : Routledge and kegan paul 1973 pp. 23—33 .

لقد رأى أن هذه المحاولات تكمل بعضها البعض . وقد ركـــزت دراسته هو على محاولة توجيه الفنومنولوجيا نحو دراسة عالم الحيـاة life - world والموقف الطبيعى natural attitude فهـو يرى أن الفنومنولوجيا التأسيسية للعـالم الطبيعى كفيلة باتاحة اساس فلسفى واضح للعلوم الثقافية . ويجب أن نميز بين الفنومنولوجيا التى اعتبرها شوتز اداة منهجية توضـح مناهج وتصورات وافتراضات العلوم الثقافية وبين الفنومنولوجيا الخالصة ، فعلى الرغم من اشتراكهما فى بعض الأهداف والمناهج الا أن الاخيرة تركز على الوعى الخـالص أو الذاتية المتعالية بينما تهتم الأولى باقامة الموقف الطبيعى وتأثيره علـى البحث العلمى الاجتماعى(١٠٢) . ان الوصف الفنومنولوجى لم يوحى لشوتز بفنومنولوجيا متعالية ، وانما اوحى اليه بعلم الاجتماع . ويأتى العالم المعطى أو الموقف الطبيعى كنتيجة للتفاعل بين البشر والمعيشـة المشتركة فى المجتمع ، وليس كنتيجة ذاتية مدركة بطريقة أنانية وموجودة خارج الثقافة والتاريخ .

واذا كان الجانب الفنومنولوجى الوصفى والاجتماعى قد تغلب لدى شوتز على الجانب الفنومنولوجى المتعال فقد أعتبر البعض شوتز أكثـر ميلا الى الاتجاه الوجودى فى الفنومنولوجيا(١٠٣) .

وفرق شوتز بين مجموعتى العلوم الاجتماعية والطبيعية من حيـث المنهج فاننا لا نستطيع أن نتعامل مع ظواهر العالم الاجتماعى كمـا نتعامل مع ظواهر العالم الطبيعى . فنحن فى العالم الطبيعى نقوم بجمع الوقائع والاطرادات التى لا يمكننا فهمها ، وكل ما يمكن أن نفعله هـو الاشارة الى بعض الافتراضات الاساسية عن العالم اننا مثلا لا نفهم لماذا

---

(102) Phillipson op. cit. p. 133 .

(103) Roche. op. cit. p. 33 .

يرتفع الزئبق فى ميزان الحرارة اذا ارسلت الشمس اشعتها عليه • وكل ما نستطيعه هو تفسير هذه الظاهرة باعتبارها متفقة مع القوانين التى استنبطناها من افتراضات اساسية عن العالم الطبيعى • بينما نحن نريد فى العالم الاجتماعى ان نفهم الظواهر الاجتماعية ، ولا نستطيع ان نفهمها وهى بعيدة عن مكانها فى نسق الدوافع والوسائل والاهداف والخطط الانسانية ، باختصار بعيدة عن نسق مقولات الفعل الانسانى(١٠٤) •

وقد رفض شوتز مبدأ الوحدة المنهجية بين العلوم • حقيقة انه رأى خطأ اعتبار الاختلافات الاساسية بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية راجعة الى وجود منطق مختلف لكل فرع من فروع المعرفة • الا أن هذا لا يعنى أن على العلوم الاجتماعية أن تترك الأساليب الخاصة بها والتى تستخدمها للتعرف على الواقعة الاجتماعية من اجل وحدة مثالية بين المناهج ، خاصة وان هذه الوحدة تقوم على افتراض غير مؤكد مؤداه أن الطرق التى يستخدمها العلماء الطبيعيون وخاصة الفيزيائيون هى وحدها الطرق العلمية • ان وحدة العلم ليس الا حالة خاصة فى موضع أكثر شمولا لم يتصدى اى من العلماء المؤيدين للاجابة عليه ، وهو كيف تكون المعرفة العلمية ممكنة ؟ وما هى افتراضاتها المنطقية ؟ ان شوتز يرى أن الفلسفة الفنومنولوجية مهدت الطريق لمثل هذا البحث ، وقد تشير نتائجها الى أن الأساليب المنهجية التى طورتها العلوم الاجتماعية من اجل ادراك الواقع الاجتماعى أكثر ملائمة من تلك الأساليب الموجودة فى

---

(104) A . Schutz « The problem of Rationality in the Social World » in Collected parers Vol. 4 Martimus Nijhoff. The Hague 1964 p. 65. Quoted in R. M. Zaner. Solitude and Sociality : The Critical. Foundations of the Social Sciences in Psathas. op . cit. pp. 25 - 43 , p. 41 .

العلوم الطبيعية فى التوصل الى اكتشاف المبادىء العامة التى تحكم كل المعرفة البشرية(١٠٥)

* * *

خامسا : نظرة نقدية الى الاتجاه الفنومنولوجى ومنهج الفهم :

تعرضنا فيما سبق لشخصيا تأريخ رأينا من وجهة نظرنا أنها تمثل اقطابا بارزة فى تطور الفكر الفنومنولوجى · حقيقة أن دلتاى وفيبر لم ينطويا تحت لواء هذه المدرسة ، الا اننا قد بينا منذ البداية أنه لا توجد مدرسة فلسفية موحدة ينطوى تحتها كل الفنومنولوجيون وذلك بسبب التفرد الذى اتسمت به أفكارهم · كما ان موقف كل من دلتاى وفيبر من العلوم الاجتماعية ومن الاتجاه الطبيعى وقولهما بالفهم الذاتى واهتمامهما بالفرد ، كل هذا جعلهم علماء وفلاسفة علم بارزين وممهدين بشكل مباشر للاتجاه الفنومنولوجى ·

لقد اهتم المفكرون الأربعة بالمجال الانسانى وبالذات بالفرد وبافعاله، وبالمعنى الذى يضفيه على افعاله · لقد كان موضوع بحثهم هو الفاعل ومن هنا اتجاههم الى تأويل وفهم دوافع وغايات الأفراد دون اغفال للعلاقات التى تنشأ بينهم ·

ويقترب هذا الموقف الى حد كبير من موقف الفردية المنهجية methodological individualism الذى ينسب اليهعلماء بارزون من أمثال F. H. Hayck , F. Watkins G. C. Homans وواتكنز وهومنز وغيرهم وفى رأى هؤلاء المفكرين أن العالم مكون من افراد يتحركون فى ضوء ميولهم وفهمهم للموقف · وكل موقف اجتماعى معقد وكل نظام وكل

---

(105) A. Schutz. Concept and Theory Formation in the Social Sciences op. cit. p . 249 .

حدث ليس الا نتيجة لشكل او وضع محدد للأفراد واستعداداتهم ومواقفهم ومعتقداتهم وامكانياتهم المادية وبيئاتهم (١٠٦) ٠

ويرى هايك اننا نبدأ من افكار وأهداف الأفراد ، أى أن الأفراد الذين يكونون المجتمع يتصرفون حسب تصنيفهم للأشياء والأحداث فى نسق من الصفات والتصورات ذات بناء مشترك ، ويستطيعون التعرف عليه لمجرد كونهم بشرا ٠ وتفهم العلاقات بين الأفراد كما تفهم الأنظمة الاجتماعية فى ضوء افعال البشر ازاءها ٠ ويتكون المجتمع كما نعرفه من تصورات وافكار البشر ومن ظواهر اجتماعية ٠ وفى استطاعتنا ان نعرف المجتمع ويكون له معنى لدينا اذا كان يملك تأثيرا على عقولنا كبشر(١٠٧) ٠

وتتميز العلوم الاجتماعية بصعوبة خاصة راجعة الى ضرورة التمييز بين ثلاثة اشياء : آراء الأفراد الذين يكونون موضوع دراستنا ، وآرائنا عنهم ، وافكار جديدة تتكون لدى موضوعات الدراسة من البشر كنتيجة لأفعالهم او لتأثرهم بأفكار الخرى ٠ ومن أجل هذا كانت اهمية التمييز بين تفسير مبدأ تقوم عليه ظاهرة ما ، وتفسير يتيح لنا التنبؤ بنتيجة محددة(١٠٨) ٠

ويرى واتكنز أن العمليات والأحداث الاجتماعية تحتاج ان تفسر عن طريق استنباطها من :

(ا) مبادىء تحكم سلوك الأفراد المساهمين فى الأحداث ٠

(ب) وصف مواقف هؤلاء الافراد ٠

---

(106) Homans. The Nature of Social Science op. cit. p. 61

(107) F. H. Hayck. From Scientism to the study of Society J. O'Niel (ed.) Modes of Individidualism and Collectivism London He inemann 1973. pp. 27 - 68 p. 35.

(108) Ibid. p. 43.

وينادى واتكنز بالتفسير الفردى عى أساس ان الموضوعات الاجتماعية تتكون من اتجاهات الأفراد ٠ وبينما الأشياء المـادية لها وجود غير مـدرك فان الأشياء الاجتماعية مثل القوانين والاسعار ٠٠٠ تقوم على أسـاس الاتجاهات الفردية(١٠٩) لذا يجب تفسير اطرادات الحياة الاجتماعيـة حسب الفردية المنهجية اى فى ضوء الأفراد ومواقفهم ٠ وما دامت العملية التى تفسر تتكرر وقابلة للحدوث عددا من المرات وفى أماكن متنوعة من العالم ، فان الافتراضات العامة عن الميول الانسانية ممكن أن تستخـدم فى التفسير(١١٠) ٠

وقد ساهم فلاسفة الوجودية من أمثال جون بول سارتر وموريس ميرلوبونتى فى الفنومنولوجيا ، عن طريق تقديم تصورات مختلفـة للشرط الوجودى للانسان ، وذلك كرد فعل على تأكيد هوسرل علـى الماهية ٠ وقد أصبح للوعى شكل عضوى ، وموقف اجتماعى مرتبط بكليات اخرى ، اى أصبح به وجود مشخص وليس ماهية غير شخصية كما كان هوسرل يرى ٠

لقد اهتم كل من سارتر وميرلوبونتى بالتوصل الى طرق يستطيـع الوعى الانسانى عن طريقها كشف واختتبار كافة الحواجز ، ليس فقط عن طريق التفكير وانما بواسطة الفعل ، وهذا هو موضوع الحرية الـذى تميزت به الكتابات الوجودية ٠ وبينما ركز هوسرل على المستوى المتعال، فقد ركز سارتر على المستوى الوجودى ٠ وبينما كان حديث هوسرل عن « الذات المتعالية » غير ذى تأثير على الكيان الوجودى للانسـان

---

(109) F. Watkins. Ideal Types and Historical explanations in (ed.) Reading of Philosophy of Science op. cit. p. 729.

(110) F. Watkins. Historical Explanation in the Social Sciences in O'Neil (ed.) op. cit. pp. 166 - 178, p. 176.

او « الذات » أو « الأنــا » فان حديث سارتر واعماله كان لها تاثيرها الواضح على الانسان الوجودى . وفى الواقع أن الفنومنولوجيين التاليين على هوسرل مثــل ســارتر لم يتخلوا مطلقــا عن تقـــديم تقــريرات خاصة بالماهية الا أنهم على خلاف هوسرل لم يعتبروها هدفا للفلســـفة وانما يتحقق هدف الفلســـفة عن طــــريق منهج انعكاس محــــــدد Specific reflective techuique وقد استقوا تقريراتهم مباشرة من الأوصاف الخاصة بخبراتهم الشخصيـــة المستمـــرة وغير المنعكســـــة non - reflective وطبقوها ووضعوا لها امثلة فى شكل أوصاف اخرى لخبرة الحياة الواقعية المدركة(١١١) .

ويحدد ميرلوبونتى هدف الفنومنولوجيا كما يلى : انه موضوع يقوم على الوصف وليس التفسير او التحليل . ان توجيه هوسرل الأول للفنومنولوجيا كان فى اتجاه « علم نفسى وصفى » وهو ما يمثل استبعاد للعلم . فأنا ليست نتيجة التقاء عناصر سببية متنوعة تحدد كيانى الجسمى أو النفسى . وأنا لا استطيع أن ادرك نفسى باعتبارى جزءا من العــالم او كمجرد موضوع للدراسة البيولوجية او النفسية أو الاجتماعية ، اى انى لا استطيع أن احبس نفسى داخل عالم العلم . ان كل معرفة لى عن العالم، حتى المعرفة العلمية ، استقيتها من وجهة نظرى الخاصة او من خبرة محدودة عن العالم ، تصبح بجانبها رموز العلم بدون معنى . ان كــل عالم العلم مبنى على العالم كما اختبره مباشرة ، فاذا أردنا اخضــاع العلم نفسه الى استقصاء دقيق والتوصل الى تقدير واضح لمعناه ومداه ، فلا بد أن نبدأ من ايقاظ الخبرة الاساسية للعالم ويعتبر العلم كتعبير من الدرجة الثانية لها (١١٢) .

---

(111) Roche op. cit. p. 19 - 20.

(112) Merleau - Ponty. What is Phenomenology in J. Kockelmans (ed.) Phenomenology. New York : Anchor 1967 p. 356 Quoted in Phillipson Op. cit. p. 123.

وبينما كان اهتمام سارتر بطبيعة الفنومنولوجيا يرتبط باستخدامها فى فلسفته عن الوجود ، فان ميرلوبونتى اهتم بطبيعة الفنومنولوجيــا فى حد ذاتها · لقد رأى أن مهمته الأساسية فى الفلسفة هى اعادة بناء الطابع التطورى وليس الثورى · وبالتالى فان الانتقال من العـــالم الى الماهيات كما ترى طريقة التوقف عن الحكم ، يحتاج الى أن ينسجم مع وصف الوعى فى هذا العالم كما تطالب الوجودية · وقد حـــاول ميرلو بونتى أن يبين امكانية هذا الانسجام بالطريقة الآتية :

أولا : اعتبر أن طريقة التوقف عن الحكم تستدعى الابتعاد فقط عن تصور العالم بطريقة العلم الطبيعى ولا تستدعى الابتعاد عن المعرفة « السابقة على العلم » التى نملكها عن العالم كما هو معطى فى الادراك الحسى ·

ثانيا : اعتبر النظريات والاستنتاجات والانماط المثالية فى الدراسات النفسية والاجتماعية ، اعتبرها كلها ماهيات(١١٣) ·

ان مشروع الفنومنولوجيا اذن ليس الا وصفا للظواهر كما تبدو في الوعى ويعنى ذلك ايجاد منهج يتيح التفكير فى الخارج الذى هو مبدأ علوم الانسان ، وفى نفس الوقت التفكير فى الداخـل الـذى هو شرط الفلسفة ، وذلك بالاضافة الى الاهتمام بالتكرارات التى لا توجد بدونهـا مواقف ، وبالتثبت العقلى الذى لا توجد بدونه معرفة(١١٤) · لقد رفض ميرلوبونتى فصل الوقائع عن الماهيات ، ذلك أن الحقيقة الأولية لوجودنا فى العالم تكمن فى التوحيد بينهما ، واذا كنا نقوم بتمييز بين الواقعـــة والماهية فان هذا يحدث فقط داخل وحدة الكائن · ويستتبع ذلك عدم وجود أى تعارض بين دراسة الوقائع من جانب العلماء الاجتماعيين ،

---

(113) Roche op. cit. p. 25 - 26.

(114) Merleau Ponty op. cit. p .51.

ودراسة الماهيات من جانب الفنومنولوجيين لأن الاثنين يكملان بعضهما البعض وأكثر من ذلك لا ينفصلان ٠

وقد اتضحت كثير من آراء ميرلوبونتى فى مؤلفه الرئيسى « فنومنولوجيا الادراك الحسى » حيث ظهر موقف الانسان من العالم ومن العلم ومن ذاته ومن الآخرين ٠

اما بالنسبة للوجود الانسانى ذاته فهو قائم على الصراع والتعارض والاختلاف ومن هنا يمكن القول بأن كل ما فينا عرضى وكل ما فينا ضرورى٠ ونحن لسنا « وعيا » فقط أو « موضوعا » فقط بل نحن وعى وموضوع معا ٠ وكل ما فينا هو نفسى وجسمى معا ٠ وقد نحاول ان نفسر التاريخ تفسيرا عقليا او تفسيرا اقتصاديا ٠ او تفسيرا جنسيا ، ولكن الحقيقة أن التاريخ يقبل كل هذه التفسيرات جميعا ، ولهذا يقرر ميرلوبونتى ان « الوجود » بطبيعته مبهم ، مختلط ، وغير محدد ٠ بيد أن من خصائص « الوجود » ايضا انه لا يكف عن التعالى على ذاته(١١٥) ٠ اما اذا نظرنا الى مشكلة « وجود الآخرين » فاننا سنجد أن الاتصال بين الذوات مكفول بحكم تلك العلاقة الاولية التى تربطنا بعالم مشترك »(١١٦) ٠

ويعتبر الادراك الحسى « فعلا » ندرك بمقتضاه الموضوع ادراكا مباشرا دون أدنى وساطة ، بل دون حاجة الى أدنى تفسير ٠ وليس « الجسم » بمثابة نقاب يتوسط بيننا وبين العالم ، بل هو آداتنا فى الامتزاج بالعالم والالتصاق بالأشياء ٠ وهكذا نجد ثمة اتحادا مباشرا بين الانسان ــ الذى هو بطبيعته مفتوح للأشياء ــ وبين العالم الذى ندركه عن طريق الجسم ادراكا حقيقيا(١١٠) ٠

---

(١١٥) د ٠ زكريا ابراهيم : دراسات فى الفلسفة المعاصرة ، ص ٥٤٩ ٠

(١١٦) المرجع السابق ، ص ٥٥٢ ٠

(١١٧) المرجع السابق ، ص ٥٥٠ ٠

وقد رفض ميرلوبونتى فكرة العلية أو السببية ، وأبى أن يفسر السلوك بمجموعة من البواعث ٠ حقا أن الجسم قد يبدو مجبرا ، من حيث هو خاضع لعلية فيزيائية تتحكم فى ردود أفعاله ، ولكن سلوكنا لا يتوقف بشكل جوهرى على طائفة محددة من القوانين العلية الصارمة(١١٨) ٠

لقد نجح ميرلوبونتى فى تخليص الوجودية من تلك التفرقة السارترية الحادة بين « الموجود فى ذاته » و « الموجود لذاته » ٠ وليس من شك فى أن اهتمام ميرلوبونتى بالادراك الحسى هو الذى جعله يستمسك بواقعة « الوجود فى العالم » ، وهو الذى حدا به الى اعتبار المعطيات المباشرة للادراك الحسى واقعة حقيقية سابقة على كل تنظيم عقلى (أو تركيب ذهنى)(١١٩) ٠

وهكذا يتضح لنا أن الاتجاهات المعارضة للوضعية ، ابتداء من اتباع منهج الفهم الذاتى وانتهاء بالوجوديين ، رفضت الشكل الاستنباطى العلى أو السببى للتفسير ونادت بالفهم كطريقة مميزة لدراسة الانسان فى المجتمع ٠ ولعل هذه المعارضة هى التى جعلت الفهم والتفسير ينفصلان استنادا الى الاصرار على ربط التفسير بالشكل المنطقى الذى يجمع بين الواقعة المفسرة والتقرير التفسيرى ، فهل بالفعل من الضرورى أن يكون التفسير بهذا الشكل حتى يستحق أن يسمى تفسيرا ؟

وفى الواقع أن تفسير الظواهر الاجتماعية ، أى وضعها فى سياق من الافتراضات المتكونة من قبل سواء ضمنا أو صراحة هى شىء مختلف عن فهم الأفعال الانسانية ٠ فالفهم يعنى تحديد المكانة الاساسية لتلك الافعال فى سياق مكون من المعتقدات والقيم والدوافع وخطط البشر ثم

---

(١١٨) المرجع السابق ، ص ٥٥٥ ٠

(١١٩) المرجع السابق ، ص ٥٦٣ ٠

تقييم هذا المكانه(١٢٠) الا ان نفهم بهذا الشكل لا يعنى انه عمليـــة مختلفة فى هدفها عن التفسير ، فاذا كان التفسير يرمى الى معرفـــة المعنى الكامن وراء الحد ثفلا شك أن الفهم الذاتى يقدم المنهج الملائم ٠

اننا فى العلوم الاجتماعية نواجه عقبة تضع لنا مشاكل هى ان تفسير الانشطة البشرية أو الذوات العارفة التى تقوم بالفعل فى السياق المعتاد للاحداث اليومية يتطلب وضع افتراضات حول معانى هـــذه الأنشطة التى لا يمكن بذاتها أن تفسر بالكامل ٠

وتبدو محاولة ايجاد تفسير كامل مســتحيله الانجـــاز ذلك لأن الافتراضات فى وجود المعانى التى تتكشف تحتاج ايضا أن تفسر ٠ فتصبح الخطوة التالية هى ضرورة تفسير السياق الذى توصلنا اليه والذى يتضمن افتراضات جديدة ، أو هكذا الى ما لا نهاية وهنا لا بد للباحث ان يعترف بحاجته الىامتلاك واستخدام الحسالیومیالشائع والفهم الذاتىالذى تلكه ويستخدمه البشر فى حياتتهم اليومية ٠ ان مجرد التوصل الى هذه الواقعة هو وعى ذاتى ٠ فيستطيع الملاحظ أو الباحث عنــدئذ أن يســتخدم الافتراضات التى يقوم عليها العلم متضمنة لبعض الافتراضات التى تكونت فى عالم الحياة اليومية(١٢١) ٠

ويؤكد « بولتون » أن تفسير الظواهر الاجتماعية يجب أن يقـــوم على أساس الفهم الذاتى ، ويظهر الدور التفسيرى لهذا الفهم عند وضعــه فى عبارات ثم فى سياق أو نسق من التقريرات ،. تبقى بعد ذلك مشكلة ما اذا كان نسق التقريرات يحتاج أولا الى اختبار كى يصبح تفسيريا ٠ الا أن بولتون يرى أن الاختبار وان كان حيويا بالنسبة للتفسير العلمى الا انــه

---

(120) Zaner Solitude and Sociality op. cit. p. 41.

(121) Psathas (ed.) Phenomenogical Sociology op. cit. intr p. 11 .

ليس محكا فى مجال التفسير الاجتماعى ، ويكفى أن يكون الطابع العام لكل التفسيرات فى العلوم الاجتماعية مؤكدا على الفهم والسياق(١٢٢) .

الا أن مشكلة التثبت تظل بالنسبة للفهم محل تساؤل كثيرا من العلماء ، ويكتفى ناجل باعتبار الفهم طريقة مولده لفروض مقترحة لتفسير الافعال الاجتماعية ، ويستبعده كطريقة للتثبت من التفسيرات المقترحة . ذلك أن هذا المنهج لا يقدم بذاته أى معيار للتأكد من صدق الحدوس والفروض الخاصة بالافعال الانسانية(١٢٣) .

ويرى « ابـل » أن منهج الفهم يقوم على تطبيق الخبرة الشخصية على السلوك الملاحظ ، أى اننا نستخدم المعرفة الموجودة لدينا من قبل . وهـذا فى رأيه لا يصلح كوسيلة للكشف ، وانما على أكثر تقدير كوسيلة لتأكيد ما كنا نعرفه من قبل . ومن هذا المنطلق تتحدد القدرة على تعريف السلوك باختلاف كمية ونوع الخبرة الشخصية ، وقدرة المفسر على القيـام بالاستبطان introspection بالاضافة الى قدرته على تعميم خبراته فاذا أمكن أحيانا ضمان موضوعية المعلومات فانه يمكن علـى اساسها التوصل الى اثبات التفسير . الا ان ما يحدث فى اغلب الاحيـان هو أن التفسيرات تظل بسبب عدم القدرة على الوصول الى الخبـرات الانفعالية مجرد تعبير عن آراء . ومن هنا يستبعد الفهم كوسيلة للتحليل ، الا أنه لا يستبعد تماما لأنه يستطيع القيام بوظيفة ايجابية وهى المساعدة على اقامة الفروض وذلك بدون المساهمة فى اختبارها(١٢٤) .

---

(122) J. W . Yolton Explanation op. cit. p. 203.

(123) E. Nagel. on the Method of Verstehen as the sole Method of Philosophy in Natanson (ed.) philosophy of Social Sciences op. cit. pp. 262 - 265, p. 263.

(124) T. Abel. The Operation called Verstehen. in H. Feigl and M. Brodbeck. (ed.) Readings in the Philosophy of Science op. cit. pp. 684 - 685 .

ان الموقف الطبيعى والوضعى لا يستبعد تماما منهج الفهم وانما هو يريد أن يحتويه ويوجهه بطريقة تتناسب مع مبادىء النزعة الطبيعية • فتؤكد « لافين » على أن الطبيعيين لا يتسارعون الى رفض العوامل غير التجريبية فى البحث لأن النزعة الطبيعية لا تدعى وجود منهج وحيد للبحث، وانما تصر فقط على وجود محك واحد للتثبت مهما كانت الطريقة المتبعة • وبتبنى الطبيعيين لمنهج الفهم تسقط كثير من الدعاوى التى تقام ضدهم وهى :

١ ـ تغلب المبدأ المنهجى على الفلسفة الاستدلالية •

٢ ـ فشلهم فى تقديم منهج متميز عن منهج العلم •

٣ ـ اغفالهم للعوامل الخارجة عن المنهج العلمى التجريبى •

٤ ـ استبعادهم التام لمشكلة منهج العلم الاجتماعى •

ويستطيع الفيلسوف الطبيعى عن طريق التحكم التجريبى فى منهج الفهم أن يمارس دوره الثقافى التقليدى ـ فيما تدعى لافين ـ وهو تأويل الخبرة بواسطة التحليل المنعكس للمنهج العلمى ونتائجه(١٢٥) •

لقد اعتمدت الفنومنولوجيا فى كل خطوة على النظرة الحدسية وعلى تعميق الخبرة عن طريق ابراز الجوانب التى كثيرا ما كانت تهمل فى هذه الخبرة • ومن ايجابيات هذا الاتجاه هو الاصرار على النظر الى الوقائع والوفاء لها حتى قبيل التفكير فيها •

---

(125) Thelma Z. Lavine Note to Naturalists on the Human Spirt . in Natanson (ed.) Philosophy of the Social Sciences. op. cit. 225 - 261, p. 259.

واذا اخذنا مثالا من الانثروبولوجيا فسوف نجد أن فهم مجتمع ما يقصد بـه الفهم العلمى أو الوقائعى . وبهذا المعنى يقوم فهم شخص ما أو موضوع ما أو مجتمع ما على التعرف على بعض الوقائع عن الشخص أو النظرية أو المجتمع . ففى حالة فهم الأشخاص فان تعبيرات مثل « ان جونز يفهم سميث » ترد غالبا الى تعبيرات مثل « ان جونز يعلم أن ص١ ، و ص ٢ ... وص ن تشير الى بعض الوقائع عن سميث »، أما عن نوع هذه الوقائع فيفهم من السياق : فأحيانا تكون الوقائع خاصة بدوافع سميث أو أهدافه أو طباعه ، وأحيانا خرى تكون خاصة بخلفيته الاجتماعية أو الثقافية وعلاقتها بسلوكه الحالى . ويصلح نفس التحليل فى حالة كون موضوع الفهم شيئا غير انسانى . ويقال نفس الشىء بخصوص فهم مجتمع ما و جماعة ما community فقولنا « اننا نفهم » يعنى امتلاك بعض المعرفة بالقضايا الخاصة بـ ٤٠ ولا يعنى هذا انه توجد مجموعة واحدة من الوقائع التى اذا توصلنا اليها توصلنا الى فهم المجتمع بل ان فهم المجتمع فى الانثروبولوجيا يتعلق بكل من وجهة نظر الباحث الانثروبولوجى ، والنظرية المستخدمة فى البحث وأخيرا بهدف البحث(١٢٦) .

واذا كانت الفنومنولوجيا قد درست الظواهر عن طريق الوسائل الحدسية والتحليلية والوصفية فان هذا لم يكن جديدا فى تاريخ الفكر ، وقد قامت به اتجاهات سابقة ، الا ان أهم ما يميزها فى هذا الصدد هو الطابع القصدى للدراسة والتحدى الواعى للمنهج الطبيعى ، باعتباره عاجزا عن التعامل مع العالم الاجتماعى المشترك . وقد أدى بها هذا الى القيام بعدة مواجهات : فبنما تهدف الفيزياء الى التفسير السببى

---

(126) M. Martin . Understanding and pa rtivtpant Observation in Cultural and Social Authoropology . in Truzzi (ed.) op. 102 - 133, pp 105 - 106 .

يهدف علم الاجتماع الى فهم الغاية والمعنى ، وبينما نفسر الأحداث كميا فى الفيزياء بمساعدة الصيغ الرياضية ، فان علم الاجتماع يحاول فهم التطورات التاريخية فى شكل له طابع كيفى مثلا فى شكل ميول أو أهداف متصارعة أو « طابع قومى » أو « روح العصر » . ومن هنا اهتمامات الفيزياء بالتعميمات الاستنباطية واهتمام علم الاجتماع بالمشاركة الوجدانية المتصورة وبينما تصل الفيزياء الى اطرادات صادقة بشكل عام وتفسر الأحداث الخاصة باعتبارها شواهد لتلك الاطرادات ، يكتفى علم الاجتماع بالفهم الحدسى للأحداث الفريدة وبالدور الذى تلعبه فى مواقف معينة ، تحدث نتيجة صراع المصالح والميول والمصائر(١٢٧) .

وسواء نظرنا الى الاتجاه الفنومنولوجى ومنهج الفهم كنزعات اصيلة وضرورية فى البحث الاجتماعى أو على أنها عوامل مساعدة للمنهج العلمى كما تدعى الاتجاهات الوضعية والطبيعية . فان بعض الأسئلة تبقى فى حاجة الى اجابات :

١ ـ هل يضع هدف التفسير فى العلوم الطبيعية الحدود للتفسير فى العلوم الاجتماعية ؟ ويترتب على هذا السؤال التالى : هل نحتاج الى منهج الفهم فى بنائنا للعلم ؟

٢ ـ هل قوانين العلوم الطبيعية مستحيلة فى المجال الاجتماعى ؟ واذا كانت ممكنة فالى أى مدى تكون التفسيرات محددة وناجحة فى شمولها لأغلب الأفعال الاجتماعية التى نريد فهمها ؟

٣ ـ الى أى مدى يقبل منهج الفهم التثبت العلمى ؟

٤ ـ والى أى مدى يساهم الفهم فى الكشف . والى أى مدى قد يضللنا الفهم من خلال توليده لأحداث فى ضوء فئات الحياة اليومية ،

(127) Popper. Poverty of Historicism op . cit. p. 20.

وذلك بدلا من استخدام المقاييس التحليلية المجردة (المتغيرات) والتى قد تثبت صلاحيتها فى التفسير ٠

٥ ـ ما مدى أهمية الفهم فى عملية التثبيت ذاتها : هل بوسعه أن يؤكد أو يكمل أو يعارض ما قد سبق التثبت منه ؟

٦ ـ وأخيرا فى أى مستويات التحليل يوضع الفهم ؟ هل هو يعنى الاشارة الى الدوافع الفردية للقائمين بالأفعال الاجتماعية أم الى معانى ثقافية يشترك فيها الكثيرون وتقدم فى نفس الوقت سياقا لدوافع القائمين بالفعل من الأفراد ؟ وهل يتجه اهتمامنا الى تطوير صورة ذات معنى للواقع الاجتماعى فى ذهن الباحث الاجتماعى أم الى اعادة بناء الانساق المعرفية للفاعل ذاته ؟ واذا كان هدفنا هو الثانى الا يعنى هذا ان علم الاجتماع كله سيتحول الى علم نفس اجتماعى بالضرورة ؟ الا يعتبر هذا اتجاها الى الرد السيكولوجى أو ما يسمى بالفردية المنهجية ؟ (١٢٨) ٠ وهذا بالذات ما اتهم به هوسرل من جانب كارناب وغيره على أساس أن هوسرل لم يتعد نطاق علم النفس الفردى المتطرف psyohologism ، وذلك على الرغم من رفض هوسرل المستمر لهذا العلم(١٢٩) ٠

الا أن هذه التساؤلات لم تمنع الفنومنولوجيا من أن تصبح علامة مميزة فى تاريخ الفلسفة والعلم ٠ ويكفى محاولتها ايجاد منهج خاص بالعلوم الاجتماعية واقامتها للتفسير على أسس من الفكر والواقع مختلفة عن الأسس المنطقية الموجودة فى مناهج العلوم الطبيعية ٠

* * *

(128) Truzzi (ed.) op. cit. intr. p. 4.

(129) Kypers op. cit. p. 187.

الفصل الخامس

« الاتجاه الوظيفى ، والاتجاه البنيوى »

تمهيـــــد :

أولا : الاتجاه الوظيفى ونظرته الى التفسير .

ثانيا : نظـرة نقـدية الى الاتجـاه الوظيفى .

ثالثا : الاتجاه البنيوى ونظـرته الى التفسـير .

رابعا : نظـرة نقـدية الى الاتجـاه البنيـوى .

تمهيـــــد :

آثرنا ضم كل من الاتجاه الوظيفى أو الوظيفية Functionalism والاتجاه البنيوى أو البنيوية Structuralism معا للحديث عنهما فى فصل واحد ، وذلك بسبب الصلات الكثيرة التى تربط بينهما :

أولا : يتميز الاتجاهان بأنهما معاصران ، ومستمران فى كثير من مجالات البحث الاجتماعية ، خاصـة فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا .

ثانيا : يتشابه الاتجاهان فى ارتباطهما بالحالة الراهنة لموضوع الدراسة وأهمالهما للعوامل الخارجية خاصة التاريخية . وعلى الرغم من أن الاتجاه الأول يركز على دور الوظيفة فى التفسير والثانى يؤكد على أهمية البنية الا أن كلاهما يلتقى مع الآخر فى اغفال تأثير كل من الأسباب أو العلل وعامل التغير على الظاهرة موضع الدراسة .

ثالثا : ارتبط الاتجان فى اتجاه ثالث يؤكد على أهمية كل من الوظيفـة والبنيـة فى التفسـير وهـو الاتجـاه الوظيفى ـ البنـائى Structuro-Functionalism

واذا تتبعنا تاريخيا الأفكار الرئيسية لدى الاتجاه الوظيفى فانها تقودنا الى المـاضى البعيد وقد تصل بنا الى العصر اليونانى . اننا لتجد مثلا فكرة « المماثلة العضوية » عند أفلاطون عندما قارن بين المجتمع وقوى النفس العاقلة والغضبية والشهوية ثم قابلها بطبقات الدولة الحاكمة والحارسة والعـاملة . كما يعتبر أرسـطو أحد كبار أصـحاب الاتجاه البيولوجى الأوائل(١) .

(1) W. J. H. Spnctt, Sociology . London 1949 p. 28 Quoted in :

د. قبارى اسماعيل ، مرجع سابق ، ص ٣٥٧ .

ويرتبط الاتجاه الوظيفى فى شكله الحديث بالتقدم الذى حدث فى علم الاحياء أو البيولوجيا فى القرن التاسع عشر . فاذا كانت الميكانيكا الكلاسيكية مثلت الشكل الأمثل للعلم المكتمل فان البيولوجيا وبالذات النظرية التطورية مثلت الشكل الأمثل لدراسة المجتمع . وقد أتاحت اعمال أوجست كونت ، على الرغم من كونها سابقة على دارون ؛ اساسا منطقيا قويا للتقارب بين البيولوجيا وعلم الاجتماع .

لقد رأى كونت أن العلم أو الفكر الوضعى يتطور منذ البداية فى ضوء الأحداث البعيدة عن تدخل وتحكم الانسان اى الأحداث العامة فى الطبيعة ، ثم تقترب تطورات المعرفة الانسانية شيئا فشيئا من الانسان نفسه من خلال الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا حتى تصبح ظروف الحياة الاجتماعية والانسانية مفتوحة لتقبل المنهج العلمى . ونعتبر « الاستاتيكا الاجتماعية » أقوى مؤثر على مفاهيم الوظيفية كما قدمها فى البداية هربرت سبنسر ومن بعده دوركايم(٢) .

ولقد ظهرت فكرة النسق system اول ما ظهرت فى معناها العلمى فى كتابات مونتسكيو وبخاصة فى كتابه « روح القوانين » حيث أرمى فى هذا الكتاب قواعد أو أسس « نظرية النسق الاجتماعى الكلى » بناء على ارتباط المجتمع ارتباطا وظيفيا(٣) .

ولقد ساهم هربرت سبنسر بتصورية وظيفية من نوع عضوى حين عقد المقارنات أو المماثلات بين المجتمع من ناحية والكائن العضوى

---

(2) A. Giddens, Functionalism : Apés la lutte. in Social Research. Vol, 43 No. 2 Summer 1976 pp. 325 - 366, p. 326.

(3) A. R. Radcliffe Brown. Sturcture and Function in Primitive Society. London. 1966. Quoted in .

د. قبارى اسماعيل ، ص ٣٥٨ .

organism من ناحية أخرى ٠ حيث يشبه المجتمع فى تلك المماثلة البيولوجية بالكائن العضوى من حيث البناء والوظيفة ٠ فالمجتمع ينمو ويتطور باطراد ، كما ينمو ويتطور الكائن الحى ٠ ويشبه سبنسر تقسيم العمل فى المجتمع تماما كما تتوزع الوظائف العضوية كى تعمل فى البناء العضوى(٤) ٠

ويعتبر اميل دوركايم من أقوى المؤثرين على الاتجاه الوظيفى المعاصر ٠ فقد أوضح بصورة لا تقبل الشك تميز الواقعة الاجتماعية واستقلالها عن كافة الظواهر الأخرى سواء البيولوجية أو الفسيولوجية ، وبذا تميز عن الاتجاهات العضوية والنزعات الحيوية السابقة ٠ واهتم دوركايم بوظيفة الواقعة فى عملية التفسير ، ورأى أن هذه الوظيفة تتضح داخل المجتمع ، فى علاقة الواقعة بنظام اجتماعى أوسع ٠ وقد تحدث دوركايم عن وظيفة الدين فى كتابه « الأشكال الأولية للحياة الدينية »(٥) ، وبين كيف ساعدت ديانة القبائل البدائية فى الحفاظ على وحدة القبيلة وتماسكها ٠

وقد ظهر التعبير « بنية » Structure الى جانب التعبير « وظيفة » Function ، واستخدم منذ القرن السادس عشر ليعنى التفاعلات بين مكونات الشىء ٠ وقد استخدمت الدراسات التشريحية Anatomy هذا التعبير بتوسع كبير ، ثم انتقل منها الى العلوم الاجتماعية٠ وترجع فكرة دراسة البنية الاجتماعية كهدف للبحث الاجتماعى الى سبنسر (١٨٥٨) ٠ ثم ظهرت هذه الصورة بعد ذلك لدى دوركايم : ان المجتمع هو مخلوق حى مكون من اجزاء ، وتتضح البنية الاجتماعية

---

(٤) د٠ قبارى اسماعيل : مرجع سابق ، ص ٣٥٩ ٠

(٥) تحدثنا بالتفصيل عن موقف دوركايم فى الفصل الثالث من الرسالة ٠

نتيجة التبادل فى المواقع والعلاقات بين الأجزاء المكونة ٠ وتعتبر وظيفة اى جزء الطريقة التى يعمل بها لكى يحافظ على النسق كله(٦) ٠

أولا : الاتجاه الوظيفى ونظرته الى التفسير :

اوضح ناجل وهو فيلسوف علم طبيعى ، ان هناك ستة معان للتعبير وظيفة function :

اولا : تستخدم الكلمة لتعنى علاقات اعتماد dependence او علاقات اعتماد متبادلة interdependence بين اثنين أو اكثر من العوامل المتغيرة (المتغيرات) سواء كانت تلك العوامل قابلة للقياس أم لا ٠ ولا يميز هذا المعنى التحليل الوظيفى عن غيره من التحليلات التى تستخدم فى مجالات أخرى كثيرة بهدف اكتشاف الاطرادات فى موضوع الدراسة ٠

ثانيا : تستخدم كلمة « وظيفة » أحيانا لتعنى مجموعة من العمليات فى كيان معين ، بدون اشارة الى التأثيرات المختلفة التى تنتهجها تلك العمليات سواء على هذا الكيان أو على أى كيان آخر ٠

ثالثا : تستعمل الكلمة من جانب العلماء البيولوجيين لتعنى بعض أنواع العمليات العضوية التى تحدث فى الأجسام الحية مثل التناسل والامتصاص والتنفس ٠ ويقوم الجسم بهذه العمليات ككل وليس كأجزاء ، على الرغم من أن بعض هذه العمليات ترتبط بشكل واضح بعمل اجزاء معينة من الجسم ٠ وتخص هذه العمليات الكائنات الحية وحدها ، وكثيرا ما يقال أنها ضرورية لاستمرار حياة الكائن ٠ وبالتالى فان الوظيفة

(6) E.R. Leach. Structure : The History of the Concept in D. L. Sills (ed.) op. cit. vol. 14 pp. 482 - 488, p. 482.

الحيوية Vital function تؤخذ على انها الصفات المحددة للأجسام الحية بحيث اذا نقصت هـذه الصفات فى حـد الأجسام فهو لا يعد كائنا حيـا .

رابعا : كثيرا ما يرد التعبير « وظيفة » ليعنى استخدام مقبول لشىء ما او فائدة هـذا الشىء ، أو تأثير منتظر لفعل ما كما فى التعبير « وظيفة البلطة هى قطع الخشب » . وقد اشار مالينوفسكى الى هـذا المعنى فى قوله « ان الوظيفة تعنى دائمـا اشباع حاجة ما »(٧) . وعندما تستعمل كلمة وظيفة بهذا المعنى فان التحليلات الوظيفية ترتبط بالأبحاث التى تتناول ظواهر خاصة بالكائنات الحية سواء كانت انسانية ام غير انسانية . ويتمثل التفسير الوظيفى عندئذ فى ذكر الفائدة التى يملكها الشىء بالنسـبة لمجموعة من الكائنات الحية ، أو ذكر النتائج المترتبة على امتلاك مثل هـذه الفائدة . وتتكون التفسيرات فى هـذا النوع من تقرير واحد فقط (احيانا يكون عاما ، واحيانا لا يكون كذلك) ، ويقوم هذا التقرير على تاكيد العلاقة الوقائعية ـ بين موضوعات عدة ، الا انه لا يربط بوضوح هـذه الواقعة بأى واقعة اخرى تظهر سبب حدوث هـذه العلاقة الوقائعية .

خامسا : تستعمل كلمة « وظيفة » بمعنى قريب من السابق ، لتشير الى مجموعة نتائج شىء ما أو نشـاط ما بازاء النسق ككل او بازاء مجموعة متنوعة من الأشـياء الأخرى يملكها النسق . فهكذا تستخدم الكلمة فى تقرير كالتالى « ان احد وظائف الكبد هى تخزين السكر فى الجسم ، وليست هـذه الوظيفة هى وظيفته الوحيدة » .

سادسا : تستخدم كلمة « وظيفة » لتشير الى المساهمات التى يقوم

---

(7) B. Malinowski. A Scientific Theory of Culture p. 159. Quoted in Nagel : Structure of Science p. 524.

بها شىء ما (أو يستطيع أن يقوم بها اذا توافرت ظروف ملائمة) لكى يحافظ على خاصية معينة أو شرط محدد فى نسق معطى يفترض انتماء هــذا الشىء اليه(٨) ٠

لقد بدأت المدرسة الوظيفية بدراسة المعايير norms ، أى نظرة الأفراد الى الطريقة التى ينبغى ان يسلكوا على اساسها أو كيف كان سلوكهم بالفعل فى مختلف الظروف ٠ وقد اهتم الوظيفيون بصفة خاصــة بشبكة المعايير التى يطلق عليها اسم دور role ، ثم اهتموا بشبكة الأدوار التى تسمى بأنظمة institutions ٠ ومن هنا جاء اهتمامهم بالأنظمة ٠ وقد اعتبروا الدور هو وحدة التحليل الاجتماعى وليس الفرد الذى يقوم بالفعل ٠ وقد اهتمت الوظيفية فى مرحلة تالية بالعلاقات المتبادلة بين الأدوار وبالعلاقات المتبادلة بين الأنظمة ويعتبر هــذا هو الجانب البنيــوى من عملهم ٠ وقد قام بهــذا العمــل مجمــوعة من الانثروبولوجيين الاجتماعيين مبينين كيف تتسق الأنظمة فى مجتمع بدائى ثم انتقلوا لتشمل دراساتهم المجتمعات المتقدمة ٠

وقد انحصر اهتمام المدرســة الوظيفية فى النتائج اكثر من اهتمامها بالأسباب خاصــة نتائج النســق الاجتماعى باعتباره وحــدة واحدة ، وقد اعتبرت هــذه النتائج وظائف الأنظمة ٠ وقد اهتم الوظيفيون ببيان الوظائف الخاصــة بنسق ما ، الى جانب اهتمامهم باختلال تلك الوظائف dysfunction ٠ وذلك بدون طرح اســئلة عن سبب وجود النسق منــذ البداية(٩) ٠

---

(8) Nagel. Structure of Science pp. 523 - 525 .

(9) G. C. Homans. Bringing men back in. In. A. Ryan (Ed.) . The Philosophy of Social Explanstion. London : Oxford Univ . Press. 1973 pp. 50 - 64, pp. 50 - 51.

وقد رأى البعض أن التحليل الوظيفى فى العلوم الاجتماعية يحاول ان يتبنى نوعا من التفسير شــائع فى البيولوجيا وخاصــة فى الفسيولوجيا ويتمثل فى تحليل البناء والعمليات الخاصــة بأجزاء مختلفة من الجسم ، بهدف عرض الطريقة التى تحافظ على بعض الأنشطة المميزة أو على خصائص الجسم (أو النسق) ، على الرغم من التغيرات التى تقــع فى المحيط الخارجى والمحيط الداخلى(١١) . وقد رأى ناجل انه لا يوجد اختــلاف بين التفسيرات الوظيفية والتفسيرات الغائية على اساس ان التفسيرات الوظيفية تقوم على عرض الجهود التى تبذلها بعض العناصر أو الأشــياء للمحافظة على المجتمع . اى انها فى ذكرها للدور الذى يلعبه الفعل تهدفه الى تحقيق غاية ما ، وهى هنا نموذج التفسيرات الغائيــة teleological فى علم الفسيولوجيا . وقد وجد ناجل أن التفسيرات الوظيفية تســـتخدم تعبيرات معينة مثــل « بهدف فعــل شىء ما » in order that أو « من أجل تحقيق شىء ما » for the sake of

كما تشــير كثير من التفسيرات الوظيفية الى حالة أو حدث مستقبل ، يصبح فى ضوء وجود الشىء او حدوث الفعل أمرا مفهوما أو مدركا(١٢).

وبينما وحد ناجل بين التفسيرات الوظيفية والتفسيرات الغائية فقد فعل البعض عكس ذلك وميزوا بينهما . وقد عرف « جرونر » التفسير الغائى بأنه تفسير فى ضوء الأهداف والرغبات والدوافع والميول ... الخ ، وما دام البشر وحدهم يملكون اهدافا ورغبات ودوافع وميولا فان التفسيرات الغائية توجد فقط فى مجال الأفعال الانسانية . أما التفسير الوظيفى فهو تفسير فى ضوء المســاهمة التى يقوم بها شىء ما او عملية معينة من أجل المحافظة المستقبلية على نسق محدد ، يعتبر هــذا الشىء

---

(10) Nagel , Problems of Ooncept and Theory Formation in the Social Sciences p. 191.

(11) Nagel. Sturucture of Science p. 24.

او تلك العملية جزءا منه . وترتبط كلمة « وظيفة » فى التفسير الوظيفى بمعنى واحد معين هو « الوظيفة داخل النسق » . اما عن نوع النسق فقد يكون ميكانيكيا او بيولوجيا او اجتماعيا او يتخذ اى شكل آخر ، وما يهمنا هو أن التفسيرات الغائية تخلو تماما من الاشارة الى النسق(١٣) .

ان التفسيرات الغائية تمتلك نفس بناء التفسيرات الوظيفية الا أنها تختلف عنها فى الشكل ، ففى التفسير الغائى تنتقل من الهدف الى الفعل أى من السبب الى النتيجة ، وفى التفسير الوظيفى ننتقل من الوظيفة الى الموضوع الذى قام بتلك الوظيفة أى من النتيجة الى السبب(١٤) .

وقد حاول بعض العلماء رد التفسير الوظيفى الى التفسير السببى فبينوا كيف نستطيع ترجمة تقرير عن وظيفة نظام ما الى تقرير سببى عن أصل واستمرار هذا النظام . احدى هذه الطرق تتمثل فى وضع أحد النزعات الأصلية والعامة فى المجتمعات كمصادرة ، فنقول ان أجزاء المجتمع تندمج وظيفيا داخل الكل . وتكون وظيفة النظام فى هذه الحالة هى سبب وجوده raison d'étre ، وبالتالى سببه او علته Cause . وتقوم الأسس المنطقية لهذه المصادرة على التكامل complementarity بين الأدوار والأنظمة : ان دور الزوجة يتضمن دور الزوج ، ويتضمن تخصص الشخص فى الوظائف التنفيذية القول بأنظمة منفصلة للتشريع والقضاء ، وهكذا . أما الأساس المنطقى الثانى للمصادرة فيقوم على الاعتقاد فى ان تكامل المجتمعات ينبنى على اندماج

---

(13) R. Gruner . Teleological and Functional Explanation. in Mind. October 1966, pp. 516 - 526 . p. 517.

(14) Ibid. p. 526.

وتكامل الشخصية الانسانية : فما دام فرد بعينه يقوم بأدوار عدة فى مجموعة من الأنظمة وما دام الأفراد يطمحون الى التماسك ، فيترتب على ذلك القول بأن كل أنظمة المجتمع لا بـد لهـــا أن تصطبغ بنفس التفصيلات القيمية ، وبنفس أنماط الاتجاهات ازاء الفعل ، وبنفس نماذج السلطة ، وبنفس النظرة الى العالم مع نفس الاحساس بالوقت ... الخ(١٥) .

تعتبر الوظيفة اذن منهجا لتفسير الأحداث والأنظمة الاجتماعية وذلك عن طريق ذكر الوظيفة التى تؤديها . ويعتبر تحـديد الوظيفة تفسيرا للظاهرة لأنه يوجد مجموعة من الافتراضات النظرية عن كيفية عمل المجتمع . وتركز الوظيفة على فهم المجتمع باعتباره مجموعة من الأنساق(١٦) المرتبطة بعلاقات وذلك دون الرجوع الى حالات أو أوضاع سـابقة . ويكفى التفسير الرجوع الى الوقائع الملاحظة والمعروفة فلا يوجد ما يستدعى الذهاب الى ما وراء الوقائع الملاحظة أو الاستعانة بالتاريخ : ان كل أجزاء المجتمع ممكنة التفسير عن طريق الاشـارة الى علاقاتها بالأجزاء الأخرى . ونستطيع القول أن الوظيفة هى عبارة عن نظرية خاصـة بالمجتمع لا تحتاج الى أى بحث للمجتمع ذاته من أجل التوصل الى فهمه ومن هنا عدم حاجتها الى استخدام الحدس أو المخيلة وتكفى الملاحظة التجريبية .

---

(15) R. P. Dore. Function and Cause. in Ryan (ed.) The Philosophy of Social Explanation pp. 65 - 81, p. 68.

(١٦) يشير مفهوم النسق الى كل من الاعتماد المتبادل والمعقد بين الأجزاء والمكونات والعمليات التى تتضمن علاقات مطردة ، كما يشير الى نمط ثانى من الاعتماد المتبادل قائم بين الموضوع والبيئة المحيطة . (انظر :
T. Parsons Social Systems in D. Sills (ed.) op. cit. pp. 458 - 472, p. 458.

ولا شك أن استعراضنا لعدد من الشخصيات البارزة فى هـذا الاتجاه سوف تلقى ضوءا على تطوره ٠

ويعتبر مالينوفسكى (١٨٧٣ – ١٩٢٠) B. Malinowski أول من اسـتخدم المفهوم « وظيفة » فى الانثروبولوجيا الاجتماعية كتعبير عن منهج معين واتجاه فى البحث ، وذلك فى مقالة له تحت عنوان : « انثروبولوجيا » نشرت فى الموسوعة البريطانية عام ١٩٣٦ ٠ وقد تلاه بعد ذلك علمـاء آخرون مثل روبرت مرتون ، وراد كليف براون ، وغيرهم ٠

وقد رأى مالينوفسكى – ويدعى أبو الوظيفية .. ان التحليل الوظيفى للثقافة يهدف الى تفسـير الوقائع الانثروبولوجية فى كافة مسـتويات تطورها عن طريق وظائفها ٠ ويحدث ذلك عن طريق معرفة الدور الذى تلعبه الوقائع داخل النسق الثقافى ، والطريقة التى ترتبط بها هـذه الوقائع ببعضها البعض داخل النسق ، وأخيرا بواسطة الطريقة التى يرتبط بها النسق ذاته بما يحيط به من أشـكال مادية ٠ معنى ذلك ان النظرة الوظيفية الى المجتمع تؤكد على المبدأ الذى يقوم على القول بأن كل نمط من أنماط الحضارة ، وكل تقليد ، وكل موضوع مادى ، وكل فكرة أو معتقد ، تقوم بدور حيوى وتؤدى مهمة محددة ، وتمثـل جزءا لا غنى عنه فى داخل الكل(١٧) ٠

وتتوافق الأنظمة الرئيسـية فى المجتمع مع الحاجات البيولوجية الأساسية للكائن البشرى الذى لا يمكن له أن يعيش بدونها ٠ ومن هنا رأى مالينوفسكى أنه يتعين على التفسير الوظيفى لواقعة اجتماعية معينة أن يبين قيمة استمرار هـذه الواقعة وذلك عن طريق عرض وظيفتها فى

---

(17) B. Malinowski « Anthropology . » Encyclopedia Britannica. Suppl. Vol. 1 New York and London 1936 pp. 132 -33

الوفاء بشروط الحياة وبالتالى فى ارضاء الحاجات الأساسية للكائنات البشرية(١٨) .

وقد دخلت الوظيفية علم الاجتماع من خلال تدريس راد كليف براون (١٨٨١ – ١٩٥٥) A R. Radcliffe - Brown ، ثم قويت بفضل تالكوت بارسونز T. Parsons وظهر مفهوم « البنية » بجانب مفهوم « الوظيفة » فى أعمال راد كليف براون وبارسونز وأصبح « الوظيفى – البنائى » أو « الوظيفى البنيوى » هو الشائع .

وركز راد كليف براون اهتمامه على الحياة الاجتماعية ، فقد رأى أن الوظيفة الأولية لأى عنصر داخل البناء الاجتماعى تتمثل فى الحفاظ على التماسك الاجتماعى . وبالتالى فان تحليلاته حاولت ان تبين كيف أن كل نظام ساهم مع عناصره المكونة فى المحافظة على التماسك اى على استمرار المجتمع . وقد قامت تصورات راد كليف براون ازاء المجتمع والثقافة على ثلاثة أسس : الثبات Stability والتوازن equilibrium والتكامل أو الدمج Integration .

ولم تخلو نظرة راد كليف براون من مقارنات للتحليل الوظيفى فى كل من العلم الاجتماعى والفسيولوجيا . فاذا تناولنا اى جزء من عملية حياة كائن ما مثل التنفس أو الهضم ... الخ ، فاننا نجد أن وظيفته تتمثل فى الدور الذى يلعبه ، والمساهمة التى يقوم بها ازاء حياة الكائن باعتباره كيانا قائما بذاته . ان كل خلية وكل عضو له نشاطه الخاص ، وهذا النشاط له وظيفة . ونلاحظ أن وظيفة أى عملية فسيولوجية هى عبارة عن توافق بينها وبين احتياجات الكائن (أى الشروط

---

(18) B. Malinowski « The Functional Theory » in«A Scientific Theory of Culture . Chapel Hill. N. C. 1944 pp. 147 - 76 Quoted in Naguel Structure of Science. p. 521.

الضرورية لوجوده) . فاذا انتقلنا من الحيـاة العضوية الى الحيـاة الاجتماعية وقمنا بدراسة مجتمع معين مثل القبائل الافريقية أو الاستراليـه ، فسوف نلاحظ وجود بنية أو بناء اجتماعى Social structure وترتبط الكائنات البشرية الفردية ـ وتمثل الوحدات الأساسية فى هـذه القبائل ـ بواسطة مجموعة محددة من العلاقات الاجتماعية لتكون كلا موحدا . ولا تؤثر التغيرات التى تحدث فى الوحدات على استمرارية البنية الاجتماعية تماما مثل البناء العضوى . فقد يترك بعض الأفراد المجتمع عن طريق الموت أو خلافه ، وقد يدخل آخرون . أن ما يحافظ على استمرارية البناء هو الحياة الاجتماعية نفسها The process of social life التى تتكون من أنشـطة وتفاعلات الأفـراد ، ومن الجماعات المنظمة . وتعرف الحياة الاجتماعية لجماعة ما على أساس أنها وظيفة البنية الاجتماعية أو البناء الاجتماعى . وتعتبر وظيفـة اى نشاط متكرر ـ مثل عقوبة جريمة ما ، أو حفلة ، أو جنازة ، تعتبر الدور الذى يلعبه هـذا النشاط فى الحياة الاجتماعية ككل وبالتالى المسـاهمة التى يقوم بهـا فى المحافظة على الاسـتمرارية فى البنيـة أو البنـاء(١٩) .

ان مهمة العلم الاجتماعى فى رأى راد كليف براون تتمثل فى دراسة طبيعة الانساق الاجتماعية . فهو يهدف الى كشف القضايا العامة التى تسـمح لنا بفهم وتأويل خصائص الأنسـاق الاجتماعية(٢٠) . والمشـكلة التى تواجهنا هى امكان التوصل الى علم طبيعى للمجتمعات الانسانية . معنى ذلك القيام بتطبيق نفس الطرق المنطقية التى تستخدم

---

(19) A. R. Radcliffe - Brown. Structure and Function in Primitive Society London 1952 pp. 179 - 80.

(20) A. R. Radcliffe - Brown . A Natural Science of Society. Illinois : The Free Press 1957, p. 153.

فى العلوم الفيزيائية والبيولوجية على ظواهر الحياة الاجتماعية الخاصة بالبشر ، على الأنظمة الخلقية والدينية والقانونية ، وعلى الأنظمة السياسية والاقتصادية ، وعلى الفنون والعلوم ، وعلى اللغة . وذلك بهدف التوصل الى صيغ دقيقة علميا من التعميمات المحتملة ذات المعنى . ان هذا العلم الذى يتصوره راد كليف براون لا يوجد حتى الآن الا انه ممكن ، ذلك انه لا يوجد الا علم واحد على الرغم من ان كل علم قد يستخدم طرق مستقلة مثل اللغة ، ولابد لهذا العلم ان يكون متميزا عن علم النفس كتميز الفسيولوجيا عن الكيمياء . اما المنهج المقترح فهو المماثلة او المقارنة المنظمة للمجتمعات ذات الأشكال المختلفة . ويتوقف تطور العلم ونموه على تحسين المنهج المقارن وجعله اكثر دقة باعتباره اداة تحليل . ويحتاج هذا الى عدة خطوات هى :

١ ـ التحسن المستمر فى مناهج ملاحظة ووصف المجتمعات .

٢ ـ الوصول الى تعريف دقيق للمفاهيم الأساسية التى نحتاجها من اجل وصف وتصنيف وتحليل الظواهر الاجتماعية .

٣ ـ تطور التصنيف المنظم لأنماط المجتمع(٢١) .

وقد اهتم راد كليف براون مثل كل الوظيفيين بالنسق ، ورأى أن كل المشكلات العلمية هى مشكلات الأنساق التى تقوم بالوصفه . وقد نادى بالأنساق الطبيعية فالعلاقات داخل نسق طبيعى هى علاقات اعتماد متبادل interdependence (٢٢) ويتحدد النسق عن طريق تعريف وحداته وتعريف العلاقات بين الوحدات المكونة للنسق . اما وحدات النسق الاجتماعى فهى البشر باعتبارهم مجموعات من الأحداث السلوكية تربط بينهم علاقات اجتماعية(٢٣) .

---

(21) Ibid. p. 3.
(22) Ibid. p. 19.
(23) Ibid. p. 26.

وتتمثل مشكلة العلوم الاجتماعية في تقسيم الأنساق الى انماط types ولن نستطيع التوصل الى اى تقرير عن المجتمعات الا اذا صنفاها معا الى عدد من المجموعات التحتية subclasses اى الى انماط . واذا كان النسق كما رأينا هو مجموعة من العلاقات بين مجموعة من الكيانات القائمة بذاتها فان تلك العلاقات لا تظل ثابتة ، فهناك اتصال ديناميكى ، ولكن يظل النسق موجودا طوال فترة هذا الاتصال الديناميكى للبناء الاجتماعى(٢٤) .

وقد حدد راد كليف براون كل مشاكل المجتمع فى مجموعات ثلاث هى :

١ ـ كيف تصنف المجتمعات ؟
٢ ـ كيف تستمر ؟
٣ ـ كيف تغير نمطها ؟

وتنحصر مهمة العلوم الاجتماعية فى تاكيد البقاء الأبدى للأنساق الاجتماعية عن طريق محافظتها على شكل البنية الاجتماعية الخاصة بها .

وتشتمل البنية الاجتماعية على نوع من الوحدة أو الكيان الوظيفى على اعتبار انه يتألف من اجزاءء أو انساق اجتماعية تتوافق فيما بينها بدرجة منتظمة ، ويكون لكل نسق فيها وظيفته فى هذا الكيان . ولا شك أن رادكليف براون قد تابع اتجاه دوركايم فى تفسير طبيعة الظاهرة الاجتماعية والثقافية فى حدود عدد من المفروض النظرية ، مثل فرض التماسك solidarity ، وفرض الدوام والاستمرار consistency وظهور بعض الملامح والسمات البنائية التى تتساند فيما بينها حين تتكامل وتتوظف فى البناء الاجتماعى(٢٥) .

(24) Ibid. p. 80.

(٢٥) قبارى اسماعيل . مرجع سابق ص ٣٦٩ .

وقد ظهرت آراء مرتون (١٩١٠ ــ) R. M. Merton
فى مقاله « الوظائف الواضحة والوظائف المستترة » Manifest and LatentFunctions كالتالى :

١ ــ يحتاج المفهوم « وظيفة » الى تعريف محدد ، لذا يجب فصل المفاهيم المرتبطة بالحالات الذاتية عن تلك التى ترتبط بنتائج الافعال ، ويقول مرتون « ان الوظيفة الاجتماعية تشير الى نتائج موضوعية خاضعة للملاحظة و لاتشير الى ميول ذاتية (أهداف ، دوافع او غايات) »(٢٦) .

٢ ــ ان كثيرا من الاهتمامات الوظيفية فى علم الانثروبولوجيا يحتاج الى مراجعةواستبعاد . فالقضية التى تقوم على ان المجتمع يملك وحده وظيفة أو اتساق ضمنى ، تلك القضية التى يرى مرتون أنها ترتبط برادكليف براون لابد وأن تستبعد ، أو على الاقل لا تؤخذ كمسلمة ، لأن درجة تماسك المجتمع تحتاج ان تعامل كمتغير تجريبى . وتحتاج قضايا أخرى الى مراجعة بهذا الشكل .

٣ ــ لا بد من مراجعة الوظيفة فى ضوء المادية الجدلية كما تتبدى لدى ماركس وانجلز . وتحتاج هذه المراجعة فى رأى مرتون الى :

(ا) اعتبار الوظائف نتائج ملاحظة للممارسات المقننة التى تساعدعلى تلائم نسق ما أو تعديله (٢٧) وتوضع الوظيفة هنا فى مقابل الاختلال

---

(26) R. M. Meton. « Manifest and Iatent Functions » in Demerath and Peterson (eds.) System, Change and Conflict . New York : Free Press 1967 , p. 14 .

(27) Merton Ibid. p. 43.

تلائم النسق dysfunction الذى يشير الى ظواهر تتحرك ضد الوظيفى adaptation أو تعديلة .

(ب) لا بد أن يتضمن التحليل الوظيفى تقييم مجموعة النتائج . فقد تكون ممارسة اجتماعية معينة وظيفية فى بعض جوانبهـــا أو فى مستويات معينة للنسق التى هى جزء منه وتكون مختلة وظيفيا فى جوانب او مستويات اخرى .

(جـ) يتحتـــم فصــل الوظـــائف الواضحــة manifest وهى تلك النتائج الموضوعية التى تساهم فى تلاؤم أو تعديل النســـق المعترف به من جانب المشاركين فيه(٢٨) ، فصلها عن الوظائف المستترة latent غير المرغوب فيها وغير المعترف بها .

٤ ـ يحتاج تحليل المتطلبات الوظيفية للانساق الى استكمال عـن طريق الاعتراف بوجود مدى معين للتغيير فى البدائل الوظيفية . وتتحدد احتمالات التغيير فى أى حالة بواسطة قيود اجتماعية Socia constraints مشتقة من العلاقة المتبادلة بين عناصر البنية أو البناء الاجتماعى(٢٩) .

ويعبر تالكوت بارسونز (١٩٠٢ ـ) T. Parsons عن نزعة بنائية ـ وظيفية فى محاولة صياغة نظرية عامة عن المجتمع، ويتضح ذلك فى كتابية « بنية الفعمل الاجتماعى » Stucture of Social Action و « النســــــق الاجتمـــاعى » Social System لقد اعتبر بارسونز النسق العام للفعل بمعنى السلوك الانسانى هو نقطــة الانطلاق . وينقسم هذا النسق الى اربعة أنساق تحتية soussystemes نسق بيولوجى ، ونسق نفسى ، ونسق اجتماعى (تفاعل بين القائمـين

(28) Loc. Cit.

(29) Ibid. p. 44.

بالفعل) ، ونسق ثقافى (معايير ، قيم ، ايديولوجيات) ويأتى الفعل الواقعى كنتيجة للقوى الصادرة عن الانساق التحتية ، ويقوم كل علم من علوم الانسان بدراسة قطاع واحد . ويوجد تسلسل لهذه الأنسقة التحتية: ان اكثر الانساق ثراء بالمعلومات يوجد فى النسق الثقافى الذى يقع فى القمة ، مع النسق الاجتماعى ، واكثر الانساق ثراء بالنشاط هو النسق البيولوجى الذى يوجد فى أسفل السلم ، مع النسق النفسى (٣٠) .

وقد وضع بارسونز مجموعة شروط بدونها لا يصبح السلوك أو الفعل اجتماعيا وهى :

اولا : ضرورة ان يتضمن الموقف الاجتماعى تواجد عدد من الاشخاص المشتركين فى انجازه والقيام به .

والشرط الثانى : ان الموقف قد يصبح اجتماعيا اذا ما توافرت ردود الافعال المباشرة لسلوك الفاعل الاجتماعى .

أما الشرط الثالث والاخير : فيتعلق بضرورة مشاركة الفاعل الاجتماعى مع الآخرين ، وفى ضوء أنساق التوقعات المنتظرة استنادا الى سيادة نسق من الرموز والمعتقدات والقيم . وارتكانا الى هذا الفهم ، فان افعال الاشخاص المشتركين فى موقف اجتماعى محدد سوف تصبح متشابهة اذا ما تشابهت الظروف والاشخاص . وقد تتكرر ايضا نفس الافعال والاشخاص فى مختلف المواقف والظروف ، اذا ما تكررت وتماثلت نفس الاهداف والتوقعات(٣١) .

---

(30) M. Grawitz . Méthodes des Sciences Sociales p. 441.

(31) P. Cohen. Modern Social Theory . London : Heinemann 1968, P. 9 : Quoted in

د . قبارى اسماعيل ، ص ٣٧١ .

ويستند البناء الاجتماعى أو البنية الاجتماعية الى عناصر التفاعل التى تدور بين سائر الافراد والاشخاص ، فالبناء الاجتماعى هو مبعث التصورات والمعايير المنظمة للسلوك ، كما انه مصدر عملية التنميط التى تحدد السلوك الاجتماعى طبقا لقوالب معينة يفرضها النسق الاجتماعى. والفارق بين « النسق » و « البناء » أو « البنية » هو فارق فى الدرجة حيث ان السلوك داخل النسق الاجتماعى هو جزء لا يتجزأ من نطاق أو مدار أوسع واشمل هو اطار أو مدار البناء الاجتماعى . والسلوك البنائى عند بارسونز هو ذلك السلوك الذى يخضع لنزعة كلية وجمعية ، وفقا لأنساق التفاعل وطبقا لقواعد التوقع والنتائج المنتظرة(٣٢) .

وقد ميز بارسونز بين عناصر اربعة مكونة للبناء وثابتة هى : الادوار (المتصلة بأنشطة الافراد فى المجتمع : عمدة أو قاض ...) والكليات او الجماعات (اسر ، احزاب سياسية) ، والمعايير ، والقيم ، وتشتق المعايير والقيم من النسق الثقافى والنسق الاجتماعى ، وتمتاز بالثراء فى المعلومات بينما تمتاز الادوار والكليات او الجماعات بالنشاط . وكما حدد بارسونز عناصر البنية فقد بين ان النسق الاجتماعى يتحرك فى مواجهة عوامل اللاتوازن التى تهدده . ويذكر اربعة وظائف تقف فى مواجهة المشاكل : وظيفة الثبات المعيارى stabilité normative وهى اقل الوظائف دينامية (ويقارنها بارسونز بمبدأ القصور الذاتى فى الميكانيكا) ووظيفة التكامل أو الدمج intégretion التى تنظم العلاقة بين عناصر النسق ، ووظيفة متابعة الهدف ، واخيرا وظيفة التلائم adaptation التى تنحصر فى مجموعة الوسائل التى يملكها النسق للوصول الى تحقيق أهدافه . وتتسلسل هذه الوظائف الاربعة فى توازٍ مع الابنية أو البنيات ، فتتوافق الوظيفتان الاولى والثانية مع القيم والمعايير وتتوافق

---

(٣٢) د . قبارى اسماعيل ، ص ٣٧١ .

الثالثة والرابعة مع الكليات او الجماعات والأدوار باعتبارها اكثر اتصالا بالواقع (٣٣) .

ثانيا : نظرة نقدية الى الاتجاه الوظيفى :

تعرضت الوظيفية لكثير من الانتقادات فقيل مثلا ان هذا الاتجاه قد وضع قيودا تعوق البحث وتتمثل فى المآخذ التالية :

١ - تحيز ايديولوجى محافظ يهدف الى المحافظة على الوضع القائم.

٢ - نقص فى الوضوح المنهجى بسبب الاهتمام بالبناءات والتفسيرات الغائية للحياة الاجتماعية .

٣ - تقدير غير متناسب لدور الانساق المغلقة فى الحياة الاجتماعية .

٤ - فشل نسبى فى تناول مشكلة التغير الاجتماعى بنجاح (٣٤) .

اما بالنسبة لكون الوظيفة متميزة ايديولوجيا ففى الواقع ان نظرتها الايديولوجية قد انعكست على موضوع ومنهج الدراسة الاجتماعية ، وذلك بتطبيقها لوجهات نظر محافظة تهدف الى الحفاظ على الوضع القائم من خلال ترابط العلاقات داخل النسق ، وعلى سلامة البناء الذى هو كيان كلى قائم بذاته .

وقد ارتبط بهذه النظرية المحافظة ميل شديد من جانب الوظيفيين

---

(33) Grawitz p. 442 .

(34) Don Martindale , Limits of and Alternatives to Functionalism in Sociology . in D. Mardiandale (ed.) Functionalism in the Social Sciences. Philadelphia : The American Academy of Political and Social Sciences 1965 pp. 144-162, p. 156.

لتقديم تفسيرات ستاتيكية أو استقرارية للمجتمع ، تنكر الاعتراف بالقوى المتعارضة والمتصارعة فى بناء المجتمع وتحاول ان ترد كل شىء الى فكرة التوازن اما الصراع فهو حالة مرضية عارضة أو على الاقل حالة غير سوية ، وان المجتمع لن يلبث ان يرد الى حالة التوازن الاجتماعى الاصيل(٣٥) . ويرجع ذلك الى كونها نظرة محافظة تعلى من قيم التساند والانسجام والتناغم من اجل تحقيق التضامن والتماسك بين سائر الانساق والانظمة والعلاقة السائدة فى البناء الاجتماعى . الأمر الذى اخفقت معه النظرية الوظيفية الى حد كبير فى تفسير ظواهر التغير والصراع والتفكك(٣٦) .

لقد تصدت الوظيفية منذ البداية للماركسية بصراعاتها (مفهوم صراع الطبقات) ، وجمعت خصائص العقلية الامريكية وهى : النظرية الدينامية (هناك وظيفة) ، والنزعة النفعية (هناك فائدة أو منفعة) ، واخيرا التوازن والتفاؤل (اغفال الاختلال فى الوظائف) .

لقد اكد رادكليف براون التماسك الاجتماعى من اجل استمرار المجتمع ، وعلى هذا الاساس اقام تحليلاته الوظيفية . الا ان هذا الاتجاه اهمل تماما تفسير التغير ، وكان لا بد له من البحث عن تحليل اعمق للعوامل المؤدية الى التغير ، فكل تغير لا يمكن اعتباره ناتجا عن تأثيرات خارجية ، ذلك ان اغلب البناءات الاجتماعية تملك بداخلها عناصر الاعتراض والصراع بدليل أن التكامل أو الدمج الاجتماعى لم يكن بالكمال المفترض ، كما ان اغلب المجتمعات ليست فى توازن تام

---

(٣٥) د . أحمد أبو زيد : ماذا يحدث فى علوم الانسان والمجتمع ، عالم الفكر ، الكويت المجلد الثامن . العدد الاول (ابريل – مايو – يونية ١٩٧٧) ص ٢٣٣ – ص ٢٥٤ – ص ٢٤٦ .

(36) P. Cohen. Modern Social Theory . Quoted in

د . قبارى اسماعيل ، ص ٣٧٨ .

والصراع يعتبر احد المظاهر الأساسية فى المجتمع . ويقول باستيد R. Bastide فى هذا الصدد : « ان الوظيفة تفسر جيدا لماذا تستمر الأشياء ولكنها لا تفسر لماذا تتغير ؟ »(٣٧) .

ويرى آخرون ان الوظيفية لم تقدم نظرية او تفسيرا ، فهى عاجزة عن القيام بذلك بسبب اهتمامها ، منذ البداية ، بقضايا خاصة بشروط التوازن الاجتماعى وهى قضايا لا يمكن ان تشتق منها نتائج نهائية فى نسق استنباطى(٣٨) . ويؤكد ناجل على استحالة اعتبار الوظيفية «نظرية» عن الثقافة لأن النظرية تحتاج الى الاتفاق مع الادلة التجريبية المتوافرة ، وهناك ادلة على ان المجتمعات ليست انساقا عضوية متماسكة كما تدعى المدرسة الوظيفية(٣٩) .

اما عن التفسيرات التى يقدمها الاتجاه الوظيفى بهدف عرض وظائف عناصر مختلفة فى النسق الاجتماعى سواء للحفاظ على النسق او تغييره فانها – التفسيرات – تفتقد الى المحتوى الواقعى Substantive content اما عن الادعاءات التى يقدمها الوظيفيون (سواء على شكل بديهيات او فروض للبحث) بخصوص الطابع الدمجى integral اى الوحدة الوظيفية للانساق الاجتماعية – تلك الانساق الناتجة عن قيام اجزاء النسق بالعمل معا مع قدر كاف من « التوافق والاتساق الداخلى » – او الوظيفة الحيوية اى الدور الاساسى الذى يلعبه كل عنصر فى المجتمع

---

(37) R. Bastide. Sociologie Interpretative et Typologie constructive in Gurvitch « Sociologic au XXe siécle » (97 bis B 1970) pp. 71 - 95 Quoted in Grawitz p. 428.

(38) Homans. Bringing men back in op. cit. p. 64.

(39) Nagel , Problems of concept and Theory Formation p. 194 , and also Nagel . Structure of Science p. 525 .

داخل الكل العامل ، هذه الادعاءات لا يمكن الحكم عليها بأنها سليمة أو مشكوك فيها أو على خطأ . ان غياب أوصاف دقيقة تساعد على التعرف على الحالات الموجودة فى نسق اجتماعى معين ، يجعل تلك الادعاءات غير قابلة للتحكم التجريبى ، خاصة وانها متلائمة مع كل حالة فى الواقع ، وكل نتيجة للبحوث التجريبية فى المجتمعات الحالية(٤٠) .

اما النقد انطقى الحاسم للوظيفية فهو القائل بأن الاتجاه الوظيفى انما يعبر عن نزعة غائية teleologioal تنزع نحو التفسير الغائى ؛ حين تفترض فروضا غير قابلة للاختبار untestable لأنها تتطلب مستويات من البحث العلمى قد لا تتوافر على الاطلاق فى ميدان علم الاجتماع . ومن هنا تعتبر النزعة الوظيفية والاتجاهات البنائية محاولات غير علمية ويائسة لتحقيق فروض غير قابلة للتحقيق . ثم ان محاولة تطبيق المنهج الوظيفى انما تمنع المقارنة وتعوق تطبيق المنهجالم قارن حيث يتعذر عقد مقارنات بين سائر النظم والانساق ، لأنها لا تفسر الا فى ضوء البناءات الاجتماعية التى هى اجزاء منها(٤١)

ويؤخذ على هذا الاتجاه انه يغفل العلاقا تالاجتماعية الواقعية أو يتتغافل عنها ، فلا يهتم الا بالعموميات أو المبادىء التى تحكم سير المجتمع والتى يمكن الوصول اليها عن طريق التجريد العقلى . وهذا معناه عدم الاهتمام بالواقع المتغير أو بعلاقات الأفراد بعضهم ببعض مما يعنى فى آخر الأمر ان ما يصفه العلماء البنائيون ليس هو الواقع وانما هو شىء متخيل ومتصور وليس له وجود خارج اذهانهم وا نما يقدمونه لقرائهم هو مجتمع من صنعهم هم ولا علاقة له بالحقيقة الواقعية(٤٢) .

---

(40) Nagel, Structure of Science p. 530 .

(٤١) د . قبارى اسماعيل :م رجع سابق ، ص ٣٧٤ .

(٤٢) د . أبو زيد : مرجع سابق ،ص ٢٤٦ .

وقد اغفل التفسير الوظيفى ، والبنائى ـ الوظيفى البحـث عن السبب او العلة • فعلى الرغم من محاولات التوفيق بين الوظيفة والسبب الا أن فكرة الوظيفة تتيح مجرد تحليل بعض المواقف وتقديم ملاحظات وقد تعنى بالمحافظة على السبب الموجود من قبل والذى تشتق منـه الوقائع الا انها لا تتجاوز ذلك المستوى الى الاسباب التى ادت الى وجود تلك الوقائع •

الا أن الانتقادات السابقة لم تمنع وجود مزايا هامة فى المدرسـة الوظيفية تمثلت فى الآتى :

١ ـ أنها ادخلت مفهوم النسق system وهو مفهوم اجتماعى فى وقت كانت فيه التحليلات الاجتماعية موجهة نحو تحليل السـلوك الفردى •

٢ ـ انها استبعدت التفكير فى الدوافع الانسانية وادخلت بطريقـة موضوعية عوامل محددة للمحافظة على الانساق الاجتماعية •

٣ ـ انها ساهمت ، عن طريق تاكيدها على النسق العضوى ، فـى الاقتراب من تحقيق فكرة رادكليف براون عن العلم الطبيعى للمجتمع •

٤ ـ انها بينت عدم جدوى الدراسات الخاصة باصل ومنشأ الانظمة origin والعمليات التى تتغير الانظمة بواسطتها •

٥ ـ انها ربطت كل الظواهر الاجتماعية الى نسق موحد للفكر •

ولا شك ان المزايا السابقة تعتبر خطوات هامة من اجل فهـم المجتمع وتفسيره •

* * *

ثالثا : الاتجاه البنيوى ونظرته الى التفسير :

يقدم لنا عالم النفس المشهور « جان بياجيه » أحد التعريفات الهامه للبنية فيذكر انهـا كتقدير اول تعتبر نسقا من التحولات transformations يحوى قوانين (فى مقابل خصاص النسق) . ويحافظ النسق على ذاته ويثريها عن طريق الدور الذى تقوم به التحولات ، وذلك دون أن نخرج هذه التحولات عن حدودها أو تستدعى أية عناصر خارجية . وباختصار نستطيع القول أن البنية تتصف بثلاث خصائص هى : الكلية أو الجملة totalité والتحول transformation والضبط الذاتى auto - réglage . (٤٣) .

والمقصود بالسمة الاولى ، وهى الكلية ، هو أن البنية لا تتالف عن عناصر خارجية تراكمية مستقلة عن « الكل » ، بل هى تتكون من عناصر داخلية خاضعة للقوانين المميزة للنسق ، من حيث هو « نسق » . ولا ترتد قوانين تركيب هذا النسق الى « ارتباطات تراكمية » ، بل هى تضفى على « الكل » من حيث هو كذلك خواص « المجموعة » باعتبارها متمايزة عن خصائص « العناصر » . وليس المهم فى « البنية » هـو العنصر أو الكل الذى يفرض نفسه على العناصر ، وانما المهم هـو « العلاقات » القائمة بين العناصر ، أى عمليات التاليف (أو التكوين) ، على اعتبار أن « الكل » ليس الا الناتج المترتب على تلك « العلاقات » أو « التاليفات » ، مع ملاحظة أن قانون هذه العلاقات ليس الا قانـون النسق نفسه .

---

(43) J. Piaget. Etudes d'épistémologie génétique . P. V. F. P. 8 Quoted in Grawitz. P. 429.

انظر أيضا جان بياجيه : البنيوية ، ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبرى ، بيروت منشورات عويدات ، ١٩٧١ ، ص ٨ .

وأما المقصود بالسمة الثانية ، الا وهى التحولات ، فهو ان « المجاميع الكلية » تنطوى على ديناميكية ذاتية ، تتألف من سلسلة من التغيرات الباطنة التى تحدث داخل « النسق » ، خاضعة فى الوقت نفسه لقوانين « البنية » الداخلية ، دون توقف على اية عوامل خارجية.

وأما المقصود بالسمة الثالثة ، وهى التنظيم الذاتى ، فهو أن فى وسع « البنيات » تنظيم نفسها بنفسها ، مما يحفظ لها وحدتها ، ويكفل لها المحافظة على بقائها ، ويحقق لها ضرباً من « الانغلاق الذاتى » . ومعنى هذا ان للبنيات قوانينها الخاصة التى لا تجعل منها مجرد « مجموعات ناتجة عن تراكمات عرضية ، أو ناجمة عن تلاقى بعض العوامل الخارجية المستقلة عنها ، بل هى « انسقة » مترابطة تنظم ذاتها ، سائرة فى ذلك على نهج مرسوم وفقاً لعمليات منتظمة ، خاضعة لقواعد معينة ، الا وهى قوانين « الكل » الخاص بهذه البنية او تلك . وعلى الرغم من ان كل « بنية » مغلقة على ذاتها ، الا أن هذا «الانغلاق» لا يمنع البنية الواحدة من ان تندرج تحت بنية أخرى أوسع ، على صورة بنية سفلية (أو تحتية) sous - structure (٤٤) .

ان بنية اى جماعة اجتماعية تعتبر قوة موجهة مكوناتها عبارة عن متغيرات معينة يرى الباحث انها صالحة لتفسير كيفية عمل الجماعة ويؤكد مفهوم بنية الافتراض القائم على وجود نموذج ممكن التحقق منه سوف يقوم الباحث بالكشف عنه . ويعنى هذا ان العلاقات المتبادلة بين المتغيرات ليست عشوائية ، ويمثل هذا افتراضا أساسيا يبطل بدونه عمل البحث العلمى . ومن هذا المنظور تكون النظرية البنيوية غير متميزة

---

(٤٤) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية أو اضواء على البنيوية ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧٦ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

عن سواها من النظريات ، وتصبح بالتالى كل التفسيرات الاجتماعيـــة تفسيرات بنيوية(٤٥) .

وقد قدم لوفيفر H. Lefebvre ثلاث تصورات رئيسية للمفهوم بنية :

الاول : ان البنية هى بناء construction ، وهى تقع فى مكانة اعلى من الظواهر ، ويستخلص منها نسقا من العلاقات المتسقة . ان البنية تعنى اذن النموذج او الشكلالصورى représentation formelle لمجموعة من العلاقات وقد بنى هذا النموذج من اجل دراسة مجموعـــة من الظواهر ، والمشكلة المحددة التى تخص هذه الظواهر .

التصور الثانى : ان البنية هى الماهية (او الجـوهر) او الشىء المفهوم intelligible . ويضم هذا التصور المشتق من النظريـــة الجشتالطية نظريات الشكل والوظيفة والبنية ، وتتساوى هذه المفاهيـم مع مفهوم الكلية .

ويقوم التصور الثالث : على اعتبار ان البنية متغير نسبى ، فهى لا تقع فى مستوى الواقع او فى مستوى تجريد مبنى . انها متغير نسبى اى توازن غير ثابت بين قوى متعارضة تؤثر عليها فى حركة مستمرة من البناء واعادة البناء ، وذلك مع وجود قوى اخرى اعلى منها تتحـــكم فيها(٤٦) .

---

(45) W. G. Runciman . What is Structuralism ? in A. Rayan (ed.) The Philosophy of Social Explanation . pp. 189 - 202, p. 191 .

(46) H. Lefebvre . Critique de la vie quotidienne (7B329) Quoted in Grawitz p. 435.

ويرى جورفيتش أن « كل بنية اجتماعية سواء كانت جزئية (بنية جماعة معينة) أو كلية (بنية مجتمع باكمله) هى توازن غير محدد précaire . يحتاج باستمرار الى اعادة تكوين بواسطة جهد متجدد ـ بين مجموعة من الأنظمة داخل ظاهرة اجتماعية لها طابع اجتماعى شامل تمثل البنية قطاعا منه . ويتأيد هذا التوازن الموجود بين الانظمة المختلفة بنماذج وعلامات ورموز وأدوار اجتماعية وقيم وافكار ، باختصار يؤيده الانتاج الثقافى الملائم لهذه البنيات »(٤٧) .

ان ابسط تعريف للبنية هو أن يقال « انها نظام ـ أو نسق ـ من المعقولية » . فليست البنية هى صورة الشىء أو هيكله أو وحدته المادية أو التخميم الكلى الذى يربط أجزاءه فحسب ، وانما هى أيضا « القانون » الذى يفسر تكوين الشىء ومعقوليته . وبعبارة اخرى يمكننا أن نقول أن البنيويين حينما يبحثون عن بنية هذا الشىء أو ذاك ، فانهم لا يتوقفون عند المعنى التجريبى الذى يضعه الواقع بين أيدينا ـ على نحو مباشر ـ ، وكان كل ما يهمهم هو الوصول الى ادراك العلاقات المادية الظاهرية التى تحقق الترابط بين « عناصر » المجموعة الواحدة ، بل انهم يهدفون الى الكشف عن « النسق العقلى » الذى يزودنا بتفسير للعمليات الجارية فى نطاق مجموعة بعينها(٤٨) .

وقد تحدث ليفى ستروس عن مفهوم البنية فى أحد الفصول الهامة من كتابه « الانثروبولوجيا البنيوية » Anthropologie structurale فقال فى هذا الصدد : « اذا كان النشاط اللاشعورى أو اللاواعى inconscient للعقل يقوم على فرض الشكل على المضمون ، واذا كانت

---

(47) G. Gurvitch. Le Concept de Structure Sociale . Cahiers Internationaux de sociologie 1955, pp. 3 - 44 . p. 43 .

(٤٨) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٣٣ .

هذه الاشكال لا تتغير بالنسبة لكل العقول سواء القديمة أو المحدثة ، البدائية أو المتحضرة ـ تماما مثل دراسة الوظيفة الرمزية كما تتبدى بطريقة واضحة فى اللغة ـ فانه يكفى ان نصل الى البيئة اللاشعورية أو اللاواعية الواقعة خلف كل نظام وكل تقليد لكى نصل الى تفسير سليم للانظمة والتقاليد او العادات الاخرى ، بشرط أن نمضى فى التحليل الى مدى بعيد »(٤٩) ٠

وسوف نحاول فيما يلى ان نتبين الاتجاه البنيوى ونظرته الى التفسير فى كل من اللغة والعلوم الاجتماعية ٠

لقد نشأت البنيوية اللغوية عندما بين العالم اللغوى فرد ينان دي سوسير (١٨٥٧ ـ ١٩١٣) ، باعتباره الأب المؤسس لهذا المنهج ، ان تاريخ الكلمة لا يفسر معناها وانما يتوقف معناها على « نسق » عام للغة ، ويرتبط هذا النسق بظروف عصره (أى يتزامن معه sybchronise)(٥٠) ٠ وقد اقام دى سوسير تفرقة أولية هامة بين « اللغة » و « الكـــــلام » على اعتبار أن اللغة ـ فى ماهيتها ـ نظام اجتماعى مستقل عن الفـــرد ، فى حين ان الكلام هو منهــا بمثابة التحقيق العينى الفردى ٠ ومعنى هذا ان اللغة تقنين اجتماعى ، أو مجموعة من القواعد code فى حين أن الكلام فعل فردى (يقوم به شخص ما فى حدثيه مع اشباهه)(٥١) ٠

وترجع أهمية اللغة الى أنها تنتمى الى تلك المجموعة الكبرى من

---

(49) C. Lévi - Strauss. Anthropologie Structurale p. 28 Quoted in S. Thion structurologic . Alethia : Le Structuralisme. No, 4 Mai 1966 pp. 219-227 , p. 220 .

(50) Grawitz op. cit. p. 433.

(٥١) د ٠ زكريا ابراهيم : المرجع السابق ، ص ٤٨ ٠

« الانظمة الرمزية « التى تتألف منها الثقافة (بالمعنى الواسع لهـــذه الكلمة) ، ومن بينها الفن ، والاساطير ، والكتابة ، وآداب المعاملات ، وغير ذلك من الطقوس أو المواصفات الاجتماعية • وليست السيميولوجيا sémiologie سوى ذلك العلم الذى يدرس حياة العلاقات فى كنف الحياة الاجتماعية • وقد امتد المبدأ الذى أقامه دى سوسير فى هذا المجال خارج نطاق الدراسات اللغوية ، فعرف طريقة الى باقى العلوم الانسانية واصبح كل علم من هذه العلوم على وعى بسيميولوجيته الخاصة • وبدلا من أن تذوب اللغة فى المجتمع فقد شرع المجتمع يتعرف على نفســـه باعتباره لغة • وهكذا راح بعض محللى المجتمع يتساءلون عن مـــدى امكانية تفسير « البنيات الاجتماعية » أو ـ على مستوى آخر ـ تفسير الأساطير بوصفها مجموعة من « الدالات » les signifiants التى لا بد من البحث لها عن « مدلولات » signifiés (٥٢) •

وليست فكرة النظام او النسق عند سوسير سوى مجرد تاكيـــــد لضرورة احلال المنهج البنيوى محل المنهج التاريخى فى دراسة الظواهر اللغوية ، خصوصا وان الدراسات التاريخية المقارنة للغات لم تؤد بالفعل الى الكشف من طبيعة اللغة بوصفها « صورة » لا جوهرا • وبهذا مهـــد دى سوسير السبيل لحلول « البنوية » محل الذرية atomisme والكلية محل الفردية فى مضمار الدراسات اللغوية عموما (٥٣) •

وقد اقام دى سوسير تفرقة هامة بين « التزامـــن » او التـــواقت synchronic من جهـــة ، وبين التطـــور او التعاقب diachronic من جهة اخرى • وعلى حين أن وجهة النظر « التزامنية » تمثل محورا افقيا تقوم فيه العلاقات بين « الاشياء المتواجدة » (أو المتواقته) على

---

(٥٢) المرجع السابق ، ص ٥٠ •

(٥٣) المرجع السابق ، ص ٥٢ •

أساس ثابت ليس للزمان فيه أى مدخل ، نجد أن وجهة النظر التعاقبية تمثل محورا رأسيا • تقوم فيه العلاقات بين الاشياء المتتابعة على إساس التغير الزمنى أو التاريخى • وقد رأى دى سوسير أن الغة ـ فى حد ذاتها ـ هى مجرد نسق أو نظام ، بل وما دامت تعمل ، أو تؤدى وظيفتها باعتبارها « بنية » ذا تطبيعة رمزية ، فلا بد من التسليم بأنها لا تنطوى ـ فى ذاتها ـ على أىبعد تاريخى • لقد قام دى سوسير بمعارضة تلك النزعة التطورية التى سادت فى القرن التاسع عشر واملت على علماء اللسان اعتبار التاريخ بمثابة المنظور الاساسى للغة ، واصطناع التعاقب كمبدأ أولى للتفسير ، مع الحرص على تجزئة اللغة الى عناصر منعزلة من اجل البحث عن قوانين التطور الخاصة بكل منها على حدة(٥٤) •

وقد انطلق تشومسكى N. Chomsky (١٩٢٨ ـ) ، عالم اللغويات البنيوى المعاصر من موقف نقدى لكل من النحو التقليدى واللغويات البنوية السابقة عليه • لقد اهتم تشومسكى بصفة خاصةبالتفسير ، ومن هذا المنطلق أبرز أوجه القصور فى موقف النحو التقليدى وفى علم اللغة وبنيوى ذلك ان كلاهما اقتصر على المرحلة الوصفية دون أن يتجاوزها •

ويرى تشومسكى أننا نغفل ملاحظة واقعة هامة تتمثل فى فقداننا القدرة على رؤية أهمية التفسير عندما تكون الظواهر مالوفة وبديهية أكثر من اللازم • ويعطى فى هذا الصدد مثالا من علم النفس : ان أحد مشااكل العلو م النفسية يكمن فى الالفة familiarity مع الظواهر التى تتناولها تلك العلوم ، والمطلوب هو محاولة فكرية لرؤية كيف ان هذه الظواهر تثير مشاكل خطيرة وتدعو الى نظريات تفسرية • فالذى يحدث هو أن المرء يميل الى النظر الى الظواهر على أنها شىء مفروغ منه

---

(٥٤) المرجع السابق ، ص ٥٣ •

باعتباره ضرورة أو شيء طبيعي . وهناك بالاضافة الى ذلك تأثير قد يكون أخطر من السابق يتمثل في كوننا نألف الظواهر الى درجة كبيرة لدرجة أننا قد نغفل عن رؤيتها أساسا (٥٥) .

وتواجه دراسة اللغة نفس المشكلة ، فالآراء البنوية والسلوكية قائمة على الاعتقاد في عدم أهمية التفسيرات ، اى الاعتقاد في أن العقل يجب أن يكون ابسط في بناءه من أى عضو آخر ، وأن أبسط الافتراضات لا بد وأن تكون صالحة لتفسير أى ظاهرة من الممكن ملاحظتها . وبالتالى تبدو اللغة كأنها بنية سلوكية أو شبكة من الارتباطات المجمعة ، وتبدو معرفة اللغة كمجرد معرفة بجواب السؤال « كيف ؟ » . ويعتقد تشومسكى أننا لكى نحقق تقدما في دراسة اللغة ، وفى القدرات الانسانية المعرفية يتحتم علينا ، منذ البداية ، اقامة ما يسمى بالمسافة النفسية Psychicdistance · بيننا وبين الوقائع العقلية » ثم نمضى لاستكشاف احتمالات اقامة نظريات تفسيرية مهما أثارت تلك النظريات من تعقيد أو تجريد . ولا بد لنا من نعترف بأن اكثر الظواهر الفة في حاجة الى تفسير . ويبدأ البحث عن النظرية التفسيرية ، بتحديد أنساق القواعد systems of rules ، وهى تلك الأنساق التى تتيح فهم وانتاج جمل جديدة في وقت مناسب ، ثم المضى لكشف المبادىء التى تحكمها (٥٦) أى أن الذات المتكلمة تملك ضربا من « النحو التوليدى grammaire génératrice يسمح لها بابتكار لغتها الخاصة (٥٧) .

---

(55) N. Chomsky, Problems of Explanation in Linguistics. in R. Borger and F. Cioffi (eds.)· Explanation in the Behavioural Sciences pp. 425 - 451 , p. 425 .

(56) Ibid. pp. 426 - 427 .

(٥٧) د . زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .

يتضح لنا ان تشومسكى يسعى الى اقتراح نظرية تفسيرية فى عالم اللغة ، وتقترح هذه النظرية تفسير الظاهرة التى تقوم على كون المتكلم للغـــة المذكورة يدرك التعبير أو القــول utterance ويؤوله ويستخدمه بطرق معينة وليس بطرق أخرى ومن الممكن ايضا التوصل الى نظريـــات تفسيرية اكثر عمقا عن طريق ما يسميه تشومسكى النحو العــام او النحــو الكلى العام Universal grammar

ان دراسة النحو الكلى الشامل هو دراسة لطبيعة القدرات العقليــة الانسانية • وتحاول الدراسة أن تكشف التنظيم الداخلى الذى يحدد ما يكون الخبرة اللغوية بالاضافة الى ما تثيره اللغة على أساس من الخبرة(٥٨)• معنى ذلك أن تشومسكى يهتم بتأصيل النحو فى أعمق أعماق « التربة » العقلية المشتركة للغة البشرية ، على اساس أن العقل عنده فطرى وأن اللغة بنحوها المنطقى ـ متأصلة فى الحياة الذهنية التى يوجههـــا العقـل (٥٩) •

وهكذا ـ على حد تعبير تشومسكى نفسه ـ نجد أن عالم اللغويـات متورط ، على مستويات عدة ، فى بناء النظريات التفسيريـة ، ويوجـد على كل مستوى تأويل نفسى واضح لعمله النظرى والوصفى • فهو يحـاول على مستوى النحو المعين او الخاص Particular grammer أن يضع خصائص معرفة اللغة ، اى ذلك النسق المعرفى الذى يتطور بطريقة غير مدركـة من جانب المتحدث ـ المستمع العادى ، ويحاول عالم اللغة ، على مستوى النحو الكلى الشامل اقامة خصائص عامة خاصة بالذكاء الانسانى • وهكذا نجد أن اللغويات تمثل مجالا تحتيا Sub - field لعلم النفس الذى يتعامل مع تلك الجوانب العقلية (٦٠) •

---

(58) Chomsky op. cit. p. 428.

(٥٩) د • زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ٧٥ •

(60) Chomsky . op. cit. p. 428.

وينتهى تشومسكى الى النتيجة التى تؤكد على كوننا نستطيع أن نطور ، من جهة ، نسقا من المبادىء العامة للنحو الكلى الشامل ، ومن جهة أخرى ، أنواعا من النحو الخاص . ويتكون النحو الخاص ويقوم بالتفسير فى اتساق مع مبادىء النحو الشامل . ويؤدى تداخل المبادىء العامة مع المبادى الخاصة الى نتائج تجريبية . وتقدم هذه المبادىء ، على مختلف مستويات العمق ، تفسيرات للوقائع المهتمة بالقدرة اللغوية linguistic competence ، وتفسيرات للوقائع المرتبطة بمعرفة اللغة (ويملكها كل متحدث طبيعى) ، وأخيرا تفسيرات لبعض الطرق التى تستخدم تلك المعرفة من خلاله سواء من جانب المتحدث أو المستمع (٦١) .

ويتضح لنا أن نظرية تشومسكى فى « النحو التوليدى » قد ارادت استخلاص النحو من المنطق واستنباط اللغة من الحياة العقلية الأصيلة ، ومادامت البنيات السطحية فى اللغة مستمدة من بنيات عميقة فان من واجب عالم اللغة البحث عن تلك البنيات العميقة التى تمثل الشروط الضرورية لتعلم اللغة ، خصوصا وأن المقدرة اللغوية نفسها فطرية تشهد بوجود كليات لغوية أولية لدى الانسان (٦٢) .

كما أحدثت البنيوية تأثيرا ضخما فى مجال الغويات فانها قد اثرت ايضا على مفاهيم وتصورات العلوم الاجتماعية خاصة علم الاجتماع والانثروبولوجيا . لقد واجه الانثروبولوجيون ، ومن بينهم ليفى ستروس ، مجموعة من اسئلة تعبر عن المشاكل الأساسية فى هذا المجال ، وهى :

أولا : كيف يمكن للسلوك الاجتماعى الخاص بأى جماعة بشرية أن يقوم بالوصف بدقة وذكاء وبطريقة ذات معنى ؟

---

(61) Ibid. p. 449.

(٦٢) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

ثانيا : كيف يتسنى تفسير وقبول تلك الظواهر الاجتماعية ؟

ثالثا : وهو اكثر الاسئلة أهمية : كيف ترتبط المجموعات المختلفة من الظواهر الاجتماعية الموجودة داخل جماعة واحدة ـ بأساطيرها ، ونسق القرابة فيها ، وانماط زواجها ... الخ ـ كيف ترتبط ببعضها البعض وكيف يرتبط كل واحد منها بالجماعة ككل ؟

رابعا : ما هى العلاقات المتبادلة بين الجماعات الاجتماعية ككل سواء كانت هذه الجماعات قبائل بدائية او دولا قطاعية أو مجتمعات صناعية متقدمة ؟ وما الذى تملكه تلك الجماعات بحيث يكون أساسا للمقارنات ذات المعنى ؟

لقد تصدت العلوم الاجتماعية وبالذات علم الاجتمتاع والانثروبولوجيا لهذه الأسئلة بغية الاهتداء الى أجوبة لها . وقد رأى البنيويون أن اتجاههم يمثل المنهج الملائم للتعامل مع هذه الاسئلة وتنظيم المادة الخام للوقائع الملاحظة من أجل الاجابة عليها(٦٣) .

ان البنيوية فى واقع الأمر عبارة عن منهج يضم كل الظواهر الاجتماعية الانسانية مهما كان شكلها ، وبهذا تضم بالاضافة الى المواقف الاجتماعية الخالصة (الانثروبولوجيا ، وعلم الاجتماع ، وعلم السياسة ، وعلم الاقتصاد ، وعلم النفس) ، الانسانيات (الادب والتاريخ واللغويات) وكذلك الفنون الجميلة . وترجع امكانية هذا الى أن كل صور النشاط الاجتماعى ، سواء كانت الملابس التى ترتدى ، أم الكتب التى تكتب ، أم أنساق القرابة والزواج التى تمارس فى أى مجتمع ، تكون ما يسمى باللغات بالمعنى الشكلى . وبالتالى يمكن رد اطرادات هذه الصور الى نفس مجموعة القواعد المجردة التى تحدد وتحكم ما يسمى فى العادة

(63) M. Lane (ed.) Introduction to Stucturalism . New York : Basic Books , Inc . Publishers 1970. Introduction p. 12.

باسم اللغة . وفى محاولة التقليل من الخلط بين المصطلحات استخدم البنيويون كلمة رمز Code لتغطية كل الأنماط الخاصة بالاتصال والمستخدمة اجتماعيا . وتملك تلك الرموز الاجتماعية ، مثل اللغات ، قواعد . فاذا اخذنا كمثال رمز القرابة kindship والزواج فاننا نرى ان كل اعضاء المجتمع المرتبطين بعلاقة قرابة مع الأعضاء الآخرين يكونون معجما ، اى تجميع لكافة التعبيرات الممكنة . وهذا ما نراه بالفعل فى معالجة ليفى ستروس لهذا الموضوع فى كتابه « البنيات الأولية للقرابة » Les structures élémentaires de la parenté

ولم يكن ليفى ستروس (١٩٠٨ -) أول من تحدث عن البنيوية فقد سبقه فى ذلك علماء اللغة ، كما انه لم يكن الوحيد الذى تحدث عنها فى العلوم الاجتماعية فيوجد التوسير Althuser وليتش Leach وغيرهم ، الا ان اعماله احدثت تأثيرا كبيرا فى الفكر المعاصر وفى العلوم الاجتماعية والانسانية بشكل خاص مما اعطى له مكانة خاصة ، متميزة .

لقد اهتم ليفى ستروس بالعلاقات بين الظواهر اكثر من اهتمامه بطبيعة الظواهر ذاتها ، كما اهتم بالأنساق التى تدخل فيها هذه العلاقات . لقد راى امكانية علم عام للانساق على اسس بنيوية لا بد وان تضمن عمليات اجتماعية واعية أو شعورية ولا واعية او لا شعورية . وقد طور آراءه بالنسبة لتناول اهم مظاهر الثقافة مثل اللغة ، والقرابة ، والنظام الاجتماعى ، والسحر ، والدين ، والفن . وذلك بهدف التوصل الى استبصار داخل الثقافة والى وعى جديد للمجتمع .

وترجع اصالة ليفى ستروس الى تاكيده على الشكل forme وعلى اولوية العلاقات على الكيانات ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى يتميز ليفى ستروس ببحثه المستمر عن العلاقات بين الظواهر على مستوى مجرد للغاية . الا انه ، فى نفس الوقت ، لا يغفل الواقع

مما يجعله يبدأ تعميماته دائما من الملاحظات التجريبية ويرجع دائما اليهـا .

والحق ان ليفى ستروس لا يريد النظر الى « الظواهر » على أنهـا موضوعات منعزلة ، لا بد من تفسير كل ظاهرة منها على حدة بالاستناد الى تاريخها الجزئى الخاص ، بل هو يريد مقابلة (أو معارضة) تلك الظواهر بعضها البعض ، من أجل البحث عن أوجه التباين وأوجـه التشابه (القائمة فى الظواهر نفسها) ، واقامة ضرب من الحوار بينهـا ، بحيث تنبثق من خلال هذه المحاورة أو المواجهة الرسالة الحقيقية المشتركة التى تحملها تلك الظواهر ، بوصفها « الدلالة » العلمية الكفيلة وجدهـا بتفسير تلك الكثرة المعقدة من الظواهر . ومعنى هذا أن المهمـــة الاساسية التى تقع على عاتق الباحث فى العلوم الانسانية انما هـــى التصدى لأكثر الظواهر البشرية تعقيدا ، وتعسفا واضطرابا (أو عدم اتساق)من اجل محاولة الكشف عن نظام يكمن فيما وراء تلك«الفوضى»، وبالتالى من اجل الوصول الى « البنية » التى تتحكم فى صميم العلاقات الباطنية للاشياء . ولكن المهمة ـ فى نظر ليفى شتراوس ـ هو اننا لا ندرك البنية ادراكا تجريبيا على مستوى العلاقات الظاهرية السطحية ، المباشرة، القائمة بين الاشياء ، بل نحن ننشؤها انشاء بفضل النماذج modéles التى نعمد عن طريقها الى تبسيط الواقع ، واحداث التغيرات التى تسمح لنا بادراك البنية(٦٤) .

لقد اعتبر ليفى ستروس العلاقات الاجتماعية مادة خام تستخدم لبناء النماذج ، وهذه النماذج تقد ملنا البنية الاجتماعية . ومن هنـــا لا يمكن اطلاقا رد البنية الاجتماعية الى مجموع العلاقات الاجتماعيـــة الملاحظة فى مجتمع معين . ان البنية الاجتماعية لا تدعى انه تملك مجالا خاصا بها وانما هى بالاخرى تقدم منهجا قابلا للتطبيق على مختلـــف

---

(٦٤) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٣٦ .

المشاكل الاجتماعية وعلى مختلف التحليلات البنيوية المستخدمة فى مختلف المجالات ·

ينحصر موضوع البنية اذن فى معرفة النماذج التى تعتبر موضوع التحليلات البنيوية ، ولا ينتمى هذا الموضوع ـ فى نظر ليفى ستروس ـ الى الاثنولوجيا (٦٥) أو الانثروبولوجيا وانما الى نظرية المعرفة أو منهج العلم epistermologie ولا بد للنماذج لكى تكون جديرة ان يطلق عليها التعبير « بنية » أن تتصف بأربعة سمات :

أولا : لا بد ان تؤلف نسقا من العناصر بحيث يؤدى كل تغير فى احدها الى تغير فى العناصر الاخرى ·

ثانيا : لا بد ان ينتمى النموذج الى مجموعة تحولات ، وينتمى كل تحول بدوره الى نموذج معين بحيث تكون مجموعة التحولات مجموعة من النماذج ·

ثالثا : لا بد وان يكون النموذج قادرا على التنبؤ بالتغيرات التى يمكن أن تحدث فيه فى حالة تغير أحد عناصره ·

رابعا : لا بد أن ينبنى النموذج بطريقة تجعل كل الوقائع قابلة للملاحظة(٦٦) ·

وقد رأى ليفى ستروس ان النماذج اما ان تكون واعية أى شعورية أو لا واعية أى غير شعورية ، وذلك حسب المستوى الذى تتعمل فيه ·

---

(٦٥) وتسمى احيانا « علم دراسة الشعوب » ، أو « علم الاعراق البشرية » وتسمى انثروبولوجيا فى التراث الانجلو ساكسونى ·

(66) Claude Lévi - Strauss . Anthropologie Structurale . Paris Librairie plon, 1958. p. 306.

وتوحى البنية المختفية فى اللاشعور الى وجود نموذج يخفيها عن الوعى او الشعور الجمعى conscience collective وتعتبر النماذج الواعيـة او الشعورية ـ التى تسمى بالمعايير nromes ـ افقر انــواع النماذج بالنسبة للوظيفة التى تؤديها ، ذلك انها لا تقوم بتفسير الظواهر وانما تحافظ عليها فقط وتجعلها مستمرة ويواجه التحليل البنيـــوى هنا مشكلة هامة هى ان البنية الظاهرة واضحة ، بينما من الصعب الوصول الى البنية العميقة بسبب النماذج الواعية المشوهة التى تقف كعائق بين الملاحظ وموضوع ملاحظته(٦٧) .

وقد تكون تلك النماذج ميكانيكية او احصائية . الاولى : تشير الى نماذج تقع عناصرها على نفس مستوى الظواهر مثل قوانين الزواج فى مجتمع بدائى حيث العناصر المكونة هى عبارة عن البشر انفسهم الموجودين فى قبائل او طبقات . بينما النموذج الاحصائى هو النموذج الذى توجد فيه العناصر على مستوى مختلف ومستوى ظواهر مثل قوانين الزواج فى مجتمع متحضر وحديث(٦٨) .

حقيقة ان رادكليف براون هو الذى ادخل مفهوم « البنية » فى مجال الانثروبولوجيا ، الا انه نظر اليها على انها « نظام من الوقائع » اى شىء معطى لوصف مجتمع معين . بينما تكمن اصالة ليفى ستروس فى انــه نظر الى البنية ليس باعتبارها مجرد ظاهرة ناتجة عن تجمع البشر وانما باعتبارها نسقا يحكمه اتساق داخلى ويتكشف هــذا الاتساق ـ الذى يفلت من الملاحظ العادى للنسق المعزول ـ فى دراسة التحولات . ويمكن عن طريق هذه الدراسة اعادة كشف عناصر اخرى شبيهة فى انساق تبــــدو ظاهريا مختلفة . وكل الانساق ـ مثل نماذج القرابة او مجموعـــــة الاساطير ..... ـ تقبل مثل اللغة الترجمة الى انساق اخرى . لقد راى

---

(67) Ibid. p. 308.

(68) S. Thion. Structurologie, p. 222.

رادكليف براون ان البنية ليست الا الطريقة المستمرة التى يملكها كل من الافراد والجماعات فى اثناء تكوينهم لذواتهم وفى تجميع انفسهم داخل المجتمع : ومن هنا فقد اعتبر كل بنية مستقلة بذاتها ولا تترجم الى غيرها . بينما راى ليفى ستروس ان البنية هى النسق ، والنسق تحكمه قواعد ورموز تتيح الترجمة الى نسق آخر . كما راى ليفى ستروس ، على عكس مالينوفسفى وراد كليف براون ، ان المقولات catégories اللاواعية أو اللاشعورية ابعد ما تكون عن كونها لا عقلية او وظيفية ذات عقلانية متعالية . وبينما راى الانثروبولوجيون الانجلوساكسونيون ان اللغة هى فرع من الانثروبولوجيا فقد دعى ليفى ستروس الى اعتبار الانثروبولوجيا فرعا من اللغويات اى جزءا من علم عام مستقبلى عن العلاقات(٦٩) .

ان اللغة ، على الرغم من كونها موضوعا لعلم معين ، مثل العلوم الاخرى ، الا انها تصبغ العلوم جميعا بصبغتها . فالعلوم الاجتماعية لا توجد بدونها ، ولا نستطيع أن نضع الوقائع اللغوية على نفس مستوى الوقائع الاقتصادية او القانونية ، فالاولى ممكنة الوجود فى غياب الثانية بينما لا توجد الثانية فى غياب الاولى(٧٠) .

ان اللغويات هى العلم الانسانى الوحيد الذى من الممكن ان يوضع على نفس المستوى مع العلوم الطبيعية . وذلك لأسباب ثلاث :

١ ـ انها تملك موضوعا عاما هو اللغة التى لا تخلو منها اى جماعة انسانية .

---

(69) O. Paz. Claude Lévi-Strauss . An Introduction. Translated by J. S. Benstein and M. Benstein London : Cornell University Press, 1970, p. 10.

(70) C. Lévi-strauss. Critéres scientifiques dans les disiplines socilaes et humaines. Aleteia op. cit. p. 197.

٢ ـ ان منهجها متجانس لا يتغير مهما كانت اللغة التى ينطبق عليها ـ حديثة أو قديمة ، بدائية او متحضرة .

٣ ـ ان منهج اللغة يقوم على مبادىء رئيسية يتفق المتخصصون حول صدقها .

لا يوجد اذن ـ فى راى ليفى ستروس ـ اى علم اجتماعى او انسانى آخر تتوافر فيه هذه الشروط . أن موضوع علم الاقتصاد ليس عاما وانما يرتبط بقطاع صغير من التطور الانسانى ؛ والمنهج الديموجرافى (الخاص بعلم السكان demographie) ليس متجانسا ، كما أن الاثنولوجيين أبعد ما يكونوا على الاتفاق حول المبادىء التى تعتبر عند علماء اللغويات شيئا مفروغا منه(٧١) .

ولما كان راى ليفى ستروس ان اللغة قد وصلت الى مستوى شبيه بمستوى العلوم الطبيعية ، فقد استقى من اللغويات الحديثة الاساس الذى اقام عليه منهجه فى التحليل . ولا يعنى هذا ان ليفى شتراوس من اتباع الاتجاه الوضعى وانما يشير هذا فقط الى سعيه ، اثناء قيامه بفهم وتفسير الوقائع ، الى الدقة التامة والى مستوى مقبول من التعميم .

لقد ميز ليفى ستروس بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والانسانية . ووجد أن هناك اختلافات بينهما . فالمجموعة الاولى اهتمت ـ على عكس الثانية ـ بموضوعات لا يهتم بها غالبية الافراد فى المجتمع. لذا تابع العلماء الطبيعيون بحوثهم فى عزلة وجاء اهتمامهم منحصراً فى الأشياء التى ظنوا أن باستطاعتهم تفسيرها ، وذلك بدلا من أن يفسروا أشياء تهم الآخرين . ثانيا ، راى ليفى ستروس ان كل بحث علمى يصارد منذ البداية بثنائية بين الملاحظ وموضوعه . ويلعب الانسان فى مجال

(71) Ibid. p. 201.

العلوم الطبيعية دور الملاحظ والعالم هو موضوعه . والعالم الذى تجرى فيه الثنائية محدود كما كشف عن ذلك علمى الفيزياء والبيولوجيا المعاصرين الا انه فى نفس الوقت متسع لدرجة أن باستطاعة العلوم الدقيقة والطبيعية أن تمتد بحرية فيه . فاذا كانت العلوم الاجتماعية والانسانية علوما حقا فلا بد لها أن تحافظ على هذه الثنائية ، وعليها فقط ان تحركها حتى نصل بها الى داخل الانسان (اى بين الانسان الملاحظ والانسان او البشر الذين يخضعون للملاحظة) . واذا كانت العلوم الاجتماعية والانسانية ستاخذ العلوم الطبيعية كنموذج لها فانه يجب عليها الا تكتفى باجراء التجارب على البشر (وهو شىء مقبول نظريا ، فى رأى ليفى ستروس ، وسهل التطبيق ومقبول خلقيا) ، وانما لا بد أيضا أن يكون هؤلاء البشر غير واعيين باننا نجرى عليهم التجارب ، والا فان وعيهم هذا سوف يغير سير التجربة . وهكذا يبدو الوعى او الشعور كعدو خفى لعلوم الانسان سواء كان هذا الوعى على شكل تلقائى متعال على موضوع الملاحظة او وعى منعكس – وعى الوعى – لدى العالم او الباحث .

ولا تخلو العلوم الانسانية من الطرق التى تجعلها تتغلب على تلك المشكلة والحل يوجد فى الاتجاه البنيوى . فآلاف الانساق الفونولوجية والنحوية التى توجد امام عالم اللغة ، وتعدد البنيات الاجتماعية الممتدة فى الزمان والمكان والتى تغذى حب الاستطلاع المؤرخ والاثنولوجى ، هذه الأنساق والبنيات تمثل « خبرات » جاهزة لها طابع غير معكوس irreversible يضعف الفكرة التى نادى بها الوضعيون وهى أن هذه العلوم لا تهدف تماما الى التنبؤ بل الى التفسير . وفى الواقع اذا اخذنا التفسير بشكل اكثر دقة فاننا نجد انه يتضمن نوعا من التنبؤ . ولا توجد حتى فى العلوم الدقيقة والطبيعية ذاتها رابطة آلية بين التفسير والتنبؤ : فأحيانا يفسر العلم ظواهر لا يتنبىء بها ، مثل النظرية

الداروينية ، وأحيانا يقوم العلم بالتنبؤ بظواهر يعجز عن تفسيرها ،مثل علم الارصاد الجوية métérologie (٧٢) .

ويبدو أن وظيفة العلوم الاجتماعية والانسانية تقع فى منتصف الطريق بين التفسير والتنبؤ ، كما لو كانت عاجزة عن الاتجاه بتصميم نحو أحدهما . ولا يعنى هذا - فى رأى ليفى شتراوس - أن هذه العلوم تخلو من الفائدة نظريا أو عمليا وانما يعنى فقط أن فائدتها نقاس فى ضوء العمليتين - التفسير والتنبؤ . ولأن هذه العلوم تأخذ من العمليتين فلها وضع خاص وفريد تتلخص فيه مهمة العلوم الانسانية : ان هذه العلوم لا تفسر أبدا - أو نادرا ما تفعل - الى النهاية ، كما انها لا تقوم بالتنبؤ بدرجة عالية من التأكد (٧٣) .

ان الصعوبة فى العلوم الاجتماعية والانسانية - على حد تعبير ليفى ستروس - تأتى من أن مختلف أنساق تلك العلوم لا تقع على نفس المستوى من الناحية المنطقية ، كما أن المستويات التى ترتبط بها متعددة ومعقدة وكثيرا ما تكون تعريفاتها غير دقيقة . وتتخذ بعض هذه العلوم موضوعات دراسة هى عبارة عن وجودات تجريبية تمتاز بكونها من العوميات ومن الكليات desrealia et des tota : مثلا المجتمعات التى تمتاز بكونها واقعية ومحددة فى مكان وزمان معين وفى نفس الوقت تخضع للدراسة فى كليتها dans sa globalité . وكمثال على ذلك الاثنولوجيا (الانثروبولوجيا) والتاريخ . وترتبط علوم أخرى بوجودات لا تقل واقعية الا أنها تهتم بجزء منها أو بمظهر معين ، مثلا اللغويات تدرس اللغات ، والقانون يدرس الاشكال القانونية ، وعلم الاقتصاد يهتم

---

(72) C. Lévi - strauss. Critéres scientifiques. op. cit. pp. 194 - 195.

(73) Ibid. p. 196 .

بأنساق الانتاج والتبادل ، وعلم السياسة يدرس الأنظمة ذات الشكل المحدد (٧٤) .

ويرفض ليفى ستروس التمييز بين العلوم الاجتماعيه والعلوم الانسانية بحجة أن الاولى تدرس الظواهر التى تنشأ فى الجماعة والثانية تتناول الأعمال التى ينتجها الافراد . فهذا غير صحيح كما يتضح فى احوال كثيرة ، فكل ما هو انسانى هو فى واقع الأمر اجتماعى . وحينما نقول عن علم معين انه علم اجتماعى فان هذا القول يتضمن أنه يهتم بالانسان (٧٥) .

واذا كنا قد رأينا كيف فسر دوركايم الظواهر بالرجوع الى الوعى الجمعى فانه ، قد اغفل ولا شك تفسير هذا الوعى الجمعى ذاته ، والطريقة التى يساهم بها الوعى الفردى فى تكوينه ، كما اغفل تفسير الصور التى تمثله أى بنيات الفكر الجمعى التى تكونه . ويؤثر هذا النقص على تفسيرات المجتمعليس فقط حاليا وانما ايضا تاريخيا حيث انه يغفل كيف قام المجتمع بتكوين ذاته فى الماضى . وقد حاول ليفى ستروس سد هذا النقص فى التفسير عن طريق رد الاجتماعى الى الفردى مستخدما طريقة خاصة وهى المصادرة « بالحالة الطبيعية » Natural state الموجودة قبل ظهور الحالة الاجتماعية بالمعنى التاريخى . فمن الممكن الوصول الى الشىء الاجتماعى السابق على الواقعة اذا أمكن التوصل الى الواقعية الاجتماعية « الطبيعية » باعتبارها عامة فى كل المجتمعات، ويحدد ليفى ستروس هذه الواقعة بأنها ولا بد أن تكون متعسفة arbitrary وفى نفس الوقت تتصف بالعلامة المميزة للطبيعة وهى أنها ضرورية . وتتبلور المشكلة فى كيفية اشتقاق الثقافة من الطبيعة . ان الطبيعة ـ فى نظر ليفى ستروس ـ مشتركة لدى الناس جميعا وجزء من تراثهم ،

---

(74) Ibid. p p. 196 - 197.

(75) Ibid. p. 204 .

وهذا ما يمارسها لبشر فيا ستقلال عن تأثير المجتمع والتقاليد . بينمـــا الثقـــافة هى القطب المقـــابل . فهى كل ما هـــو ليس بمشـــترك ، وكـــل ما يحتـــاج الى تعـــلم ، وكـــل ما هـــو معتمـــد على الحيـــاة الاجتماعيـــة وعلى معـــاييرها الجمعيـــة . ان الشىء الثقـــافى هـــو المحتمل والمتعسف The contingent and arbitrary والشىء الطبيعى هو « الضرورى والمطلق The necessary and absolute . وبالتالى تكون عملية تناول الطعام (الاكل) طبيعية لأن البشر يفعلونها بناء على الغريزة ، بينما آداب المائدة أو طريقة تناول الطعام ذاتها مختلفة من مجتمع الى آخر ، وبالتالى فهى ثقافية . لقد اراد ليفى ستروس ان يصل الى الواقعة التى تعتبر اجتماعية وطبيعية فى وقت واحد . لذا لجأ الى النشاط السلوكى والى الجنس بصفة خاصة ، فقد رأىانـــه طبيعى وغريزى وفى نفس الوقت اجتماعى لأنه يحتاج الى شخصين(٧٦) . ومن هنا كانت تحليلاته للزواج ونسق القرابة .

وتعتبر أهم خاصية فى المنهج البنيوى محاولة دراسة الشبكة المعقدة من العلاقات التى تربط وتجمع عناصر الكل ، وليس دراسة هذه العناصر ذاتها . وقد بين ليفى ستروس فى كتبه الثلاث عن الأساطير تحت عنوان Mythologique ، بين أننا لسنا بصدد تفسير تقليدى لسلسلة من الاساطير أو حتى من الاحداث او الشخصيات التى تحدث فيها ، وانمـــا نحن بصدد بيان للعلاقات بين الاساطير وبعضها ، والعلاقات بـــين الأحداث والكليات .

وتبحث البنيوية عن بنيتها تحت أو خلف الواقع التجريبى وليس على السطح أو على مستوى الشىء الملاحظ . لقد بين ليفى ستروس فى افتتـــاحية كتـــابه « الفـــج والمطهـــى » Le Cru et le cuit

(76) C. R. Badcock. Lévi - strauss. Structuralism and Sociological Theory. New York, Holmes and Meir Publishers 1976 p,34.

ان علينا الانستبعد أن البشر الذين انتجوا بانفسهم هذه الاساطير وعايشوها من الممكن ان يكونوا متنبهين لبنيتها وطريقة عملها، الا أنه ذا يعتبر شيئا غير عادى ولايحدث الا بشكل عارض للغاية(٧٧) ان البشر الذين يقومون باستخدام اللغة يطبقون القوانين الفونولوجية والنحوية على كلامهم الا أنهم غير واعين بهذه القوانين ، ولا يستطيعون أن يذكروها اذا طلب منهم ذلك . ويصدق نفس الشىء على النشاط الاجتماعى .

لا سبيل الى فهم الاساطير اذن الا باعتبارها « لغة » أو لغات رمزية تمثل نظاما متسقا من التقابلات . والفكرة الاساسية التى يصدر عنها ليفى شتراوس هى أن العقل البشرى واحد ، وان التفكير الاسطورى ليس تفكيرا سابقا على المنطق prélogique بل هو تفكير منطقى على مستوى المحسوس ، بمعنى أنه تفكير تصنيفى يستعين بمجموعة من المقولات التجريبية (فج ومطهى ، طازج وفاسد ، مبلل ومحروق ... الخ) . وليست هذه المقولات التجريبية سوى أدوات تصورية ناجحة تصلح لاستخلاص بعض المعانى المجردة والربط بينها وبين بعض على شكل سلسلة من القضايا . والواقع أن مضمون الاسطورة لا يمثل العنصر الا هم من عناصرها ، بل ربما كان أفدح خطأ يمكن أن يرتكبه الباحث هو أن يعمد الى تفسير كل رمز على حده . والحق أن الرمز ليس مستقلا أو قائما بذاته بالمقياس الى السياق الذى يرد فيه ، وانما لا بد من الاقرار بأن دلالة أى رمز هى فى صميمها دلالة « موضعية » تتحدد بالسياق الذى يرد فيه وينسب ليفى ستروس الى الاساطير ضربا من الموضوعية ، ويقول ان لها « بنيتها » أو « بنياتها » الخاصة (٧٨) .

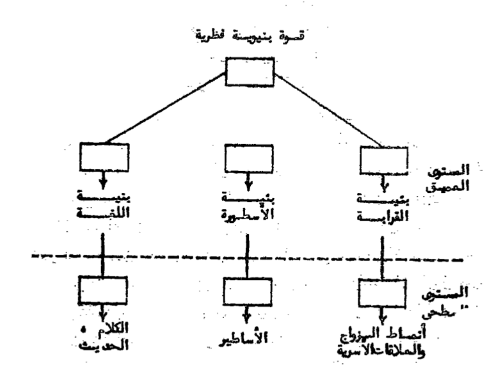
ولا يمكن رؤية البنية ذاتها فهى تشتق فقط مما هو مرئى ، فتوجد

---

(77) C.. Lévi - Strauss. Le cru et le cuit. Paris. Librairie Plon 1964 , p. 15.

(٧٨) د . زكريا ابراهيم :مشكلة البنية ، ص ٨٨ .

البنية العميقة فى مقابل البنية السطحية ـ وهو ما نراه بالفعل أو نسمعه ، ويبدو ان هناك موافقة عامة بين بعض البنيويين ، خاصة ليفى ستروس فى الانثروبولوجيا وجاكوبسون فى اللغويات وبياجيه فى علم النفس ، على انه يوجد فى داخل الانسان آلية محددة وفطرية تنتقل ارتقائيـــا وتمثل قوة بنيوية Structuring force • ويمثل الرسم التـــالى تصور البنية عند ليفى ستروس وزملاؤه(٧٩) •



---

(79) Lane, Introduction to structuralism p. 15

ونرى من هذا النموذج الاسباب التى دعت البنيويين الى التأكيد على عدم تقسيم كافة الظواهر الاجتماعية فى مجتمع معين . فاذا كانت الظواهر تتبع هذا النموذج فاننا ننتظر أن نرى تماثلات وتوافقات فى البنية بين جوانب المجتمع . وقد اقترح ليفى ستروس أن تقوم المجتمعات بتطوير وسائل بنيوية لحل الصراعات والاختلافات والتضاربات التى تنشأ بين العناصر المختلفة فى البنية السطحية اثناء مرورها بالبنية العميقة عن طريق البنيات التى أسماها ليفى شتراوس البنيات الوسيطة mediating (٨٠) .

ويهتم التحليل البنيوى أساسا بالبنيات المتزامنة فى مقابل البنيات المتعاقبة ويركز اهتمامه على العلاقات الموجودة فى لحظة معينة فى الزمان وليس عبر الزمان . وتعتبر البنية السانكرونية محددة بواسطة العلاقات البنيوية الموجودة حاليا وليس بواسطة أى عملية تاريخية .

وكنتيجة لهذا الاهتمام يعتبر الاتجاه البنيوى لا سببى anti-causal فلغة التحليل البنيوى فى شكلها الخالص لا تستعين بمفاهيم السبب والنتيجة أو العلة والمعلول : انها ترفض هذا التصور للعالم مفضلة عليه « قوانين التحولات » . وتعنى هذه القوانين الاطرادات التى تشبه القوانين law-like regularities التى لايمكن ملاحظتها ، أو اشتقاقها من الملاحظة ، وعن طريقها يتحول الشكل البنيوى الى شكل آخر .

أن ما يقدمه البنيويون هو ما يلى : اذا قارنا نمطين من العلاقات اجتماعية (قد تكون أساطير أو علاقات قرابة أو نماذج من السلطة ..) منفصلين فى الزمان والمكان ، مجتمع واحد فى موضعين مختلفين من التاريخ أو مجتمعين فى نفس الموضع من التاريخ ، فاننا نلاحظ اختلافات فى الصورة البنيوية أى فى نظام وطبيعة أشكال العلاقات . فاذا فسرنا

---

(80) Ibid . p. 16 .

الموقف بطريقة تقليدية فاننا نقول أن هناك عامل أو عوامـــل مببـت اختلاف بين العلاقات اما الاتجاه البنيوى فهو يؤكد على تحول البنيـــة الى بنية اخرى ، واذا استمرت الملاحظات فاننا نستطيع القول بأن البنيـة المحددة تتحول دائما بطريقة معينة فينتج عن ذلك قوانين التحول وهـى ليست القوانين السببية أو العلية(٨١) ٠

رابعا : نظرية نقدية الى الاتجاه البنيوى :

لا شك ان النقد الأول الذى يوجه الى الاتجاه البنيوى هو صعوبة اللغة ٠ التى يعبر بها البنيويون عن آرائهم ٠ كما انهم لم يصوغوا المبادىء الاساسية للاتجاه البنيوى بطريقة واضحة فجاءت تعبيراتهم جزئية ومحتوية على كثير من المعانى الضمنية ٠

وقد قدمت البنيوية فى الواقع افتراضات نظرية كثيرة تعتبر هامة الا انها لا تخضع للاختبار ٠ هذه الافتراضات هى كالتالى :

١ ــ ان كل انماط السلوك الاجتماعى هى عبارة عن رموز او قواعد codes لها نفس خصائص اللغات ٠

٢ ــ ان الانسان يملك قدرة بنيوية نظرية تجعله يدرك الحدود التى تتكون بداخلها بنية كل انماط الظواهر الاجتماعية ٠

٣ ــ ان العلاقات قابلة لأن ترد الى تقابلات ثنائية binary (وعلى الرغم من انه فى الامكان منطقيا تقسيم العالم الى مجموعـات موجبة ومجموعات سالبة الا أن هـــذا النوع من التقـــابل تافـــه ومجدب)(٨٢) ٠

---

(81) Ibid. p. 17 .

(82) Lane op. cit. p. 18.

ان ليفى ستروس عندما حاول التقريب بين الفكر الاسطورى والفكر العلمى لم يلجأ الى التحقيق العلمى الصرف ٠ لقد أراد ليفى شتراوس تحويل منهجه الى نظرية كاملة فتحولت تلك النظرية الى أيديولوجيـــا دون اعتراف من جانبه بذلك ودون التعرف على آثار تلك النتيجة ٠

ان ليفى ستروس على الرغم من انه قد حدد ـ شأنه فى ذلك شأن ماركس ، وفرويد وغيرهما ـ موقفه العلمى بمعارضته للفلسفة ، وثورته على كل تفكير فلسفى ، الا اننا نلمح لديه مواقف « ميتا ـ علمية » توقعه من جديد فى حبال الايديولوجيا ٠ صحيح انه قد كسب بعض النقاط فى معركته الضارية مع الفلسفة ، ولكن من المؤكد ان الكثير مما اعتبره هو « تصورات علمية » ، تم التثبت من صحتها ، قد بقى حتى النهاية ـ مجرد نظريات فلسفية تفتقر الى التحقيق العلمى الدقيق ، وبالتالى مجرد « افتراضات ميتافزيقية » لا اكثر ولا اقل(٨٣) ٠

لقد رفض البعض اعتبار نظـرية ليفى شتراوس نظـرية متميزة او منهجه منهجا اصـيلا ، اعتبروا كل ما يميزه هو تقديمه للنمـاذج وتطبيقها على السلوك الاجتماعى ، سـواء على المجتمعات ككل او على مظاهر من المجتمع كالعادات والمعتقدات(٨٤) ٠

اما الهجـوم العنيف على الاتجاه البنيوى فهو الذى انصب على اهمال هـذا الاتجاه للتاريخ ٠ ان وضع التاريخ كبعد متساو مع اى بعد آخر فى الدراسة سلب التاريخ اهم خصائصه وهى الحركة عبر الزمان ٠

ان المرء قد يتفق مع ليفى ستروس على ضرورة التسليم بانفصـــال الزمان وتقطعه وتنوعه وعدم تجانسه ، وقد نقبل فكرة التقدم المستمر

---

(٨٣) د٠ زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ١٠٥ ٠

(84) Runciman op. cit. p. 202.

السائر دائما فى خط مستقيم وحيد الاتجاه ، ولكنه لن يستطيع الأخذ بوجهة نظر لا زمانية ، تضع التاريخ بين قوسين ، ونقرر أن التزامن (السانكرونى) تعبير عن تعاقب (دياكرونى) ثابت . والدافع أن ليفى ستروس عندما يقول عن التاريخ أنه مجرد أسطورة حديثة يكفى لتفسيرها تفسيرا عميقا ، ان نرتد الى مجموعة من البنيات ، وضروب عديدة من التوافق والتناظر ... الخ ، فانه - فى الحقيقة - انما يستبعد المشـكلة الأصلية ولكنه لا يحلها(٨٥) .

لقد اسـتخدم البنيويون النماذج modéles البنيوية للانسـان والمجتمع كوسائل للكشف والمساعدة على الفهم ، الا أن المجتمع ليس على الصورة التى قدمها البنيويون ذلك أنهم اغفلوا الواقع وذهبوا الى ما وراء السـطح الظاهر ، ونادوا بالكشف عن البنيات اللا واعيـة والعميقة . وفى الواقع أن محاولة البنيوية الكشف عن البنيات العميقة ومحاولة ليفى ستروس اقامة نموذج أو بنية وسيطة تحل كافة الاختلافات والصراعات هو تصور ذهنى بعيد عن الواقع .

والتساؤل هو كيف تكون البنية متطابقة مع الواقع وفى الوقت نفسه صادرة عن الذهن أو العقل البشرى الذى يصفه ليفى ستروس بأنه يظل باستمرار متطابقا مع نفسه ، مساويا لذاته ؟ انه ليفى ستروس على خلاف دوركايم يرفض اعطاء الصدارة للعامل الاجتماعى على العامل العقلى لأنه يبين أن النشـاط الذهنى لدى الانسان ليس مجرد انعكاس للتنظيم الواقعى للمجتمع ، ولكنه حين يرد البنيات الى هـذا النشاط الذهنى ، فقد يكون من حقنا أن نتساءل : ماذا عس أن يكون نمط الوجود الذى يمتلكه الذهن أو العقل ، خصوصا وان ليفى سترتوس يقول انه ليس اجتماعيا ولا نفسيا ولا عضويا ؟(٨٦)

---

(٨٥) د. زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ١٠٤ .

(٨٦) المرجع السابق ، ص ٩٦ .

وقد تعرضت قوانين التحول لدى البنيوية للنقد ۰ فقد رفضت البنيوية القوانين السببية ودعت الى قوانين التحول ۰ والواقع أن التفسير يحتاج الى ذكر الأسباب او العلل فاذا استبعدت فمعنى ذلك ـ فى راى بعض النقاد ـ استبعاد لامكانية التوصل الى تفسيرات سليمة وصالحة(٨٧) ۰

الا أن الانتقادات السابقة لم تستبعد النواحى الايجابية فى الاتجاه البنيوى خاصة وانه يمثل محاولة اصيلة لحل مشكلة العلوم الاجتماعية بشكل عام والصراع بين الاتجاهات المثالية والتجريبية بشكل خاص ۰ لقد اهتم ليفى ستروس بنظرية المعرفة epistemologie وبمنهج العلم وحاول تفسير الثقافة بالرجوع الى مكونات العقل الانسانى ۰ وهذا ما جعل يستحق ان يسمى بالفيلسوف الكانطى وقد قبل ليفى ستروس هذه التسمية بشرط أن يكون معلوما انه يسعى نحو كانطية فى مجال الاثنولوجيا وليست كانطية متعالية(٨٨) ۰

لقد أراد ليفى ستروس التوصل الى وعى جديد بالمجتمع عن طريق التحليل البنيوى ۰ ويقوم التحليل البنيوى على رد كافة العناصر الثقافية الى عناصر بنيوية ومن هنا أمكن تعريف علاقات التقابل والارتباط والتعديل والتحويل بين العناصر وهكذا توصل ليفى ستروس الى تفسير التماثلات homologies بين الأنظمة داخل مجتمع واحد او بين مجتمعات متعددة ۰ ويحدث هذا التفسير فى ضوء منهج جدلى وليس فى ضوء عملية ميكانيكية صرفه وقد استعان ليفى شتراوس ، من أجل تسجيل الانفاق والاختلاف بالأشكال النسقية اى بالنماذج التى استطاع تجريدها فى مستويات مختلفة وامكنه ان يقارن بينها ۰

---

(87) Lane op. cit. p. 18.

(88) C. Ltvi. Strauss. Le cru et le cuit p. 19 Quoted in Runciman op. cit. p. 199.

وتتجلى رغبة ليفى ستروس فى التوصل الى مبدا للتفسير فى قوله بضرورة التوصل الى البنية اللا واعية أو اللا شعورية الكامنة وراء كل نظام اجتماعى ، وسيتيح مبدأ التفسير الذى نتوصل اليه المقارنة بين مجتمعات مختلفة مما يسهل لنا تفسيرها .

أما عن اهتمام ليفى ستروس بالأساطير ودراسته لها فهو اهتمام نابع من اعتقاد بأن هناك طبيعة بشرية واحدة تجمع بين العقلية البدائية والعقلية العلمية فى صورتها الحديثة .

ان الأساطير لا تعنى عند ليفى ستروس سوى العقل البشرى الذى يضعها مستعينا فى ذلك بالعالم ، على اعتبار انه هو نفسه جزء منه (اى جزء من العالم) ويهوى الانسجام ، الا انه يقرر فى الوقت نفسه ان الأساطير ترسم لنا صورة محسوسة عن العالم ، على اعتبار أن هذه الصورة مسجلة منذ البداية فى صميم التكوين المعمارى للعقل البشرى(٨٩) . لقد اعتبر ليفى ستروس كافة الأساطير مرتبطة ببعضها البعض ، ذلك انها تحكى قصة مستعينة فى ذلك بالتاريخ والأدب ، ولأنها تملك بنية خاصة بها فهى ترتبط أيضا بالموسيقى . ان الأساطير بسبب طبيعتها لابد وأن تمضى بطريقة دياكرونية أى منذ البداية الى النهاية وكل حدث يسلم الى غيره من الأحداث . وللأسطورة أيضا بعد سانكرونى فى داخلها ، وهى مثل الموسيقى تخضع للتحولات سواء على شكل تكرارات أى اطرادات أو اختلافات(٩٠) .

ولا شك أن ليفى ستروس قد نجح فى كشف قصور المناهج الوضعية فى دراسة الظواهر الانسانية لوقوفها عند سطح الظواهر وتجزئتها الى ذرات . واستطاع كذلك أن يبرز الى الضوء تفرقة جوهرية بين عالم

---

(٨٩) د. زكريا ابراهيم : مرجع سابق ، ص ٩١ .

(90) Badcock op. cit. p. 54.

الخبرة العينية المباشرة ، والصورة العلمية التى تهدف الى كشف اعماقه ، والتمييز بين متغيراته وثوابته ، كما لا يمكننا أن نغفل اهمية تعيين مجالات النماذج الميكانيكية والاحصائية التى يؤدى الخلط بينها الى الكثير من اختلاف التفسيرات وتشتت النتائج(٩١) ٠

وترجع أصالة ليفى شتراوس على تأكيده على الشكل وعلى اولوية العلاقات على الكيانات القائمة بذاتها ٠ وعلى أهمية العلاقة بين العمل الميدانى والنظرى ، أى بين وصف الظواهر وتحليلها بنيويا ٠ انه ينظر الى الاثنولوجيا (الانثروبولوجيا) باعتبارها دراسة للانسان فى الماضى والحاضر ، وفى كل المظاهر ـ الطبيعية واللغوية والثقافية سواء الواعية أو اللا واعية ٠ وقد حاول ربط السانكرونى بالدياكرونى ، والفرد بالثقافة ، والفسيولوجى بالسيكولوجى ، والتحليل الموضوعى للأنظمة بالخبرة الذاتية للأفراد ٠ وبهذا كله قدم شيئا جديدا واصيلا ٠



---

(٩١) د٠ صلاح قنصوه : الموضوعية فى العلوم الانسانية ٠ دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٨١

خاتمة

حاولنا فى الفصول السابقة أن نعالج موضوع التفسير من زوايا عدة فتحدثنا عنه كعملية منهجية اساسية فى العلم بصفة عامة والعلوم الاجتماعية بصفة خاصة ، وبينا الاشكال التى يوجد عليها فى العلم ، وقد حاولنا أن نتتبع فكر المدارس والاتجاهات المختلفة لنصل الى رؤية كل منها الى هذا الموضوع الهام ، وذلك فى اطار نظرة نقدية تبين النواحى الايجابية والسلبية فى كل اتجاه .

وترجع اهمية موضوع التفسير وخطورته فى الوقت نفسه الى عاملين رئيسيين :

أولا : ان احد الاسس التى يقوم عليها العلم هو التوصل الى كشف الغامض واظهار الخفى بقصد الفهم والتنبؤ وان امكن التحكم ، ولا يتسنى هذا الكشف الا بعملية منهجية دقيقة هى تفسير الظواهر تفسيرا يقوم على اجلاء ما خفى فى الطبيعة سواء الفيزيائية أم الانسانية والاجتماعية .

ثانيا : اذا اعتبرنا العلوم الاجتماعية علوما ـ وهو ما استقر عليه الراى بين كافة العلماء وفلاسفة العلم ـ فان معنى ذلك هو أنها تحاول تطوير نظريات تفسر بها الوقائع الاجتماعية . وتعتبر دراسة التفسير هى دراسة لمدى علمية العلوم الاجتماعية وقدرتها على الوقوف على قدميها فى استقلال عن العلوم الطبيعية مع احتفاظها فى الوقت نفسه بالنظرة الموضوعية وسيرها على أسس ومبادىء منهجية علمية .

وقد حاولنا فى البداية أن نعطى فكرة سريعة عن العلم فى اطاره العام ، ووجدنا أنه عملية مستمرة متطورة تقوم أساسا على

منهج : فلا يكفى معرفة نتائج العلوم ، وانما الاهم هو معرفة الخطوات والعمليات التى ادت الى تلك النتائج . ومن هنا جاء الاهتمام بمناهج العلم . فناقشنا فى هذا الاطار فلسفة العلوم الاجتماعية من حيث موضوع الدراسة ومنهج البحث الملائم وابرزنا بعض المشكلات التى لم تحسم بعد ولا زالت محل خلاف فى الراى .

ولقد كان الراى السائد بشكل عام هو ان العلم فى حاجة ، بصفة دائمة ، الى منهج للدراسة ، منهج يكون محددا منذ البداية يلتزم به الباحث ويسير على دربه حتى يصل الى نتائج تثرى المعرفة . الا ان بعض الآراء المعاصرة ـ التى نتفق معها ترى عدم التقيد بمنهج واحد محدد ، والمطلوب هو ترك حرية الاختيار مفتوحة امام الباحث العلمى . ان الطبيعة تكشف عن نفسها بواسطة مجموعة من المناهج وليس بواسطة منهج بعينه ، ومن الخطأ ان نقيد انفسنا مقدما . (١) ويخطىء الباحث اذا ظن ان الاساطير الموجودة لدى الشعوب البدائية اسقاطات او خيالات ، وانما هى استبصارات عميقة فى داخل طبيعة الاشياء ، تفوق احيانا قدرة العلم الحديث . فالاسطورة اعمق فى النفاذ الى الواقع عن العلم الذى يظل مرتبطا بالسطح . وقد راينا كيف أكد ليفى ستروس دور الأساطير فى دراسة المجتمعات الانسانية ، واننا لنؤكد بدورنا أهمية دراسة الاعراف والعادات والمعايير السائدة فى المجتمعات كأحد العوامل المساعدة فى البحث العلمى .

ان معالجتنا لموضوع التفسير وضعنا فى قلب مشكلة العلوم الاجتماعية فتعدد الآراء وتباينها وتصارعها احيانا يرجع ولا شك الى تعقد موضوع

---

(1) P. Feyerabend , Against Method, Outline of an Anarchist Theory of Knowledge . London : New Left Books 1975, p. 20 .

الدراسة الاجتماعى . وبينما نجد أن التفسير فى العلوم الطبيعية يقوم على قاعدة صلبة متمثلة فى اتفاق العلماء ، نفاجيء بعكس ذلك فى مجال العلو م الاجتماعية حيث العلماء لا زالوا مختلفين حول موضوع الدراسة وأيضا حول الموقف الذى يتخذونه بازاءه (أى المنهج) . ولا شك ان احد المهام الخطيرة لفلسفة العلم هى حل تلك المشاكل والتقريب من وجهات النظر المتباينه . ان اضطلاع فلسفة العلوم الاجتماعية بتحليل المناهج والنظريات والافتراضات لكفيل بحل كثير من المشكلات التى تواجه العلوم الاجتماعية . وتدخل الدراسة التى قدمناها فى اطار هذه المحاولات .

ان الازمة الحالية فى التفسير ، والمتمثلة فى عدم اتفاق الآراء ، تؤثر تأثيرا سلبيا على العلوم الاجتماعية ، وتضعف من قدرتها على التطور والنمو على نحو يجعلها تلحق بركب العلوم الدقيقة .

ان طبيعة موضوع الدراسة الاجتماعية متعدد الجوانب مما يجعل الباحث مرتبطا به على نحو يصعب معه الوصول الى نظرة موضوعية وهذا ما دعى الوضعية والاتجاه الطبيعى الى الابتعاد عن موضوع الدراسة والى الاكتفاء بتطبيق المناهج التجريبية للعلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية من اجل الوصول الى تفسير سليم للظواهر . ويكفى - فى رايهم - ان تكون تلك المناهج هى المحك الذى يقيس تطور كافة العلوم . وقد نتج عن هذا الاتجاه دعوتهم الىالشكل الاستنباطى للتفسير واخذهم بالأسباب او العلل فى تفسير الظواهر الاجتماعية . لقة اهتمت الاتجاهات الوضعية بالوقائع مبعدة الميتافيزيقا والايديولوجيا ، منكرة الفلسفة والنظرية ، مما أدى بها الى الاستسلام الكامل للمعطى والتعلق بالسطح دون النفاذ الى ما وراءه .

لقد اغفل هذا الاتجاه عملية الفهم واهميتها فى الدراسة الاجتماعية. ان التفسير يتطلب منا ، الى جانب كشف اسباب الفعل أو الظاهرة موضع الدراسة ،، فهم هذا الفعل أو تل كالظاهرة ، ولا يتسنى هذا الا عن طريق

ادراك المعتقدات والميول المرتبطة بكل من السياق الاجتماعيو النظـــم الاجتماعية وقيم الأفراد المنتمين الى الموقف ٠

ولما كانت الفنومنولوجيا معنية بالمعنى الكامن وراء الظواهر من أجل ادراك الماهيات ، فانها رفضت التفسير القائم على اعطاء الأسباب ، خاصة وانه يغفل الدوافع والأهداف ، واتجهت الى الفهم كوسيلة لكشف ما خفى ، منهجها فى ذلك الوصف والتحليل ٠ الا أن اتجاهها هذا جعلها تغفل كثيرا من الاسئلة الهامة فى مجال العلوم الاجتماعية ٠ وتتمثل هذه الاسئلة فى الآتى : لماذا توجد أنظمة متعددة فى المجتمع ؟ ولماذا تحدث عمليات تغير اجتماعى ؟ ولماذا يتميز هذا التغير باطرادا تمعينة ؟ ٠٠٠ الخ ٠ ولا شك أن الاجابة على أمثال هذهالا سئلة يحتاج الى الوصول الى قوانين سببية ٠ وقد أدى تركيز الاتجاه الفنومنولوجى على المعنى ، والنموذج المثالى ، والماهية ٠٠٠ الخ الى الاقتراب من موضوع الدراسة الى حد يصعـــب معه التوصل الى نظرية اجتماعية علمية ٠

واذ اكانت الوظيفية أرادت الابتعاد عن موضوع الدراسة من اجـل كشف الوظيفة داخل النسق الا أن ذلك أدى بها الى استبعاد العوامـــل الخارجية التى قد تؤثر بالفعل على هذا النسق ٠ وقد تطور هـــذا الموقف الى استبعاد أحد العناصر الهامة فى التفسير وهو التاريخ ٠ ان الواقعة أو الظاهرة موضع البحث ، خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية ، ليست منفصلة عن جذورها بل هى مرتبطة بما حدث من قبل تماما مثـل ارتباطها بالاهداف المستقبلة ٠

وحاولت البنيوية التوصل الى معرفة بالعلاقات بين العناصر المكونة للموقف ، ولم تكتف بالسطح الظاهر وانما حاولت الوصول الى النماذج أو البنيات العميقة ٠ ولا شك أن هذا الاتجاه يعد تطورا بالنسبة للاتجاهات السابقة عليه ، الا أنه اهمل كما اهل الاتجاه الوظيفى من قبل عنصر

التاريخ وتأثيره على الموقف كما استبعد الاسباب التى اذا استبعدت قلت احتمالات التوصل الى تفسيرات سليمة وكاملة .

ولا شك أن هناك علاقة جدلية بين الباحث وموضوعه ، خاصة فى الدراسات الاجتماعية ، فاذا استطاع الباحث الاقتراب من موضوعه ، وفى نفس الوقت الاحتفاظ بما يسمى « المسافة النفسية » - كما اطلق عليها عالم اللغويات تشومسكى(٢) - فان هذا يتيح بالتأكيد القدرة على التثبت والتحقق ويصل بنا الى نوع من الموضوعية .

واننا لنرى أن التفسير عملية أساسية فى منهج العلوم الاجتماعية. وكأى عملية علمية تحتاج الى ان تأخذ شكلا متفقا عليه ، وقد قدم النموذج الاستنباطى شكلا جديدا بالدراسة ، مدخلا القوانين أو القضايا العامة فى مقدماته . الا أن هذا وحده غير كاف ، فالتفسير يستدعى الفهم ، ومن الخطأ القول بتعارضهما - الفهم والتفسير - فى قطبين متقابلين ، وانما لا بد أن يكمل احدهما الآخر فى علاقة جدلية داخل عملية واحدة : ان التفسير بدون الوصول الى فهم الاطار الذى تقع فيه الاحداث ودوافع وغايات الافراد ثم المعنى الكامن فى الموقف ، هذا التفسير مستحيل ، كما أن الفهم بدون ادراك العلل والاسباب وكافة العناصر الداخلة فى الموقف مستبعد .

وقد أثارت الاتجاهات الوظيفية والبنيوية موضوعات هامة لا بد من أخذها فى الاعتبار عند تفسيرنا للظواهر ، فالوظيفة التى يؤديها كل عنصر فى النسق تلعب دورا لا شك فى أهميته ، كما أن ترابط البنية وشكل العلاقات التى تربط عناصره يؤثر بدرجة كبيرة ، خاصة اذا أخذنا فى اعتبارنا المستوى العميق الكامن وراء السطح الظاهر . وتتيح دراسة

---

(٢) تحدثنا عنه بالتفصيل فى الفصل الخامس .

البنيات الموجودة فى نسق معين ثم العلاقات بينها وبين الانساق الاخرى ، التوصل الى دمج كافة العناصر الاجتماعية المحدودة فى اطار أوسع يضمها جميعا ، ويتيح كشف الظواهر الاجتماعية الشاملة أو الكلية ٠ وأهمية الظاهرة الاجتماعية الشاملة ترجع الى كونها تشير من جهة الى الكلية الموضوعية للمجتمع ، ومن جهة أخرى الى الوعى الذى يدرك هذا الواقع ٠ ان الظاهرة الكلية أو الشاملة تكشف عن الوعى فى تعقده وفى ابداعه مما يسهل التوصل الى تفسير توليدى وديناميكى ٠

وعلينا الا نغفل أهمية المعطيات التاريخية فى تفسير الظواهر الاجتماعية ٠ فبينما تحوى الطبيعة عوامل غير واعية تؤثر على بعضها البعض وينتج عنها قوانين عامة فان المجتمع يتأثر بمجرى التاريخ ، ويعتبر الواقع التاريخى جزءا هاما وأساسيا من الواقع الاجتماعى ٠

ويرتبط العامل التاريخى بالتطور والتغير ، وهو ما غفلت عنه بعض المدارس الفكرية ٠ واذا كان ماركس قد سبق أن كتب فى أطروحته الشهيرة عن فيورباخ يقول: « ان الفلاسفة قد صرفوا كل اهتماماتهم حتى الآن الى تفسير العالم على انحاء متعددة فى حين أن بيت القصيد هو تغييره »(٣) فاننا نضيف أن التفسير اذا سار بشكل سليم يتضمن التغيير ٠ فاذا أخذ التفسير فى اعتباره العوامل التاريخية وتطور المجتمعات فان معنى ذلك هو كشف التغير والتطور والازمات التى هى جزء من الظواهر الاجتماعية التى ندرسها ٠ ان التاريخ يرتبط بشكل مباشر بالعلوم الاجتماعية وخاصة فى مجال التفسير ٠ ان الموقف الواقعى الكامل يتضمن كل من السببية والحتمية مما يتيح التوصل الى الأشكال التفسيرية السليمة ٠

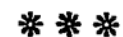
ان علينا من جهة ان ندرك الطابع التاريخى لموضوع الدراسة الاجتماعى ـ وهو ما يميزه عن العلوم الطبيعية ـ ومن جهة أخرى ندخل

---

(٣) د ٠ زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ٠ ص ٢٤٣ ٠

طرق التحليل التاريخى فى الدراسات الاجتماعية . ونستطيع القول أننا لا نستطيع أن نفهم أو نفسر أى موضوع فى المجال الاجتماعى بدون الاشارة الى التاريخ ، ولا يعنى هذا أن نرد الدراسة الاجتماعية الى علم التاريخ ، ذلك أن التفسير فى ضوء التاريخ وحده غير كاف ولا بد من الاعتبارات الأخرى التى ذكرناها من قبل (السبب ، المعنى ، الوظيفة ، المستوى العميق .... الخ) .

ولا يسعنا فى نهاية هذه الدراسة الا أن نقول اننا حاولنا القاء بعض الضوء على أحد الموضوعات الهامة فى فلسفة العلوم الاجتماعية ، وقد كان يمكن لهذه الدراسة أن تأخذ اشكالا أخرى تحت نفس العنوان ، فلا توجد كلمة نهائية فى العلم ، خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية ، الا أننا نؤمن أن أى جهد وأى فكر لكفيل بوضع لبنة فى الصرح الشامل للعلم والفكر .



المراجـــــــع

أولا : المراجع العربية :

١ ـ د . أحمد أبو زيد : ماذا يحدث فى علوم الانسان والمجتمع ، عالم الفكر ، الكويت ، المجلد الثـامن ، العـدد الأول ابريل ـ مايو ـ يونيـة ١٩٧٧) .

٢ ـ د . أميره مطر : الفلسفة عند اليونان ، القاهرة ، دار مطابع الشعب ، ١٩٦٥ .

٣ ـ د . توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، القاهرة ، دار النهضـة العربية ، ١٩٦٧ .

٤ ـ جان بياجيه : البنيويه ، ترجمة عارف منيمنه وبشير أوبرى ، بيروت ، منشورات عويدات ، ١٩٧١ .

٥ ـ جورج سارتون : تاريخا لعلم ، الجزء الاول ، ترجمة محمـــد خلف الله وآخرون ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ .

٦ ـ حامد عمار : المنهج العلمى فى دراسة المجتمع ، (وصــفه وحدوده) . القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٠ .

٧ ـ د . حسن حنفى : الظاهريات وازمة العلوم الأوروبية ، الفكـر المعاصر ، عدد ٥٩ ، يناير ١٩٧٠ .

٨ ـ د . صلاح قنصوه : الموضوعية فى العلوم الانسانية ، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٨١

٩ ــ ف . ريدنيك : ما هى ميكانيكا الكم ، موسكو ، دار ميرا للطباعة والنشر ، ١٩٧١ .

١٠ ــ د . زكى نجيب محمود : نحو فلسفة علمية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ .

١١ ــ ــــــــــ : المنطق الوضعى ، جزءان ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٦ .

١٢ ــ د . زكريا ابراهيم : قيمة العلم بين النظر والتطبيق ، الفكر المعاصر ، عدد ١٠ فبراير ١٩٦٦ .

١٣ ــ ــــــــــ : مشكلات فلسفية ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧١ ، ص ١٢٩ .

١٤ ــ ــــــــــ : مشكلة البنية ، او اضواء على البنيوية ــ القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧٦ .

١٥ ــ د . على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ .

١٧ ــ : دور الدراسات الانسانية فى عصر العلم والتكنولوجيا ، مجلة الطليعة ، السنة العاشرة ، ابريل ١٩٧٤ .

١٨ ــ كارل بوبر : عقم المذهب التاريخى ، ترجمة د . عبد الحميد صبره ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٥٩ .

١٩ ــ د . محمد عارف : المنهج فى علم الاجتماع ، جزءان ، القاهرة دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ .

٢٠ ــ د ٠ محمود رجب : المنهج الظاهراتى فى الفلسفة ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس ٠ ١٩٧١ ٠

٢١ ــ د ٠ محمود زيدان : الاستقراء والمنهج العلمى ، بيروت ، مكتبة الجامعة الامريكية ، ١٩٦٦ ٠

٢٢ ــ د ٠ مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الاول تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ٠

٢٣ ــ هوســـــرل : التأملات الديكارتية ، ترجمة د ٠ نازلى اسماعيل حسين ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٠ ٠

٢٤ ــ د ٠ يحيى هويدى : باركلى ، القاهرة ، دار المعارف ، نوابغ الفكر الغربى ، ١٩٦٠ ٠

* * *

ثانيا ـ المراجع الاجنبية

1 — Achuistein, P. and S. F. Barker (eds). : The Legacy of Logical Positvism. Baltimore : The John Hopkins Press, 1969.

2 — Arron, R. : Main Curents in Sociological Thought. (2) trans. by R. Howard and H . Weaver . Middle sex : Pengwin Books INC, 1972.

3 — Badcock, C. R. : Levi . Strauss, Sturcturalism and Sociological Theory. New York : Holmes and Meier publishers, 1976 .

4 — Bierstedt, R. : Emile Durkheim. New York : Dell publishing Co. INC. 1966.

5 — Borger, R. and F. and F. Cioffi (eds). : Explanation in the Behavioural Sciences. Cambridge : The University Press, 1970.

6 — Boudon, R. : The Logic of Sociological Explanation. Translated by T. Burno London : Pengwin Education, 1974.

7 — Braithwaite, R. B. : Scientific Explanation. New York? Hayer & Brothers 1953.

8 — Brown, R. : Explanation in Social Science London . Routledge and KeganPaul 1963 .

9 — Campbell, N. : What is Science ? New York Dover Publications 1952.

10 — Chisholm, R.. H. Feigl , W. F. Frankena et al . : Philosophy. New Jersey : Prentice Hall Inc. Englewood Cliffs, 1964 .

11 — Chomsky, N, : Problems of Explanation in Linguistics. in R. Borger and F. Cioffi (eds.) . Explanation in the Behavioural Sciences pp. 425 - 451.

12 — Churman, C. W. : On the Unification of the Social Sciences. Proceedings of the Fourth International Oonference on the Unity of the Sciences 1975 New York pp. 101 - 110.

13 — Cohen, M. : Rγason in Social Science . in H. Feigl and M. Brodbeck Readings in the philosophy of Science pp. 663 - 673.

14 — Compte , A. : Cours de philosophie positive. (lcre et 2em Lecon) Introduction et note par Ch. Lalo Librarie Hachette, 1931 .

15 — Dore, R. P. : Function and Cause, in Ryan (ed). b The philosophy of Social Explanation pp. 65 - 81.

16 — Dray, W. : Laws and explanation in history. Lond Oxford University Press 1957 .

17 — Durkeim , E. Montesquieu and Rousseau transl . by Manheim R, Michigan, University of Michigan Press 1960.

18 — Durkeim, E. : La Science positive de la morale en Allemagne, Revue philosophique XXIV, 1887.

19 — Durkeim , E., M. Mauss : Primitive Classification, trans by Rodney Niedharm Chicago, the University of Chicago Press, 1963 .

20 — Durkeim, E. : Les Formes élémentaires de la vie religieuse Paris : Félix Alcan , 1912.

21 — Durkeim, E. Les régles de La Méthode Sociologique, Paris : Presse Universitaire de France 1949.

22 — Durkeim, E. : Evolution pédagogique en France, 11. Paris : Librairie Felix Alcan 1912.

23 — Durkeim, E. : Suicide , a study in sociology trans, by J. A. Spaulding. and Simpson London : Routledge and Kegan Paul, 1952 .

24 — Emmet, D. and A. Macintyre (eds) . : Sociological theory and philosophical analysis. London : MacMillan and Co. Ltd . 1970.

25 — Feigl, H. and M. Brodbeck May (eds) . : Readings in the philosohy of Science , New York : Appletoncentury crofs inc. 1953 .

26 — Flew, F. (ed). : Essays in conceptual Analysis, London Macmillan and Co. Ltd. 1960.

27 — Fodor, J. A . : Functional Explenation in psychology, in M. Brodbeck (ed.) . Readings in the philosophy of the Social Sciences. New York : The Macmillan Co. 1968 pp. 223 - 238,

28 — Freides, T. : Literature and Bibliography of the Social Scienes , California : Melville Publishing Co., 1973.

29 — Gibson, Q. : The Logic of Social Inquiry London : Routledge and Kegan Paul 1960.

30 — Giddens, A. Functionalism : Aprés la lutte in social Research . Vol. 43 No. 2 Sumer 1976 pp. 325 - 366.

31 — Girod , R. : Le passage de la Description à l 'explication dans le cadre de la Sociologie concréte , cahiers Internationaux de la Sociologie Vol. XXI 1956, pp. 100 - 113 .

32 — Goldstein, L. J. : The two theses of methodological individualism in British Journal for the philosophy of Science Vol. IX May 1958, pp. 1 - 11.

33 — Greenwood. Explanation in D. D. Runes (ed.) : Dictionary of philosophy New York philosophical Library. 1972

34 — Grawitz, M. : Méthodes des Sciences Sociales Paris : Dalloz , 1974 .

35 — Grunbaum, Causality and the Science of human behavior in H. Feigl and M. Brodbeck , Readings in the philosophy of Science New York. Appleten century crofts Inc. 1953 pp. 766 - 778 .

36 — Gruner, R. : Teleological and Functional Explanation, in Mind, October pp. 516 - 526 .

37 — Gurvitch, G. : Le concept de Structure Sociale. Cahiers Internationaux de Sociologie . 1955 pp. 3 - 44 .

38 — Gurvitch. G. : La crise de l'Explication en Sociologie Cahiers Internationaux de la Sociologie Vol, XXI, 1956 pp. 3 - 18.

39 — Hayek, F. A. : Degrees otexplanation . British Journal for the Philosophy of Sciences. Vol. VI, August 1955, pp. 209 - 225 .

40 — Hempel, C. G. : Logical positivism in the Social Sciences, in The Legacy of Logical positivism, ed . by p. Achuistein and S. F. Barker, Baltimore : The John Hopkins Press, 1969, pp. 192 - 209 .

41 — Hempel, C. G. : Aspects of Scientific Explanation, New York. The Free Press, 1965.

42 — Hempel, G. C. and P. Oppenheim. : The Logic of explanation in H. Feigl and M. Bodbeck (ed.) Readings in the philosophy of Science New York. Apoleton century crofs Inc. 1953 pp. 319 - 352.

43 — Hempel, C. G. : Typological Methods in the Social Sciences in Natanson (ed.) , Philosophy of the Social Seeinces, a reader pp. 210 - 230 .

44 — Hempel , C. G. : Philosophy of Natural Sciences . New York. Prentice Hall Foundations of Philosophy

45 — Hirst. P. Q. : Durkeim , Bernard and Epistemology London : Routledge and Kegan Paul 1955.

46 — Homans, G. C. : The Nature of Social Science. New York Harcourt Brace and World 1967 .

47 — Homans, G. C. : Bringing men back , in . A . Ryan (ed). The Philosophy of Social Explanation pp. 50 - 64.

48 — Homans, G. C. : The relevance of psychology to the explanation of social phenomena in R. Borger and E. Cioffi (ed.) Explanation in the Behavioral Sciences Cambridge Univ. Press 1970, pp. 313 - 325 .

49 — Hospers, p. Q. : What is explanation, in Essays in conceptual analysis, Flew A. (ed.) London Macmillan and Co. Ltd. 1960, pp. 94 - 119 .

50 — Jeans, J. (Sir) : Physics and philosophy Cambridge Univ. press, 1948 .

51 — Kaplan, A. : The Conduct of Inquiry . Methodoogy for Behavioral Science, New York Chandler Publishing Co., 1964 .

52 — Kaufman, F. : Methodology of the Social Sciences. New York. The Humanities Press 1958.

53 — Kolakowski , L. : Positivist philosophy. Translated by Norbert Gutermen - Middlessex : Pelican Books, 1972.

54 — Kuypers, K. : The Sciences of Man and the Theory of Husserl's two Attitudes. in the Latter Husserl pp. 186 - 195.

55 — Lane. M. (ed.) : Introduction to Structuralism . New York Basic Books. Inc . Publishers , 1970.

56 — Levi - Strauss, C. : Anthropologie Sturucturale. Paris Librarie Plon, 1958 .

57 — Levi - Strauss, C. : Le cru et le cuit paris : Librairie plon 1964.

58 — Levi - Strauss, C. : Critéres scientifiques dans les disciplines sociales et humaines. Aletheia No. 4 Mai 1966, pp. 189 - 212 .

59 — Lukes, S. : Emile Durkeim . New York : Harper an Row Publishers, 1972.

60 — Lundberg , G. A. : The Postulates of Science and their Implications for sociology . in M. Natanson (ed .) . philoeoph of the Social Sciences pp. 33 - 72.

61 — Machlup, F. : Are the Social Sciences Really Inferior in M. Natanson (ed.) . Philosophy of the Social Sciences, a reader pp. 158 - 180 .

62 — Mac Iver . : Levels of Explanation in History , in A. Brodbeck (ed.) Readnigs in the Philosogily of the Social Sciences New York : The Macmillan Company. 1968. pp, 304 - 316.

63 — Macleod, R. B. : Phenomenology . in D. L. Sills (ed.): International Encyclopedia of the Social Sciences. Vol. 12 London: The Macmillan Company and The Free Press, 1968.

64 — Malinowski, B. : Anthropology. Eucyclopedia Britannica Suppl. Vo 1. 1. New York and London, 1936, pp . 132 - 33 .

65 — Malinowski. B. : A Scientific Theory of Culture in P. Wienner (ed.) : Readings in Philosophy of Science New York: Charles Scribner's Sons . 1953, pp. 387 - 393.

66 — Martin , J. R. : The doctrine of Verstchen in Explaining, Understanding and teaching. New York : Mc Graw Hill, 1970.

67 — Magee, B. : Popper. Glasgow : William Collins and Sons Co. 1975 .

68 — Marcus, H. : Reason and Revolution. London:Routledge and Kegan Paul, 1955 .

69 — Don Matindale (ed.). Functionalism in The Social Sciences . Philadelphia : The American Academy of Political and Social Sciences, 1965.

70 — Merton, R. M. : Manifest and Latent Functions, in Demerath and Peterson (eds.) : System, Change and Conflict. New York : The Free Press , 1967.

71 — Nagel, E. : The Structure of Science : Problems in the

Logic of Scientific Explanation. New York, Harcort, Brace and World Inc ., 1961 .

72 — Nagel. E. : Problems of concept and Theory Formation. in Natanson (ed.) : Philosophy of the Social Science. pp. 189 209 .

73 — Nagel, E. : The Logic of Historical Analysis in M. Feigl and M. Brodbeck (eds.) : Readings in the Philosophy of Science, pp. 688 - 700.

74 — Natanson , M. (ed.) : Philosophy of the Social Science, a reader. New York : Random House, 1963.

75 — Pap, A. : An Introducion to the Philosophy of Science London : Eyre and Spottis Woode, 1963.

76 — Poincaré . : Science et Méthode . Paris : Ernest Flammarion 1908.

77 — Passmore, J. : Explanation in everyday life, in Science and in History . in History and Theory . Vol. 11 No. 2, 1962, pp. 105 - 125 .

78 — Paz , O. : Claude Lévi-Strauss. An Introduction. Translated by J.S. Benstein and M. Benstein. London : Cornell University Press, 1970.

79 — Piaget, J. : Le Structuralisme Paris : P. U. F. 1968. Cornell University Press, 1970.

80 — Pivcevic. : · Husserl and Phenomenology . London : Hutchinson University Librairy, 1970.

81 — Popper. K. : The Open Society and its Ennemies. Vol. II. London : Routledge and Kegan Paul, 1962.

82 — Popper, K. : The Poverty of Historicism. London : Routledge and Kegan Paul, 1957.

83 — Popper, K. : Unity of Method in the Natural and Social Sciences. in D. Braybrooke (ed.) . Philosophical Problems of the Social Sciences. New York : The Macmillan Co. 1965, pp. 32 41 .

84 — Radcliffe - Brown, A. R. : Structure and Function in Primitive Society. London : 1952 .

85 — Radcliffe - Brown, A. R. : A Natural Science of Society Illinois : The Free Press, 1957.

86 — Raison, T. (ed.) : The Founding Fathers of Social Science . London : Pengwin Books , 1969.

87 — Rescher, N. : Sciesntific Explanation. New York : The Free Press, 1970 .

88 — Runciman, W. G. : What is Structuralism ? in A Ryan (ed.) : The Philosophy of Social Explanation pp. 189 - 202.

89 — Ryan, A. (ed.) : The Philosophy of Social Explanation London : Oxford University Press, 1973.

90 — Ryan, A. (ed.) . The Philosophy of the Social Sciences, London : Macmillan Co. Ltd.. 1970.

91 — Sartre, J. P. : Critique de la Raison Dialectique: Paris: Gallimard, 1960.

92 — Schutz , A. : Concept and Theory Formation in the Social Sciences. in Natanson (ed.) Philosophy of the Social Sciences pp. 231 - 249.

93 — O,Neill (ed.) . Modes of Individualism and Collectivism London, Heinemann, 1973.

94 — Schutz , A. and T. Luckmann . : The structures of The Life - World. trans by R. M. Zaner and H. T. Englelhardt . London . Heineman 1974 .

95 — Schutz, A. : The Social World and The Theory of Social Action in Braybrook (ed.) p. p. 53 - 67.

96 — Schlick, M. : Description and explanation in philip. P. Wiener (ed.) : Readings in Philosophy of Scicne, New York : Charles Scribner's Sons 1953 pp. 470 - 473.

96 — Skinner, B. F. : Is a Science of Human Behaviour Possible ? in Philosophical Problems of the Social Sciences ed. by D. Braybrook, New York : The Macmillan Co. 1965 pp. 19 - 26 .

98 — Skinner, B. F. : The scheme of Behaviour explanations in Braybrook (ed.) . pp. 42 - 52.

99 — Stroker, E. : Edmund Husserl's Phenomenology as Foundation of Natural Science, in The Latter Husserl and The Idea of Phenomenology . Papers and conference. Univ . of Waterlo Ap. 9-14, 1969 V. 2 . 1972 , pp. 245 - 257 .

100 — Spiegelberg : The Phenomenological Movement a historical introudction The Hage : Martinus Nijhoff 1969.

101 — Stinch, Combe, A. L. : Constructing Social Theroy. New York Hancourt Brace & World Inc., 1968 .

102 — Taylor, C. : The Explanation of Purposive Behaviour. in T. Borger and Cioffi (eds.) Explanation in the Behavioural Sciences . Cambridge : The University Press, 1970, pp. 49-51.

103 — Theobald, D. W. : Introduction to the philosophy of Science. London Methuen & Co. Lth. 1968.

104 — Thion, S. : - Structurologie. Aletheia : Le Structuralisme No. 4 Mai 1966, pp. 219 - 227.

105 — Thompson , K : Auguste Compte. The Foundation of Sociology . New York : John Willy and Sons, 1975.

106 — Tiryakian, E. A. Sociologism and Existentism, Engl. wood, Cliff : Prentice Hall Inc.. 1962.

107 — Toulmin, S. E. : Forseight and Understanding : An Inquiry into The Aims of Science. New York : Harper Torop Books, 1961 .

108 — Von Wright, G. H. : Explanation and Understanding. London : Routledge and Kegan Paul, 1971.

109 — Watkins, J. : Ideal type and historical explanation in H. Feigl and M. Brodbeck (ed.) : Readings in the Philosophy of Science, N. Y. Appleton century crofts Inc. 1963, pp. 723 - 743.

110 — Weber, M. : The Methodology of the Social Sciences. trans. by E. A. Shils and H. A. Finch. Illinois : The Free Press 1949 .

111 — Wiener, P. : Readings in Philosophy of Science. New York : Charles Scibner's Sons, 1953 .

112 — Winch, P. The idea of a social science. London Routledge and Kegan Paul, 1958 .

113 — Weingartner. R. H. : The quarrel about historical explanation in : M. Brodbeck (ed.) : Readings in the Philosophy of the Social Sciences . New York : The Macmillan Company 1968, pp. pp. 345 - 362 .

114 — Yolton , J. W.:Explanation, in British Journal for the Philosophy of Science Vol. 10, 1959, 60.

* * *

المحتويـــات

الصفحة

الصفحة

الصفحة



رقم الايداع ٤٦٤٨ / ١٩٩٨

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر - حيضان الموصلي بجوار جامع الرعاة
ت ٩٢٥٣٠٤